

كيف تستذكر القرآن؟

دكتور

أحمد محمد أحمد حشيش

أستاذ ورئيس قسم المرافعات
بحقوق طنطا - ووكيلها سابقاً

(طبعة ثالثة)

٢٠٢٠

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ
الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ
عَدُوًّا مَّبِينًا﴾^(١)

«صدق الله العظيم»

(١) آية ٥٣/الإسراء.

إلى القارئ:

تحية طيبة وبعد،

أولاً: القرآن خلق من خلق الله (١٧/القيامة). لكنه ليس خلقاً فحسب، إنما هو أيضاً خلق ناطق، أى مخلوق له لسان عربى مبين (١٩٥/الشعراء). وحتى قراءته، ليست وسيلة لفهمه موضوعياً، ولا وسيلة لفهمه شكلياً على الأقل، إنما هى وسيلة للاستماع له والإنصات إليه على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

ثانياً: وهو ليس ناطقاً بلسانه العربى المبين (١٠٣/النحل) فحسب، إنما هو أيضاً ناطق بثلاث لغات عربية معاً، أى ناطق بالعربية الفاتحة التى كانت موجودة قبل خلق الإنسان، وناطق بالعربية الجامعة (٣١-٣٣/البقرة)، وناطق بالعربية الخاتمة مصداقاً لقول خاتم الرسل: (أعطيت فواتح الكلام، وجوامعه، وخواتمه)^(٢).

ثالثاً: أما وسيلة فهمه كاملاً، أى فهمه شكلاً وموضوعاً وفهمه جملة وتفصيلاً، فهى استذكاره، الذى هو مهياً له أصلاً وينتظره دائماً من كل مخاطب من المخاطبين به، مصداقاً لقوله تعالى أربع مرات فى سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(٣). واستذكاره بهذا واجب، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (استذكروا القرآن)^(٤).

رابعاً: والقرآن بعدئذ ليس فى حاجة إلى متكلمين يتكلمون نيابة عنه، ولا مفسرين يترجمونه عربياً رغم عربيته المبينة. ولا مفتين يتفهبون على حسابيه، وعلى هامشه. إنما هو فى حاجة إلى أن يستذكره المخاطبون به واحداً بواحد، وعلى الدوام.

(١) ٢٠٤/الأعراف.

(٢) الألبانى: صحيح الجامع الصغير وزيادته - الفتح الكبير - ٣ - ١٩٨٨ - المكتب الإسلامى ببيروت - ٢٤١ رقم ١٠٨٥.

(٣) ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠/القمر.

(٤) الألبانى: السابق - ص ٢٢٢ رقم ٩٣٦.

مقدمة

١ - مناظ الانتفاع الكامل بالقرآن :

أولاً: لم ينزل القرآن إلا للانتفاع به، شكلاً وموضوعاً جملة وتفصيلاً علمياً وعملياً دنيوياً وأخروياً، من جانب المخاطبين به مخاطباً بمخاطب (١/إبراهيم)، ما لم يَأْب هذا الانتفاع (١٧٥-١٧٦/الأعراف).

ولا انتفاع كامل بهذا القرآن إلا وفقاً لمنهجه العلمى بمعناه الدقيق، الذى هو إذن علم العلم science of science بالقرآن والموجود فى القرآن ذاته لضمان الانتفاع الكامل به علمياً وعملياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (قيدوا العلم بالكتاب) (١)، أى قيدوا العلم كميّاً ونوعياً بمنهجه كعلم قائم بذاته موجود بالقرآن.

وبذا، فالانتفاع الكامل بالقرآن منوط بالمنهج القرآنى بمعناه العلمى الدقيق، والذى هو إذن مناظ الانتفاع علمياً وعملياً بالقرآن كاملاً. وبدون هذا المنهج العلمى، فلا يكون الانتفاع بالقرآن انتفاعاً كاملاً حتى لو كان انتفاعاً علمياً وعملياً، إنما هو انتفاع ناقص على الأقل.

٢ - ثانياً: وعلاج الانتفاع الناقص بالقرآن هو: «إحياء» المنهج القرآنى، إحياءً دورياً، أى إحياءً منتظماً زمانياً، ومرة كل قرن على الأكثر، لكيلا يتنامى هذا الانتفاع الناقص بمرور الزمان، أو يتنامى نقصان هذا الانتفاع أكثر فأكثر مع مرور الزمان، أو يظل هذا الانتفاع ناقصاً رغم مرور الزمان وبحسب الأحوال، وذلك مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأن استنهاض الهمم فى هذا الصدد: (إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) (٢).

(٢-١) الألبانى: السابق - ص ٨١٦ رقم ٤٤٣٤، ص ٣٨٢ رقم ١٨٧٢.

وللأسف أن هذا «الإحياء المنهجي» لم يتحقق ولو مرة واحدة طوال الأربعة عشر قرناً الماضية، أى لم يحدث للانتفاع بالقرآن أى تجديد دورى على الإطلاق، وبالتالي لا يزال هذا الانتفاع ناقصاً رغم مرور الزمان ومتناقصاً تبعاً مع مرور الزمان، أى أن هذا الانتفاع فى محنة حالياً.

٣- وثالثاً: المحنة المعاصرة تتمثل فى أن القرآن، لا كله مجهول للمخاطبين به، ولا كله معلوم لهم، ولا كل المعلوم منه مفهوم لهم، ولا كل المفهوم منه مُنتفع به علمياً وعملياً من جانبهم، ولا فارق فى هذا الشأن بين مخاطب به ومخاطب آخر، من حيث أن غالبية الانتفاع بالقرآن إما مبنية على معرفة ناقصة وإما مبنية على معرفة ناقصة وخاطئة معاً، وبحسب الأحوال:

١- فمثلاً معرفة قارئيه بقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾^(١)، ليست معرفة كاملة علمياً وعملياً، إنما هى معرفة ناقصة، أى ينقصها معرفة أشياء أخرى موجودة فى القرآن للانتفاع بها، مثل: أ- من أى «ماء» فى الأرض كانت غرفة الماء اللازمة لخلق الطين، قبل خلق آدم منه بعدئذ؟

ب- أهو نفس الماء فى «عنوان» سورته القرآنية، وفى «موضوع» الآية الأولى من هذه السورة، وفى «موضوع» آية فى سورة أخرى؟.
ج- أهو نفس الماء الذى منه شرب واغتسل آدم وزوجه منذ أهبطا إلى الأرض، وطوال حياتهما فيها بعدئذ، وكان منه حتى ماء غسلهما عقب وفاتهما الواحد بعد الآخر؟ د- أهو نفس مُغتسل أيوب وشرايه البارد؟ ... وهكذا.

(١) ٧/السجدة.

٢- ومثلاً: معرفة قارئيه بقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ﴾^(١). باعتباره «البحر المتقد ناراً»، ليست معرفة كاملة علمياً وعملياً، إنما هي معرفة ناقصة، أى ينقصها معرفة أشياء أخرى موجودة فى القرآن للانتفاع بها، مثل دور هذا البحر قبل خلق الأرض وبعد زوالها فى آخر الزمان. فضلاً عن كون هذه المعرفة خاطئة وذلك لسببين: أ - فالبحر أياً كان هو بحر ماء. ب- والماء ليس من المواد القابلة للاشتعال، أو المعاونة عليه على الأقل، بل العكس هو الصحيح، أى هى من مواد إطفاء النار.

والسبب الوحيد لتراكم الانتفاع الناقص أو الانتفاع الناقص والخاطئ بالقرآن لغاية الآن، هو «التفريط». وليس التفريط فى «إحياء» المنهج القرآنى دورياً وبنظام فحسب، إنما التفريط أيضاً فى «المنهج القرآنى» ذاته، حتى منهج قراءة القرآن على الأقل، مصداقاً لقول خاتم الرسل سلفاً: (سيخرج أقوام من أمتى يشربون القرآن كشربهم اللبن)^(٢)، وقوله أيضاً: (سيكون بعدى من أمتى قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حلقيمهم...)^(٣).

٤- إحياء المنهج القرآنى:

أولاً: هو إحياء للمنهج العلمى، الذى كان الرسول كمعلم أول من انتهجه، فى أول «أكاديمية» أنشئت فى مطلع القرن السابع الميلادى، وكانت أول أكاديمية لتعليم وتعلم الأميين (٢/الجمعة، ١٥١/البقرة)، ودامت طوال بعثته من ٦١٠م حتى ٦٣٢م.

والرسول لم ينتهج هذا المنهج، إلا باعتباره المنهج الجديد، والمنهج المستحدث، أى الذى استحدثه القرآن لأول مرة تاريخياً. فهو لم يكن موجوداً ولا معروفاً قبل نزول القرآن، ولا هو من «مناهج الإنسان» المصطنعة أرضياً وزيفاً، بل إن القرآن لم يستحدث هذا المنهج إلا كبديل

(١) ٦/الطور.

(٢-٣) الألبانى: السابق - ص ٦٨١ رقم ٣٦٥٣، ص ٦٨٣ رقم ٣٦٦٢.

عن كافة مناهج الإنسان ولو لم تظهر إلا بعد نزول القرآن، وبالتالي فهو وحده المنهج العلمى بمعناه الدقيق منذ نزول القرآن وإلى مالا نهاية.

وهو لم يكن منهجاً لتعليم وتعلم القرآن قراءة وكتاباً وحكمة فحسب، إنما كان منهجاً لتعليم وتعلم القرآن من ناحية، ومنهجاً لتعليم وتعلم غيره من ناحية أخرى، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

ولو سئلت بعدئذ عن المنهج العلمى الذى يجب أن تنتهجه دور التعليم والتعلم فى مصر مثلاً، فإنه «المنهج القرآنى» قولاً واحداً، سواء فى التعليم الجامعى أو فى التعليم قبل الجامعى، وسواء فى التعليم العام أو فى التعليم الخاص كالتعليم العسكرى والتعليم شبه العسكرى (الشرطى) والتعليم الفنى والتعليم الأزهرى، وسواء فى التعليم الحكومى أو فى التعليم الأهلى إلخ.

٥- وثانياً: الالتزام بهذا المنهج القرآنى واجب، أى واجب منهجى، ويضم منهجين معاً هما: منهج قراءة القرآن شكلياً (١٨/القيامة)، ومنهج استذكار القرآن موضوعياً (١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠/القمر).

وهو بهذا لا يقبل أن يُستبدل به أى من مناهج الإنسان على الإطلاق، ولا يقبل - حتى - التبويض أو الاختزال، وشأنه فى ذلك شأن القرآن الذى نزل مصاحباً ومنهجاً له، أى منهجاً للانتفاع به علمياً وعملياً دنيوياً وأخروياً، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾^(٢).

(١) ١٥١/البقرة، ٨٥/البقرة.

علماً بأن منهج استذكار القرآن هو الأكثر حاجة إلى الإحياء حالياً، وأكثر بكثير جداً من منهج قراءة القرآن. فالمنهج الأول، ليس فقط المنهج الأكثر صعوبة، إنما يُعاني أيضاً من «الأفول» القديم زمانياً والراسخ تاريخياً والقائم لغاية الآن، بل واكبه حتى أفول «نظام» القدوة المثالية الموجود في القرآن والسنة.

٦- ثالثاً: إذن «الإحياء المنهجي» ضرورة علمية عصرية ملحة للغاية وعلى الدوام. وهو يقتضى، تفويض مناهج الإنسان المصطنعة أرضياً وزيفاً ولو لم تظهر إلا بعد نزول القرآن كمناهج الكلام والتفسير والتفقيه، وكذا تفويض النظام البديل للقدوة المثالية. وذلك قبل إحياء منهج استذكار القرآن موضوعياً، ونظام القدوة المثالية الموجودة عدداً وحصراً في القرآن والسنة.

هذا، وإلا ظل الانتفاع بالقرآن ناقصاً للغاية على الأقل، أى مبنياً على معرفة ناقصة أو معرفة ناقصة وخاطئة معاً، وذلك على نحو ما تقدم بيان مثاله.

وخذ «زمزم» مثلاً آخرًا في هذا الشأن: ١- أزمزم مذكورة في القرآن، أم لا، ولو لم يكن معقولاً أن يُقرط القرآن في بيانها (٣٨/الأنعام، ٨٩/النحل)، حتى ولو لم تُقرط السنة في بيان وجودها زمن طفولة إسماعيل؟. ٢- أزمزم حديثة حداثة طفولة إسماعيل، أم قديمة قدم مُغتسل أيوب وشرابه البارد (٤٢/ص) على الأقل، أم هي أقدم حتى من عصر أيوب بن نوح (٨٤/الأنعام) قبل عصر هود وإبراهيم وإسماعيل بزمان طويل؟. ٣- في أى موضع أو مواضع، ذكر القرآن قصة زمزم تاريخياً في داخله؟

ومن ثم نأمل، ألا ينظر أحد إلى المؤلف الراهن، إلا باعتباره «تجربة» صاحبه، سواء في إحياء منهج استذكار القرآن موضوعياً، أو

فى إحياء نظام القدوة المثالية الموجودة فى القرآن والسنة، وأوائل من انتهجوا هذا المنهج قديماً.

٧- محتويات المؤلف الراهن:

بداية البداية فى تعليم وتعلم القرآن لأول مرة تاريخياً، لم يكن مبدأً: وجوب قراءته فحسب، إنما كان مبدأً وجوب قراءته قراءة مصحوبة دائماً بمبدأ: الرب الخالق، وذلك منذ أول درس قرآنى تلقاه خاتم الرسل فى غار حراء فى نهاية العقد الأول من القرن السابع الميلادى أى فى عام ٦١٠م، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١).

ومبدأ الرب الخالق بهذا هو المبدأ الذى أنيط بمنهج استنكار القرآن إثباته، وإثباته للمخاطبين بالقرآن مخاطباً بمخاطب، وبالتالي فإن محتويات المؤلف الراهن تتوزع تبعاً على المباحث التالية:

المبحث الأول: منهج استنكار القرآن.

المبحث الثانى: علم الخلق.

المبحث الثالث: نشأة التاريخ والجغرافية.

المبحث الرابع: جغرافية نشأة الأرض.

المبحث الخامس: جغرافية معالم الأرض.

المبحث السادس: جغرافية العصر الحجرى.

المبحث السابع: جغرافية القرآن.

(١) ١/العلق.

المبحث الأول
منهج
استذكار القرآن

كيف تبني نفسك علمياً ؟

نحن نبحت علمياً وعملياً فى القرآن. ونبحت أكثر وأكثر عما لم يعرفه «قارئ» من هذا القرآن بعد. ومن ثم، فلن نبحت عما عرفه «القراء» كافة من قبل. بل حتى لن نبحت مثلهم بطريق القراءة فحسب. فنحن لن نبحت إلا بطريق استذكار القرآن. وهو الطريق الذى تهيأ القرآن له وأوجبه على كل مخاطب به أربع مرات فى سورة القمر.

أى استذكاره مباشرة وكاملاً. واستذكاره علمياً وعملياً، وبدءاً من أول آية (١/العلق) نزلت فى أول درس قرآنى تلقاه الرسول فى غار حراء عام ٦١٠م. وكان هذا الاستذكار «منهج» الرسول واللذين من بعده أبى بكر وعمر، أى منهج القدوة المثالية جميعاً، ودائماً حتى بعد مماتهم إلى يوم القيامة، مصداقاً لقول الرسول: (استذكروا القرآن).

مقدمة المبحث

٨- مواقف الناس من المنهج العلمي:

توالت على منهج استنكار القرآن منذ نزل به سلطاناً من الله لغاية الآن، ثلاثة مواقف للناس، أو بالأحرى ثلاثة عصور متباينة ومتعاقبة هي: عصر ازدهاره، وعصر أفوله، ثم عصر إحيائه مستقبلاً. ومن ثم تتوزع محتويات المبحث الراهن على ثلاثة مطالب كما يلي:

المطلب الأول: المنهج في عصر ازدهاره.

المطلب الثاني: المنهج في عصر أفوله.

المطلب الثالث: المنهج في عصر إحيائه.

المطلب الأول

المنهج

في عصر ازدهاره

٩- تمهيد:

عصر ازدهار منهج استنكار القرآن، هو عصر «المنهج العلمي المثالي»، وازدهاره كمنهج للقدوة المثالية التي يُقتدى بها حال حياتها وبعد مماتها إلى يوم القيامة. وازدهاره على حساب كافة «مناهج الإنسان الفكرية» التي كانت موجودة قبل نزول القرآن، حتى «منهج الشعر» مثلاً، الذي أصبح محظوراً تعليمه وتعلمه بعدئذٍ مصداقاً لقوله تعالى في شأنه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (١).

وبذا تتوزع محتويات المطلب الراهن على فرعين: الفرع الأول:

المنهج العلمي المثالي. الفرع الثاني: نظام القدوة المثالية.

(١) ٦٩/يس.

الفرع الأول

المنهج العلمى المثالى

١٠- الطريقة المثلى للتعليم والتعلم :

منهج استذكار القرآن موضوعياً، لم يستحدث فى الحياة العلمية لأول مرة تاريخياً، إلا باعتباره أمثل طريقة للتعليم والتعلم، فهما متكاملان ومتلازمان معاً ولازمان لبعضهما، باعتبارهما وجهين لشيء واحد هو «العلم» مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (إنما العلم بالتعلم)^(١). فأول العلم هو إذن «التعلم» بمعنى المعرفة على الأقل، وبمعنى المعرفة والفهم على الأكثر. أما آخر العلم، فهو تفعيله عملاً، أى الانتفاع به عملياً، وعلى سبيل الواجب الذى يُسأل كل إنسان عنه يوم القيامة مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (لا تزول قدماً ابن آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى يُسأل عن خمس: وماذا عمل فيما علم؟)^(٢).

لكن هذا الواجب مُقيد سلبياً، لكيلا يُتخذ التعلم كأداة للتباهى أو الممارسة أو الاجترار مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، أو تماروا به السفهاء، ولا لتجتروا به المجالس. فمن فعل ذلك فالنار النار)^(٣). ولكيلا يُتخذ التعلم كأداة مقايضة دنيوية مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (من يعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب عوضاً من الدنيا، لم يجد

(١) الألبانى: السابق - ص ٤٦١ رقم ٢٣٢٨، ص ١٢٢٠ رقم ٧٢٩٩، ص ١٢٢٩

رقم ٧٣٧٠.

عرف الجنة يوم القيامة^(١). ولكيلا يُتخذ التعلم كأداة احتكار للعلم مصداقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (من كتم علماً عن أهله، ألجم يوم القيامة لجاماً من النار)^(٢).

بل إن هذا الواجب مُقيد إيجابياً، لصالح «التعليم»، لكي يُتخذ التعلم كأداة لتفشي التعليم بعدئذ، مصداقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)^(٣). وقوله أيضاً: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)^(٤). وهذا يقتضى أن يكون التعلم شاملاً المعرفة والفهم.

١١ - الفهم :

إن التعلم هو المعرفة (العلم) على الأقل، إن لم يكن المعرفة والفهم على الأكثر، فالفهم زيادة علم، ولو أنه علم على أى الأحوال، وعلم قائم بذاته، لكنه علم زائد يهبه الله لمن يشاء لو سأله إياه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٥). على أن أداة الإنسان للفهم، ليست الفؤاد (العقل)، إنما القلب، ما لم يكن غير مهياً للفهم أصلاً مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾^(٦).

وسبحانه قد يهب العلم دون الفهم كما حدث لداوود في قضية الحرث، أو يهب العلم والفهم كما حدث لسليمان في نفس القضية، وكنتاها هبة مُقننة قرانياً مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(٧).

^(١) الألبانى: السابق - ص ١٠٦٠ رقم ٦١٥٩، ص ١١١١ رقم ٦٥١٧، ص ٦٢٦

رقم ٣٣١٩، ص ٦٢٠ رقم ٣٢٦٨.

^(٥) ١١٤/طه، ١٧٩/الأعراف، ٧٩/الأنبياء.

وقد وهب الله هذا العلم الزائد إلى إبراهيم قبل عصر سليمان بزمان، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه إلى أبيه آزر: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾^(١). أى وهبه سبحانه علم الرشد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(٢).

وهو نفس العلم الذى طلب موسى إلى الخضر أن يعلمه إياه، بعد أن تلقاه من ربه مباشرة (٦٥/الكهف)، مصداقاً لقوله تعالى على لسان موسى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾^(٣).

١٢- موضوع المنهج:

لم يستحدث القرآن هذا المنهج العلمى لأول مرة تاريخياً، إلا لتعليم وتعلم «العلم النافع»، الذى يجب دائماً سؤاله من الله مصداقاً لقول خاتم الرسل: (سلوا الله علماً نافعاً...)^(٤).

فهو إذن ليس منهجاً لتعليم وتعلم العلم غير النافع، الذى يجب دائماً التعوذ بالله منه، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (وتعوذوا بالله من علم لا ينفع)^(٥). فالعلم غير النافع، هو اللاعلم non-science أصلاً، أى نقيض العلم بمعناه الدقيق، وبالتالي فهما لا يجتمعان، ولا يتساويان، ولا يستويان مطلقاً (٩/الزمر)، ولا مصدرهما واحد.

والاختلاف بينهما بقدر اختلاف الظلمات عن النور (٨٩/الشعراء)، والعماء عن الإبصار (٥٠/الأنعام، ١٦/الرعد)، والغى عن الرشد (٢٥٦/البقرة).

^(١) ٤٣/مريم، ٥١/الأنبياء، ٦٦/الكهف.

^(٤) الألبانى: السابق - ص ٦٧٩ رقم ٣٦٣٥، ص ٦٧٩ رقم ٣٦٣٥.

وهذا اللاعلم يضم «اللغو» إجمالاً (٣/المؤمنون، ٥٢/القصص، ٧٢/الفرقان) أى اللغو بنوعيه. ومنهما «اللهو» إجمالاً (٦٤/الإسراء) أى اللهو بأنواعه، التى منها «لهو الحديث» (٦/لقمان) بأنواعه. وهى كلها تقع تحت باب الظلمات التى نزل القرآن ليخرج الناس منها (١/إبراهيم)، والتى يأمل أعداء القرآن أن يغلّبوه بها مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ (١).

١٣- العلم الحق :

الفؤاد (العقل) ليس مصنوعاً لتصنيع العلم أو تصديره كما يتصور العلمانيون لغاية الآن، إنما هو مستودع العلم على الأكثر، بل هو حتى مستودع العلم النافع أو مستودع العلم غير النافع أو مستودعها معاً بحسب الأحوال.

لكن الفؤاد هبة شأنه شأن العلم النافع، أى كلاهما هبة من الله، وبالتالي يجب أن يكون العقل مستودعاً للعلم النافع على الأكثر، أى مستودعاً للعلم الحق، أو بالأحرى للعلم بمعناه الدقيق فى القرآن، وكما يلى بيانه:

فأولاً: لم يؤت الإنسان علماً بالمعنى الدقيق، إلا مصدره ربه مباشرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٢). وكل علم أوتيّه الإنسان من ربه هو علم بالمعنى الدقيق، حتى لو كان هذا العلم قليلاً

(٢-١) ٢٦/فصلت، ٥/العلق.

مصدقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١). وهو قليل، لكى يظل الإنسان يستزيد ربه من هذا العلم الحق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٢). فهو لن يحاط علماً بشئ من هذا العلم الحق إلا بإذن ربه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾^(٣).

وثانياً: هذا القليل من العلم الحق هو العلم اللازم والكافى للبيان، الذى علمه الله للإنسان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(٤). وهو نفس البيان الذى تكفل الله بوجوده جملة وتفصيلاً فى القرآن مؤخراً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾^(٥). أى هو البيان الموجود حالياً فى القرآن، الذى علمه الله، ولم يعلمه سبحانه إلا بصفته الرحمن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾^(٦).

١٤ - تعليم وتعلم العلم الحق:

هذا التعليم من جانب الله والتعلم من جانب الإنسان، هو خلق من خلق الله، وبالتالى له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بينهما (٢٠/العنكبوت) وذلك على النحو التالى:

فأولاً: فى نشأته الأولى تاريخياً، هو تعليم وتعلم البيان (٣-٤/الرحمن)، باعتباره مجموعة من «العلوم» نزلت تباعاً على أوائل من تلقوها مباشرة من ربهم، وهم «أولوا العلم» الذين شهدوا بعد الملائكة التى

(١-١) ٨٥/الإسراء، ١١٤/طه، ٢٥٥/البقرة، ٣-٤/الرحمن، ١٩/القيامة، ١-٢/الرحمن.

شهدت بعد الله بوحدانيتها والوهيته سبحانه وقيامه على شئون القسط (١٨/آل عمران).

وثانياً: فى نشأته الآخرة تاريخياً، هو تعليم وتعلم القرآن، باعتباره مجموعة العلوم التى سبق نزولها تباعاً على أولى العلم، فضلاً عما استحدثه هذا القرآن من علوم، كان خاتم الرسل أول من تلقاها مباشرة من ربه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(١).

والقرآن، لم يستحدث فقط علم قراءته شكلياً (١٨/القيامة)، إنما استحدث أيضاً علم استذكاره موضوعياً (١٧/القمر)، الذى بدوره لا يزال من «المجاهيل» فى ذهن المخاطبين بالقرآن الأمور الثلاثة التالية مثلاً:

١- ما مدى كُفر الغلام الذى قتله الخضر فى مصر قديماً (٧٤ و ٨٠، و ٨١/الكهف)؟. لأن القرآن لم يذكر هذا البيان فى سورة الكهف، إنما ذكره فى سورة أخرى، هى سورة الأحقاف، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِيُؤَدِّيهِ أَفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعِثَّانِ اللَّهَ وَيَلْتَكُمِ الْإِنِّ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢). وقول خاتم الرسل: (الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً، ولو عاش لأرهب أبويه طغياناً وكفراً)^(٣).

٢- من هما شخصاً الحوار بين الكافر والمؤمن فى الآيات ٣٢-٤٢ من سورة الكهف، ولو لم يكونا أكثر من صاحبين؟. هو حوار بين

^(١) ١١٣/النساء، ١٧/الأحقاف.

^(٢) الألبانى: السابق- ص ٧٧٠ رقم ٤١٨٣.

إبنى نوح قبل الطوفان، ولو لم يكونا من أهل بعضهما قياساً على وضع الكافر نسبة إلى أبيه نوح (٤٦/هود). بل حتى المؤمن منهما وقتذاك هو: أيوب عليه السلام، الذي بعث نبياً ورسولاً بعد الطوفان.

٣- فى أى «مكان» فى الأرض، كان التنور الذى بدأ منه طوفان نوح (٤٠/هود)؟. هو أدنى الأرض (٣/الروم)، ولو أن نوح لم يُولد أو يُبعث أو يصنع السفينة فى هذا المكان، ولا بدأت رحلته وسفينته منه.

١٥- استذكار القرآن :

إن تعليم وتعلم القرآن، لا موضوعه علم واحد إنما موضوعه مجموعة من العلوم sciences، ولا هو تعليم وتعلم لها لأول مرة تاريخياً إنما هو تعليم وتعلم لها لثانى مرة تاريخياً، أى هو بمثابة استذكار لعلوم سبق تعليمها للإنسان وتعلمها من جانبه، وبالتالي صار هذا الاستذكار واجباً على المخاطبين بالقرآن مخاطباً بمخاطب وعلى الدوام، مصداقاً لقوله تعالى أربع مرات فى سورة القمر، «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ» (١). وقول خاتم الرسل: (اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعْمِ مِنْ عَقْلِهَا) (٢).

والاستذكار إذن بمعنى تعلم القرآن وتعهد به بالتعلم على الدوام، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (تَعَلَّمُوا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعَاهَدُوا، وَتَعَنُّوا بِهِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْمَخَاضِ فِي الْعُقْلِ) (٣). لكن جوهره هو تعهد القرآن بالتعلم على الدوام، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (تَعَاهَدُوا

(١) ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠/القمر.
(٢) الألبانى: السابق - ص ٢٢٢ رقم ٩٣٦، ص ٥٧٠ رقم ٢٩٦٤.

الْقُرْآنَ. فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنْ قُلُوبِ الرِّجَالِ مِنْ
الإبل من عقْلِها)(١).

وهذا المنهج العلمى المثالى، لم يكن فقط منهج التعليم والتعلم فى
أكاديمية الأميين الأولى تاريخياً (٢/الجمعة، ١٥١/البقرة)، إنما كان أيضاً
منهج القدوة المثالية منذ نزول القرآن حتى وفاة آخرهم تاريخياً، وهو عمر
بن الخطاب.

١٦- تعلم القرآن لغوياً:

أنزل القرآن عربياً (٢/يوسف، ٣٧/الرعد، ١١٣/طه، ٢٨/الزمر،
٣/فصلت، ٧/الشورى، ٣/الزخرف). وليس معنى هذا بالبداهة صحة
«الأخطاء» الشائعة فى حقه وحق لغته، وكأنهما لم ينزل بهما سلطاناً من
الله فى القرآن ذاته، رغم أن العكس هو الصحيح بإطلاق (٣٨/الأنعام،
٩٨/النحل)، وذلك كما يلى:

فأولاً: لا القرآن كتاب لغة، ولا كتاب مطالعة، ولا كتاب آداب لغوية
(شعرية أو قصصية)، حتى لو نزل مصحوباً بطريقة مثلى لقراءته شكلياً
(١٨/القيامة). ومؤدى ذلك ما يلى: ١- فلا القرآن يتكون من ألفاظ
وحروف، وعبارات، ودلالات، ونصوص وامتون ... إلخ، إنما هو يتكون
من اصطلاحات، وأمثال، وآيات، وسور. ٢- ولا القرآن يقبل التفسير
باللغة، لفظياً وحرفياً، نحويًا وصرفيًا، أثرًا ومأثورًا، شعرًا وقصصًا .. إلخ.

(١) الألبانى: السابق - ص ٥٦٨ رقم ٢٩٥٦.

ثانياً: ولا لغة القرآن لغة عادية، إنما هي أمثل وأعلى لغة بإطلاق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(١). ومؤدى ذلك ما يلى:
 ١- لغته الأمثل والأعلى هي العربية، فلا هي إذن أعجمية كلها (٤٤/فصلت) أو بعضها (٤٤/فصلت)، ولا هو نزل على بعض الأعجميين (١٩٨-١٩٩/الشعراء).

٢- لغته العربية لا تقبل «الترجمة» على الإطلاق. فلا هي تقبل الترجمة إلى لغة أمثل وأعلى منها، ولا الترجمة إلى لغة أدنى، سواء كانت اللغة الأدنى هي لغة أعجمية أو كانت - من باب أولى - لغة عربية كما يحدث منذ قديم في تراجم القرآن لغوياً إلى لغة عربية أبسط والتي اشتهرت تسميتها تجوزاً بـ «التفاسير». لذا فإن هذه التراجم الشائعة، تزيد لا طائل منه، ولا تفع فيه علمياً أو عملياً، وبالتالي لا حاجة للقرآن إليها، بعد أن تكفل الله ببيانه جملة وتفصيلاً وللمخاطبين به كافة (١٩/القيامة).

ثالثاً: ولا القرآن يخاطب المخاطبين به بلغة واحدة، ولا حتى بلغتين عربية، إنما هو يخاطبهم بثلاث لغات عربية معاً، ولو أن كل لغة منها هي لغة قائمة بذاتها، أى لها استقلالها. ويدهى أن من لم يتعلم تلك اللغات كلها أو بعضها على الأقل، فلا له تعليم القرآن في جامعة أو قبل الجامعة، ولا له أن يدعو إلى كتاب الله على الأقل، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. وهذا مأل كل من يُنكر منهج استذكار القرآن.

(١) ٦٠/النحل.

الفرع الثانى

منهج

القدوة المثالية

١٧- نظام القدوة المثالية :

ربما يكون أول الأنظمة حاجة إلى الاستذكار، والإحياء هو «نظام» القدوة المثالية منذ نزول القرآن حتى يوم القيامة. فبموجبه لم يعد لأحد أن يقتدى بآخر أياً كان، إلا وفق هذا النظام المُقنن قانوناً، أى أصبح للاقتداء بإنسان نظامه القانونى.

وهذا النظام يضم عدداً وحسراً، الاقتداء بالرسول ولو بعد مماته، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١). كما يضم الاقتداء بغير الرسول بعد مماته مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (اقتدوا باللذين من بعدي أبى بكر وعمر)^(٢).

وهم من المبشرين بالجنة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (عشرة فى الجنة: النبى فى الجنة، وأبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة...)^(٣). وما يميزهم عن غيرهم، حتى من المبشرين بالجنة، هو كونهم قدوة مثالية كاملة ودائمة إلى يوم القيامة.

فنطاق هذه القدوة لم يعد يقتصر على أولهم ولو أنه رسول الله، إنما صار يطال الأخيرين، فكلاهما قدوة مثالية كاملة ودائمة دنيوياً وأخروياً،

(١) ٢١ / الأحزاب.

(٢-٣) الألبانى: السابق - ص ٢٥٤ رقم ١١٤٢، ص ٧٤٢ رقم ٤٠١٠.

مصدقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (إن أهل الدرجات العلى يراهم من هم أسفل منهم كما ترون الكوكب الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعماء) (١).

وهم بهذا «السابقون الأولون» على كل المهاجرين والأنصار، ويجب الاقتداء بهم أي اتباعهم بإحسان إلى يوم القيامة، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٢).

بل إن الاقتداء بهم أي اتباعهم بإحسان هو معيار الفرقة الناجية من النار، مصداقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (ليأتين على أمتي ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل ...، وإن بنى إسرائيل تفرقت على اثنين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة وكلهم في النار إلا ملة واحدة، ما أنا عليه وأصحابي) (٣).

وهم قدوة العلم بالحق، حتى فيما يتعلق بالعلم بحق الحيوان تجاه الإنسان، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه، فقالت: إني لم أخلق لهذا، إنما خلقت للحرث. فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر. وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب، فذهب منها بشاة. فطلبه حتى استنقذها منه، فقال له الذئب: هنا استنقذتها مني، فمن لها

(١) الألباني: السابق - ص ٤٠٧ رقم ٢٠٣٠.

(٢) ١٠٠ / التوبة.

(٣) الألباني: السابق - ص ٩٤٣ رقم ٣٥٤٣.

يوم السبع يوم لا راعى لها غيرى، فإنى أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر(١).

والقدوة المثالية بهذا وردوا عدداً وحصرأ، فى القرآن والسنة، وبالتالى لا يجوز بعدئذ الإنقاص منهم أو الإضافة إليهم أو التغيير فيهم، لا بطريق القياس، ولا بطريق الاجتهاد، ولا بأى طريق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾(٢).

١٨ - آخر القدوة المثالية تاريخياً:

أول هذه القدوة المثالية تاريخياً هو خاتم الرسل، بينما آخرهم تاريخياً هو عمر. لكنه قدوة كاملة بحدها الأدنى وحدها الأقصى على السواء وعلى الدوام إلى يوم القيامة. فاللاقتداء بعمر ليس أدنى حد للاقتداء بإنسان بعد وفاة الرسول فحسب، إنما هو أيضاً أقصى حد للاقتداء بإنسان بعد وفاة الرسول، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: (لو كان بعدى نبي لكان عمر بن الخطاب)(٣). وقوله أيضاً: (أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدهم فى أمر الله عمر...)(٤).

(١) الألبانى: السابق - ص ٥٥٥ رقم ٢٨٧١.

(٢) ٣٦ / الأحزاب.

(٣-٤) الألبانى: السابق - ص ٩٣٥ رقم ٥٢٨٤، ص ٢١٦ رقم ٨٩٥.

فيجب إذن الاقتداء بعمر على الأقل وعلى الأكثر وعلى الدوام إلى يوم القيامة. فهو ليس قدوة شخصية أو مؤقتة على الأكثر، إنما هو أيضاً قدوة موضوعية ومنهجية دائمة إلى ما لا نهاية.

وهو لم يستحق الاقتداء به بعد حياة الرسول، ولا استحق تبشيره بالجنة حال حياة الرسول، ولا استحق أن يحل في الخلافة محل أبي بكر بعد حياته، ولا استحق أن يُدفن بعد مماته جنباً إلى جنب مدفن الرسول ومدفن أبي بكر، إلا لعلاقة وثيقة قلباً وقالباً ظاهراً وباطناً كانت تربط بينه شخصياً وبين «الحق»، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه)^(١). وقوله أيضاً: (إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به)^(٢).

١٩ - كيف توثقت علاقته بالحق؟

علاقة عمر بالحق لم تتوثق حتى غايتها، إلا بالعلم النافع الذي تلقاه مباشرة على يد الرسول، أي لم يتلقاه إلا من الرسول وحده، ولم يتلقاه إلا منه مباشرة، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: (بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أُتِيتُ بِقَدْحِ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّى إِنِّي لَأَرَى الرَّيَّ يَجْرِي مِنْ أَظْفَارِي. ثُمَّ أُعْطِيتُ فَضْلِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ. قَالُوا فَمَا أَوْلَتْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟. قَالَ: الْعِلْمُ)^(٣).

(٣-١) الألبانى: السابق - ص ٣٥٨ رقم ١٧٣٦، ص ٣٧٥ رقم ١٨٣٤، ص ٥٤٩

ولم يكن عمر عالماً فحسب، إنما أيضاً كان عابداً، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: (بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ، وَمِنْهَا مَا مَا يَبْلُغُ أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجْرُهُ. قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟. قال: الدين)(^١).

لكن عمر كان عالماً أكثر منه عابداً، وأفضل منه عابداً، وأفضل بكثير جداً، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأن الفارق بين العالم والعابد: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)(^٢).

فعمر بهذا هو وحده الطالب المتميز عن غيره من طلاب أكاديمية الأميين الأولى (٢/الجمعة)، أولئك الذين لم يكونوا خارج الأكاديمية على نحو ما هم عليه فيها، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنهم: (لو أنكم تكونون على كل حال، على الحالة التي أنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم ...)(^٣).

٢٠ - عمر قدوة لمن ؟

عمر قدوة لكل «طلاب العلم الحق»، أى قدوة لكل طلاب الانتفاع بالقرآن والسنة، انتفاعاً علمياً وعملياً كاملاً، من خلال «المنهج» الذى استحدثه القرآن لأول مرة تاريخياً وتلقنه عمر على يد الرسول مباشرة فى أكاديمية الأميين، وذلك مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: (قد كان فيما

(^١) الألبانى: السابق - ص ٥٤٩ رقم ٢٨٦٠، ص ٧٧٦ رقم ٤٢١٣، ص ٩٣١

مضى قبلكم من الأمم، أناس محدثون. فإن يك في أمتي واحد منهم، فهو عمر بن الخطاب^(١). وقوله أيضاً: (فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر)^(٢). وقوله: (فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه)^(٣).

وكذا قوله بشأن طلاب تعلم الانتفاع بالقرآن والسنة انتفاعاً علمياً وعملياً كاملاً: (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع. وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء. وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء. وإن الأنبياء، لم يورثوا ديناراً، ولا درهماً، إنما ورثوا العلم. فمن أخذه أخذ بحظ وافر)^(٤).

٢١ - أول القدوة المثالية تاريخياً:

آخر هذه القدوة هو عمر، كقدوة لطلاب الانتفاع علمياً وعملياً بالقرآن والسنة على نحو ما تقدم بيانه، وباعتبار طلبهم فريضة عليهم، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (طلب العلم فريضة على كل مسلم. وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر)^(٥).

أما أول هذه القدوة المثالية، فهو خاتم الرسل، كقدوة للعلماء، أي المعلمين مصداقاً لقوله: (إنما بعثني معلماً ميسراً)^(٦)، وقوله أيضاً: (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد، أعلمكم)^(٧).

^(١) الألباني: السابق - ص ٨٠٨ رقم ٤٣٧٧، ص ٥٥٤ رقم ٢٨٦٩، ص ٥٥٠ رقم ٢٨٦٥، ص ١٠٧٩٨ رقم ٦٢٩٧، ص ٧٢٧ رقم ٣٩١٤، ص ٧٣١ رقم ١٨٠٦، ص ٤٦٣ رقم ٢٣٤٦.

لكنه قدوة معلمى الناس الخير، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١). وقول خاتم الرسل: (فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ. إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى النَّمْلَةِ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتِ، لِيُصَلُّوا عَلَيَّ مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ)^(٢).

لذا لم يكن للطلاب أن يعاملوا معلمهم كما يعاملوا بعضهم بعضاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ الْجُبُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٤).

وكان هذا التعليم والتعلم يجرى فى أكاديمية الأميين الأولى تاريخياً (٢/الجمعة)، وباعتبارها قدوة مثالية للأكاديميات بعدئذ، من حيث منهجها العلمى، الذى هو منهج استذكار القرآن.

(١) ٢/الجمعة.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٧٧٦ رقم ٤٢١٣.

(٣-٤) ٦٣/النور، ٢-٥/الحجرات.

المطلب الثانى المنهج فى عصر أفوله

٢٢- تمهيد:

بدء هذا الأقول تاريخياً بالتفريط فى أمرين على الأقل هما: معدل الخير فى الناس، ووحدة أكاديمية الأميين منهجياً. واكتمل هذا الأقول باصطناع قدوة بديلة ومنهجاً بديلاً مما أفضى إلى تدنى معدل الانتفاع بالقرآن لغاية الآن، وبالتالي تتوزع محتويات المطلب الراهن على ثلاثة فروع كما يلي:

الفرع الأول: ملابسات أفول المنهج.

الفرع الثانى: إطاحة بالقدوة ومنهجها.

الفرع الثالث: مآل الانتفاع بالقرآن.

الفرع الأول ملابسات أفول المنهج العلمى

٢٣- بداية الأقول تاريخياً:

بدء أفول منهج استنكار القرآن بعد وفاة آخر قدوة مثالية، أى بعد وفاة عمر. وبدء بالتفريط فى أمرين هما: معدل الخير فى الناس من ناحية، ووحدة أكاديمية الأميين منهجياً من ناحية أخرى.

فأولاً: تناقص معدل الخير فى الناس، تناقصاً سريعاً ومتتالياً، بعد وفاة الرسول عام ١١هـ/٦٣٢م، مصداقاً لقوله سلفاً فى هذا الشأن: (خير

الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته)(^١).

وثانياً: انشطرت أكاديمية الأميين الأولى (٢/الجمعة)، التي ظلت واحدة منهجياً وفاعلة طوال بعثة الرسول من ٦١٠م-٦٣٢م، والذي كان وحده المعلم فيها آنذاك مصداقاً لقوله في هذا الشأن: (إنما بعثني معلماً ميسراً) (^٢). فهي لم تلبث أن انشطرت بعد وفاة عمر، إلى مدرستين كل واحدة منهما تناقض الأخرى وتُتكر منهجها وتحط من نفعها وصوابها، هما: مدرسة الحديث بالحجاز ومدرسة الرأي بالعراق (^٣).

ثالثاً: وحتى أصحاب الرسول، منهم من لم يسلم من هذين الأمرين على الأقل، مصداقاً لقوله بشأنهم: (يرد على يوم القيامة رهط من أصحابي، فيجلون عن الحوض. فأقول: أي رب!! أصحابي. يقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك. إنهم ارتدوا بعدك على أديبارهم)(^٤).

٢٤- تنامي الأقول تاريخياً :

تنامي نطاق الأقول تبعاً، وبالتالي لم يعد يقتصر على منهج استنكار القرآن وحده، إنما أصبح يطال - حتى - نظام القدوة المثالية في القرآن والسنة، وذلك كما يلي:

(^١) الألبانى: السابق - ص ٦٤٢ رقم ٣٢٩٥، ص ٧٣١ رقم ١٨٠٦.

(^٢) لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع انظر صوفى حسن أبو طالب: تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد العربية - ط ٤ - ١٩٩٥ - دار النهضة العربية

- ص ١٣٢-١٣٤، ص ١٦٧، ص ١٧١.

(^٤) الألبانى: السابق - ص ١٣٤٣ رقم ٨٠٨٢.

فأولاً: واكب نقصان معدل الخير فى الناس، تزايد معدل الخداع فيهم تباعاً، أى تزايد خداعهم لأنفسهم بأنفسهم قبل خداع بعضهم البعض، ولدرجة تصديق الكاذبين وتكذيب الصادقين، وتخوين الأمناء واستئمان الخائنين.

بل حتى لدرجة ترئيس التافهين عليهم، أى ترئيسهم ملوكاً وأباطرة وقيصرة وسلاطين وخلفاء وأمراء ورؤساء ووزراء وحكوميين وحكاماء وحكاماً وقادة وأئمة ودعاة ... إلخ، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن سلفاً: (سيأتى على الناس سنوات خداعات، يُصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين. وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟. قال: الرجل التافه يتكلم فى أمر العامة)(^١).

فما بالنا بالمرأة تتكلم حالياً فى أمر العامة، من وراء ظهر القرآن، الذى لم يتخذ من إسم امرأة «عنواناً» لسورة قرآنية على الإطلاق، لا فى عنوان سورة «سبأ»، ولا حتى فى عنوان سورة «مريم» على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾(^٢)؟

وثانياً: واكب انشطار أكاديمية الأميين الأولى، تبغيض واختزال منهجها العلمى على الأقل، ولدرجة قصر المنهج بعدئذ على مجرد قراءة القرآن لفظياً على الأكثر، حتى لو كانت قراءة مصحوبة بحفظ القرآن

(^١) الألبانى: السابق - ص ٦٨١ رقم ٣٦٥٠.

(^٢) ٣٦/آل عمران.

حرفياً ومطالعة تراجم قرائه له لغوياً والتي اشتهرت تسميتها تجوزاً بـ «التفاسير».

ولا يزال هذا التبويض والاختزال قائماً لغاية الآن، ولو أنه لم يتمخض إلا عن قراءة ممن لا يعلموا ما يقولون (٤٣/النساء)، أى قراءة «نفاق» على الأكثر، حتى ولو كانت قراءة ماهرة للغاية، وكانت مصحوبة بحفظ القرآن حرفياً، وحتى لو صارت هذه القراءة هى قراءة أكثرية الأمة حالياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنها سلفاً: (أكثر منافقى أمتى قرأوها)(١).

وخطورة هذا النفاق، ليست خطورة بالغة للغاية فحسب، إنما هى أيضاً خطورة على الأمة بأسرها، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنها سلفاً: (إن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان)(٢). وبالفعل أصبح يُستعاض عن استذكار القرآن موضوعياً (١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠/القمر)، بمطالعة تلك التراجم اللغوية عديمة القيمة علمياً وعملياً، بعد ما تكفل الله ببيان قرآنه جملة وتفصيلاً للمخاطبين به كافة (١٩/القيامة).

٢٥ - ذروة الأفلول تاريخياً:

أفلول منهج استذكار القرآن ونظام القدوة المثالية، بلغ ذروته قبل أن تنقضى ستة قرون ونصف على وفاة الرسول، أى غداة سقوط بغداد والدولة العباسية عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. فآنذاك كادت مدونات ومناهج

(١) الألبانى: السابق - ص ٢٦٣ رقم ١٢٠٣، ص ٣٢٣ رقم ١٥٥٤.

الإنسان أن تُقضى القرآن والسنة عن مكانتهما، وأن تواريهما تماماً خلفها، وأن تحل محلها، وتقوم مقامهما بعدئذ.

فسلط الله عليها، هولاء كفاجر والتتار كقوم لا خلاق لهم، فقاموا بإلقاء كافة هذه المدونات والمناهج في نهر دجلة، وذلك من باب تأييده سبحانه للدين وقتذاك، مصداقاً لقول خاتم الرسل سلفاً: (إن الله تعالى ليؤيد الدين بالرجل الفاجر)^(١). وقوله أيضاً: (إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم)^(٢).

ولا يزال المخاطبون بالقرآن مُعرضين عن فهم مغزى هذا الحدث، الذى أعادهم إلى مُفترق الطرق، الذى كانوا عليه طوال بعثة الرسول: فإما «إحياء التراث الفكرى» للإنسان قبل وبعد نزول القرآن، ولو أن مصدره مجرد دماغ الإنسان على الأكثر، ولا يخلو إذن من المجاهيل. وإما انتهاج «المنهج العلمى» الذى استحدثه القرآن لأول مرة تاريخياً، وكان معمولاً به فى أكاديمية الأميين الأولى، وهو «منهج استنكار القرآن».

بينما مغزاه عصى على الإعراض عنه، لأنه أعادهم إلى الخيار بين طريق الضلال وطريق الهدى، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد. وشر الأمور محدثاتها، وكل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار ...)^(٣).

(٣-١) الألبانى: السابق - ص ٣٧٢ رقم ١٨١٣، ص ٣٨٠ رقم ١٨٦٦، ص ٢٨٧ رقم

الفرع الثانى إطاحة بالقدوة ومنهجها

٢٦- اصطناع بديل للقدوة ومنهجها العلمى:

انشطار أكاديمية الأميين الأولى إلى مدرستين متناقضتين منهجياً، كان الإرهاصة الأولى التى تمخضت بعدئذ عن وجود «ظاهرة» الأئمة والمذاهب (المناهج) والفرق والتراث الفكرى للإنسان. وهذه الظاهرة لم توجد إلا كامتداد تاريخى لنظيرتها التى كانت موجودة قبل نزول القرآن، ولو أنها موجودة فى عصر القرآن، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنها سلفاً: (سيكون فى أمتى اختلاف وفرقة، قوم يُحسنون القيل ويسئون الفعل، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه. هم شرار الخلق والخليفة طوبى لمن قتلهم وقتلوه. يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شئ. من قاتلهم كان أولى بالله منهم. سيماهم التحليق) (١)، أى يعيشون فى الخيال والتهيؤات.

لكن الرسول لم يُشخص هذه الظاهرة باعتبارها فقط «محنة» تعوق الانتفاع بالقرآن، إنما باعتبارها أيضاً «بديلة» القدوة المثالية ومنهجها العلمى، وذلك على التفصيل التالى:

٢٧- اصطناع بديل للقدوة المثالية:

القرآن لم يجعل للمخاطبين به «إماماً» إلا خاتم الرسل وحده، سواء حال حياته أو بعد مماته حتى يوم القيامة (٢١/الأحزاب). ومن ثم، فلا

(١) الألبانى: السابق - ص ٦٨٤ رقم ٣٦٦٨.

إمام ولا أئمة لهم غيره ولو بعد مماته، إلا من المصطنعين أرضياً وزيفاً وأولئك مآلهم معروف مقدماً، وحكمهم كحكم أقرانهم قبل نزول القرآن (٦٥/البقرة، ١٦٦/الأعراف)، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنهم سلفاً: (ستكون أئمة من بعدى، يقولون فلا يُرد عليهم قولهم، يتقاحمون فى النار، كما تقاحم القردة)^(١).

وهناك قوائم بأشخاصهم وأسمائهم، التى لا تقع تحت حصر والمتداولة منذ قديم لغاية الآن، لكنها لا تخلوا فقط من أبى بكر وعمر، إنما تخلو - حتى من خاتم الرسل، أى هى «قوائم» للقذوة البديلة.

٢٨ - اصطناع بديل لمنهج القذوة :

تقدم بيان مآل وحكم القذوة البديلة أى الأئمة، وبصرف النظر عن تباين مناهجهم المصطنعة، أى سواء كانوا متكلمين ثرثارين أو مُفسرين مُتشدقين أو مُفتين متفهبين، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنهم سلفاً: (شرار أمتى الثرثارون المتشدقون المتفهبون)^(٢).

فهؤلاء استبدلوا بالمنهج الجديد الذى استحدثه القرآن، مناهج أقرانهم قبل نزول القرآن، ومنهجاً بمنهج، وبالتالي فهم أسوأ الناس منهجاً فى عصر القرآن، أى أسوأهم طريقاً وتوجهاً، ومن ثم أبغضهم إلى الرسول وأبعدهم منه فى الآخرة، سواء كانوا متكلمين ثرثارين أو مفسرين متشدقين أو مفتين متفهبين، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنهم سلفاً: (إن أبغضكم إليّ وأبعدكم منى فى الآخرة، أسوأكم أخلاقاً: الثرثارون المتفهبون المتشدقون)^(٣).

(٣-١) الألبانى: السابق - ص ٦٧٦ رقم ٣٦١٥، ص ٦٩٠ رقم ٣٧٠٤، ص ٣٢٠ رقم ١٥٣٥.

٢٩ - خطورة البدائل :

خطورة تلك الظاهرة ليست بالغة للغاية فحسب، إنما هي أيضاً خطورة على الأمة كافة، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنها سلفاً: (إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون)^(١).

ولذا فإن مآل اتباعهم فرقة بفرقة معروف مقدماً، ولا يختلف عن مآل نظرائهم قبل نزول القرآن، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنهم سلفاً: (افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ... وافتترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ... والذي نفس محمد بيده، لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، واثنان وسبعون في النار)^(٢).

وهذا هو مآل وحكم تلك الظاهرة المرضية أخروبياً، ومآلها وحكمها أئمة ومناهجاً وفرقاً وتراثاً، وبصرف النظر عن تسمية كل فريق لفرقته، أو عدد مريدي مذهبها، أو مبررها في نجاتها وحدها من النار. لأنها كلها فرق متناقضة مع بعضها، ومُنكرة لبعضها البعض، وتُحبط كل واحدة من نفع وصواب الأخريات إجمالاً وتفصيلاً.

ولا جدوى إذن من المقترحات اليائسة بشأن علاج تلك الظاهرة، عن طريق «التزقيع» فيها، مثل: التقريب بين المذاهب - المقارنة بين المذاهب - الحفاظ على التراث - تجديد الخطاب الديني - قفل باب الإفتاء - تسيير قوافل الدعوة - الدعوة إلى الاجتهاد، أو الجهاد، أو الخلافة، أو الإسلام - مكافحة الإرهاب ... إلخ.

(١) الألباني: السابق - ص ٣٢٢ رقم ١٥٥١، ص ٢٤٥ رقم ١٠٨٢.

٣٠- علاج الظاهرة المرضية :

لا علاج لهذه الظاهرة المزمنة والراسخة والقائمة حالياً والمتنامية تباعاً، إلا «الإطاحة» بها، عن طريق إحياء نظام القدوة المثالية ومنهجها القرآني خاصة منهج استذكار القرآن.

فلم يعد يكفي أن يقف الحجاج والعمار جيلاً بعد جيل، أمام مدافن القدوة المثالية بالمدينة المنورة، ولو أقرروا لهم بأفضليتهم وفضلهم على الأمة كافة، إنما يلزم أيضاً إحياء نظام الاقتداء بهم وبمنهجهم في القرآن والسنة على السواء، وعلى الدوام.

بل كان على الحجاج والعمار على الأقل، أن يسألوا أنفسهم منذ قرون: لم دفن هؤلاء وحدهم معاً، دون أن يُدفن معهم أحداً مات قبلهم أو بعدهم، ودون أن يموتوا معاً، إنما ماتوا تباعاً في أعوام ١١هـ و ١٣هـ و ٢٣هـ على التوالي؟. فلو أنهم سألوا، لعلموا أن هؤلاء هم وحدهم القدوة المثالية إلى يوم القيامة، ولا محل بعدئذ لترديد أسماء غيرهم باعتبارهم «أئمة» في أي عصر أو في أي مكان.

كما أنهم وأتباعهم هم الفرقة الناجية من النار، من بين الثلاثة والسبعين فرقة، ولو أن فرقتهم لم تتخذ لنفسها اسماً معيناً، وذلك على خلاف باقي الفرق، وبالتالي فهي لا تُعرف إلا بمنهجها العلمي الذي هو «منهج استذكار القرآن».

الفرع الثالث مآل الانتفاع بالقرآن

٣١- مُعدل الانتفاع بالقرآن:

لابد من قياس «معدل» الانتفاع بالقرآن انتفاعاً علمياً وعملياً كاملاً، وقياسه دورياً، أى بانتظام زمنياً، ومرة كل قرن على الأكثر وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

أو لابد من قياس هذا المعدل حالياً على الأقل، بعد انقضاء أكثر من أربعة عشر قرناً من وفاة آخر قدوة مثالية عام ٢٣هـ، وكذا بعد مرور قرون من التفريط فى منهج استنكار القرآن، رغم واجب الإمساك بهذا المنهج مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (إنما مثل صاحب القرآن، كمثل صاحب الإبل المعقلة. إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت) (١).

أو بالأحرى، لابد من قياس مدى «تدنى» هذا المعدل حالياً، وتدنيه إلى أدنى درجاته، خاصة أن هذا التدنى لا يزال هو المعوق الذى يعوق المخاطبين بالقرآن عن الاقتناع بأمرين على الأقل، هما ما يلى:

١- الاقتناع بعقم كافة «مناهج الإنسان»، التى اصطنعها عبر تاريخه، ولو أنها لا تقع تحت حصر حالياً. ٢- الاقتناع بزيف كافة «مدونات الإنسان» التى سجل فيها تراثه الفكرى عبر عصور تاريخه حتى الآن، ولو بشأن آدم الأول وزوجه وإبنيه على أقل الأقل.

(١) الألبانى: السابق - ص ٤٦٧ رقم ٢٣٧٢.

٣٢- ما مدى الانتفاع بقصة آدم مثلاً ؟

آدم الأول، هو الإنسان الأول تاريخياً. وقد خص القرآن الإنسان بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هي السورة رقم (٧٦)، أى «سورة الإنسان». أما قصة آدم الأول فقد توزعت على سبع سور قرآنية هي: البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص~.

ورغم انقضاء أكثر من أربعة عشر قرناً على نزول القرآن، لا تزال قصة آدم القرآنية تثير أسئلة علمية. وهذه الأسئلة كثيرة للغاية، وتخلو مدونات الإنسان من إجاباتها الموجودة بالضرورة فى القرآن ذاته (٣٨/الكهف، ٨٩/النحل). ومن هذه الأسئلة ما يلي:

أولاً: من أى «مكان» فى الأرض كانت قبضة التراب، التى منها خلق الله آدم الأول (٢٠/الروم)؟. ومن أى «ماء» فى الأرض كانت غرفة الماء اللازمة لخلق الطين، قبل خلق آدم منه بعدئذ (٧/السجدة)؟.

وكيف جاءت هذه القبضة من «جميع» تلك الأرض؟. وهل لنفس المكان علاقة بنشأة عيسى بن مريم، الذى مثله كمثل آدم من حيث النشأة (٥٩/آل عمران)؟. وهل هذا المكان من «الأرضين» المباركة فى الأرض أم لا؟.

وثانياً: متى وكيف صارت لآدم لغة كاملة وقائمة بذاتها؟. وهل كانت لغة عربية أم أعجمية؟. وهل انقرضت أم لم تنقرض بعد تلك اللغة؟. وهل هى أقدم أم أحدث تاريخياً من لغة الملائكة؟. ومتى وكيف

صارت لهم لغة كاملة وقائمة بذاتها؟. وهل كانت لغتهم عربية أم أعجمية؟. وما أوجه الاختلاف وأوجه التطابق بين اللغتين؟.

وثالثاً: من أى «شجرة» أكل آدم وزوجه فى الجنة؟. ومن أى «ورق الجنة» سترتا سوءاتهما بعد كشفها (٢٢/الأعراف، ١٢١/طه)؟. وهل اقتصر دور الشجرتين على ما أديتاه فى الجنة، أم لهما دورهما فى الأرض بعدئذ؟

ورابعاً: هل عاش آدم الأول يوماً فى غابة أو كهف أو بلا مأوى فى الأرض؟. أو عاش عرياناً، أو بلا مشرب على الأقل؟. من أى «ماء» فى الأرض شرب واغتسل آدم وزوجه منذ أهبطا إلى الأرض، وطوال حياتهما فيها بعدئذ، وكان منه حتى ماء غسلهما عقب وفاة أحدهما بعد الآخر؟. وهل هذا المشرب والمغتسل أقدم أم أحدث تاريخياً من خلق آدم؟. وهل هو موجود حالياً فى الأرض؟.

وخامساً: ماذا كان «إسما» ابنى آدم اللذين قريا قرباناً (٢٧-٣١/المائدة)، قبل أن يُسميهما بنو إسرائيل من مخيلتهم «قايين وهابيل»؟. وهل كان «ذو الكفل» (٨٥/الأنبياء) أحدهما، خاصة أنه كإدريس الذى لم يُذكر فى قائمة ذرارى نوح وإبراهيم (٨٤-٨٦/الأنعام) من الأنبياء والمرسلين؟. وماذا كان دورهما فى الأرض، والذى جعلهما من أهل الذكر فى القرآن؟.

وسادساً: هل «شخصية» أبى الهول هى شخصية نكرة فى التاريخ الإنسانى عالمياً، ولم يعرفها حتى القرآن، ولا السنة على الأقل؟. وهل

تمثاله أقدم أم أحدث زمانياً من بناء بيت المقدس لأول مرة تاريخياً، وبعد أربعين سنة من بناء البيت العتيق لأول مرة تاريخياً؟

وهل تمثاله أحد «أوتاد مصر»، قبل عصر فرعون بزمان طويل، وقبل صيرورته فرعون ذى الأوتاد (١٢/ص~)، أو صيرورته فرعون ذى الأنهار على الأقل (٥١/الزخرف)؟. ولماذا لا يعد من هذه الأوتاد؟.

وهل تمثاله الشاخص ببصره ناحية المشرق، شاخص ناحية الشمس المشرقة نهاراً ومؤقتاً من الصباح إلى الظهر على الأكثر، أم شاخص دائماً وليلاً ونهاراً ناحية مكة والبيت العتيق وزمزم؟. ولماذا يُشخص ببصره ناحيتهم دون سواهم؟

٣٣- معدل الانتفاع بالقصص القرآنى:

إذن بدون الإجابة العلمية على تلك المسائل وغيرها، فإن معدل الانتفاع علمياً وعملياً وكاملاً بقصة آدم القرآنية، هو: صفر، وبمراعاة أمرين بشأن هذا المعدل المتدنى للغاية:

فأولاً: هذا المعدل المتدنى، لا يقتصر على الانتفاع بقصة آدم القرآنية وحدها، دون الانتفاع بباقي القصص القرآنى، وذلك لسببين استحدثنا منهجياً فى عصر أفول المنهج العلمى، وهما ما يلى:

١- بموجب المحدث الأول، يجرى «عزل» القصص القرآنى على استقلال عن القرآن، ثم يجرى بعدئذ توزيع الباقي دون معيار بين المتكلمين والمفسرين والمفتين بحسب الأحوال^(١)، بينما يقع هذا القصص

(١) صوفى حسن أبو طالب: السابق - ص ١٥-١٨.

القرآنى من نصيب «الهواة»، الذين اختزلوه، فقصروه على «قصص الأنبياء والمرسلين» وحدهم، دون غيرهم من «أهل الذكر» كالخضر ولقمان وتبع وذى القرنين.

٢- بموجب المحدث الثانى، لم يعد يُنظر إلى القصص القرآنى باعتباره «اللائحة التفصيلية لكل شىء» (١١١/يوسف) ورد بيانه فى القرآن، الذى نزل تبياناً لكل شىء بإطلاق (٨٩/النحل)، وذلك رغم قوله تعالى بشأن هذه اللائحة: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ... وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»^(١).

فما هو إذن مُعدل الانتفاع علمياً وعملياً بالقرآن كاملاً، بدون تفاصيله فى القصص القرآنى الموجود فيه، وبدون سؤال أهل الذكر الموجودين فيه؟.

٣٤- وثانياً: هذا المعدل المتدنى، يتعلق بالمخاطبين بالقرآن، وبصرف النظر عن اختلاف طوائفهم، التى لا تزال من «المجاهيل» حتى الآن. بينما هم أربع طوائف كما يلى: ١- المؤمنون. وقد خصهم القرآن بعنوان سورة قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٢٣)، أى سورة: «المؤمنون». ٢- المنافقون، أى الفاسقون: وقد خصهم القرآن بعنوان سورة قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٦٣)، أى سورة: «المنافقون». ٣- المطففون، أى الظالمون: وقد خصهم القرآن بعنوان سورة قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٨٣)، أى سورة: «المطففون».

(١) ١١١/يوسف.

٤ - الكافرون: وقد خصهم القرآن بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هي السورة رقم (١٠٩)، أى سورة: «الكافرون». وهى بهذا الاعتبار تعدل ربع القرآن، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (قل يا أيها الكافرون) تعدل ربع القرآن(١).

إذن كل هذه الطوائف حالياً، فى حاجة إلى الانتفاع علمياً وعملياً بالقرآن كاملاً، وبالتالي تلزمهم معرفة الخطاب العلمى والعملى للقرآن كاملاً، وهو الأمر الذى لن يتحقق إلا بإحياء نظام القدوة المثالية الأولى ومنهجها العلمى، الذى استحدثه القرآن لأول مرة تاريخياً، أى منهج استنكار القرآن.

المطلب الثالث

المنهج

فى عصر إحيائه

٣٥ - مقاومة إحيائه مستقبلاً :

إحياء منهج استنكار القرآن، سيلقى حتماً مقاومة بالغة للغاية من جانب اللغويين على اختلاف مناهجهم القديمة (الكلام، التفسير، التفيقه)، بعدما استقر «مجمع اللغة العربية» المصرى مثلاً، على أن يستبدل باصطلاح «استنكار» لفظ «حفظ» حرفياً. إذ يقول «استنكر الشئ:

(١) الألبانى: السابق - ص ٨١٢ رقم ٤٤٠٥.

ذكره»^(١)، و«ذكر الشيء: حفظه»^(٢)، و«استذكر الكتاب: درسه للحفظ»^(٣).

لكن إحيائه ضرورة علمية عصرية ملحة للغاية وعلى الدوام، لتعلقه بإحياء الأمانة التي حملها الإنسان، وإحياء ذكر الرب الخالق، وإحياء القرآن باعتباره خلقاً من خلق الله، وإحياء موضوعه كاملاً إحياءً علمياً وعملياً.

الفرع الأول إحياء أمانة الإنسان

٣٦- مستودع الأمانة:

القلب السليم (٨٩/الشعراء) هو مستودع الأمانة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال...)^(٤). وهى الأمانة التى عرضت على الإنسان قديماً، وحملها، رغم ظلمته وجهله بكل شيء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى الْإِنْسَانِ فَأَبَىٰ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ وَلَوْ خَشِيَ النَّاسُ إِيَّاهُ إِنَّ الْأَمَانَةَ عَلَى الْبَنَاتِ عَلَى الْمَرْءِ وَالْحَقُّ لِلَّهِ عَالِمًا﴾^(٥).

٣٧- ماهية الأمانة :

هى الالتزام بمعرفة وفهم العلم الحق من مصدره الحق. والعمل بمقتضاه وحده دون سواه على الإطلاق. وهى بهذا التزام برقبة الإنسان،

^(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز - طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم - ١٩٩٧ - ص ٢٤٥، ص ٢٤٤، ص ٢٤٥ على التوالي.

^(٤) الألبانى: السابق - ص ٨٣٢ رقم ١٥٨٤.

^(٥) ٧٢/الأحزاب.

إنساناً بإنسان، أى التزام برقبة كل إنسان مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانُهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾^(١).

ومنذ نزول القرآن أصبحت تلك الأمانة هى أمانة الالتزام بمعرفة وفهم العلم الحق من مصدره الحق وهو القرآن والسنة، وحدهما بوجه خاص، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال. ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة)^(٢).

٣٨- أمانة العمل بالعلم الحق :

هذه الأمانة قابلة للتناقص تبعاً بمرور الزمان، ويتبعها بالضرورة أقول الإيمان ذاته، حتى يُمحي تماماً من القلب، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن:

(يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ. فَيَظِلُّ أَثَرَهَا مِثْلَ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ، فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظِلُّ أَثَرَهَا مِثْلَ الْمَجْلِ. كَجَمْرِ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ، فَنفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ. فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَّبِاعُونَ، لَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا!! حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجَلْدَهُ؟. مَا أَظْرَفُهُ؟ مَا أَغْقَلُهُ؟. وَمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ ثِقَالٍ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ)^(٣).

٣٩- أقول الإيمان من القلب:

إذن الإيمان قابل للأقول تبعاً بمرور الزمان، ما لم يُداوم كل إنسان على سؤال ربه أن يُجدد له هذا الإيمان فى قلبه، مصداقاً لقول خاتم

(١) ١٣/الإسراء.

(٢-٣) الألبانى: السابق - ص ٣٢٨ رقم ١٥٨٤، ص ٣٢٨ رقم ١٥٨٤.

الرسل فى هذا الشأن: (إن الإيمان ليخلق فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب. فاسألوا الله تعالى أن يُجدد الإيمان فى قلوبكم)(١).

لكن الله لن يُجدد للسائل إيمانه، ما لم يستذكر القرآن، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم من عقلها)(٢). وهكذا بدون استذكار القرآن موضوعياً، أى بدون استذكار موضوع القرآن علمياً وعملياً، فلن تتجدد الأمانة ولا الإيمان فى قلوب الرجال.

إن إحياء الأمانة والإيمان فى القلوب، يستلزم استذكار القرآن موضوعياً. ولا يلزم أن يكون هذا الاستذكار مصحوباً - حتى - بقراءة ماهرة للقرآن، إنما تكفى القراءة المتعثرة، أى القراءة غير الماهرة، وعندئذ فهى مأجورة بأجرين معاً هما: أجر الاستذكار وأجر القراءة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (والذى يقرؤه ويتتبع فيه وهو عليه شاق، له أجران)(٣).

أما إذا كان هذا الاستذكار مصحوباً بقراءة ماهرة، فالأجر عندئذ هو أجر الماهر فى القرآن شكلاً وموضوعاً معاً، أى أجر السفارة الكرام البررة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة.....)(٤).

(١) الألبانى: السابق - ص ٣٣٠ رقم ١٥٩٠، ص ٢٢٢ رقم ٩٣٦، ص ١١٣٢ رقم ٦٦٧٠، ص ١١٣٢ رقم ٦٦٧٠.

أما قراءة القرآن دون استنكاره موضوعياً، فلا أجر لها، حتى لو كانت قراءة ماهرة، لكونها تتمخض عن مجرد قراءة لفظية، حتى لو كانت قراءة للقرآن، وحتى لو كانت مصحوبة بحفظه حرفياً وعن ظهر قلب. فالقرآن ليس كتاب مطالعة.

الفرع الثاني إحياء ذكر الرب الخالق

٤٠ - مدى لزومه :

إذن قراءة القرآن يجب أن تكون مصحوبة دائماً باستنكاره، الذي يتمخض عن استنكار مبدأ: الرب الخالق، أي يجب أن تكون هذه القراءة مصحوبة دائماً بمبدأ: الرب الخالق للإنسان على الأقل، وذلك الواجب مُقنن قانوناً منذ أول درس قرآني تلقاه خاتم الرسل في غار حراء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفِرُّوا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾^(١).

٤١ - إحياء ميثاق الإنسان :

وبذا يعد منهج استنكار القرآن من لوازم إحياء «الميثاق» الذي أخذه الله مقدماً على الإنسان واحداً بواحد، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا...﴾^(٢).

٤٢ - إحياءه سنوياً :

هذا الإحياء للميثاق يحدث دورياً يوم عرفة، أي يحدث سنوياً يوم الحج، مصداقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (إن الله أخذ الميثاق من

^(١) ٢-١/العلق، ١٧٢/الأعراف.

ظهر آدم ب (نعمان) يوم عرفة، وأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً، قال: (ألست بربكم قالوا بلى))^(١).

وهكذا فعرفة تاريخياً هو اليوم الذى عرف فيه الإنسان ربه لأول مرة تاريخياً. أما عرفة زمنياً، فهو يوم، أى يوم عرفة، أو بالأحرى يوم الحج مصداقاً لقول خاتم الرسل: (الحج عرفة، من جاء قبل طلوع الفجر من ليلة جمع فقد أدرك الحج)^(٢). بينما عرفة مكانياً، ليس جبلاً، إنما هو «واد»، أى واد عرفة حيث يتجمع الحجيج باعتبارهم ضيوف الرحمن مصداقاً لقول خاتم الرسل: (الحجاج والعمار وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم)^(٣).

٤٣ - إحياءه فى كل وقت :

على أن إحياء هذا الميثاق دورياً مرة كل سنة، ليس أمراً كافياً، ولا كاملاً من جانب الكافة، ولا لهم أن يتحللوا من هذا الميثاق بأى ذريعة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٤).

لذا يحدث إحياء هذا الميثاق كل وقت، وذلك باستذكار القرآن، الذى يوجب على المخاطبين به استذكار الرب الخالق للإنسان على الأقل،

^(١) الألبانى: السابق - ص ٣٤٩ رقم ١٧٠١، ص ٦٠٦ رقم ٣١٧٢، ص ٦٠٦ رقم ٣١٧٣.

^(٤) ١٧٢-١٧٣/ الأعراف.

مصدقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾^(٤).

على أن واجب الاستذكار، لا يقع فقط على المخاطبين بالقرآن كافة، إنما أيضاً يقع عليهم فرادى، واحداً بواحد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾^(٥). وقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾^(٦). وقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾^(٧). وقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٨).

٤٤ - مردود ذكر الرب :

ذكر الرب الخالق له مردوده من جانبه سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(٩). وقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأِ ذَكَرْتُكَ فِي مَلَأِ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي شَبْرًا دَنَوْتُ مِنْكَ ذِرَاعًا ، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي ذِرَاعًا دَنَوْتُ مِنْكَ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي أَتَيْتَكَ أَهْرُولًا)^(١٠).

بهذا فاستذكار القرآن هو منهج تفعيل ميثاق الإنسان تجاه ربه، وبما يترتب على ذلك من مردود إيجابي من جانبه سبحانه.

^(١-٩) ٤٥/الأُنْفَال، ٤١/الأَحْزَاب، ١٠/الْجُمُعَة، ٢٠٠/الْبَقَرَة، ٤١/آلِ عِمْرَان، ٢٠٥/الْأَعْرَاف، ٢٤/الْكَهْف، ٢٥/الْإِنْسَان، ١٥٢/الْبَقَرَة.
^(١٠) الألباني: السابق - ص ٧٩٩ رقم ٤٣٣٧.

الفرع الثالث إحياء طبيعة القرآن العلمية

٤٥ - القرآن مخلوق :

إحياء منهج استذكار القرآن، يُعد إحياء للقرآن ذاته، وإحياء له باعتباره خلقاً من خلق الله. فهو خلق قائم بذاته، أى له استقلاله، سواء استقلاله عن خالقه وهو الله، أو استقلاله عن باقى خلائقه سبحانه، أو حتى استقلاله عن القرآن «الأول» تاريخياً خاصة.

فالقرآن الذى نزل على خاتم الرسل، ليس هو القرآن الأول تاريخياً، إنما هو القرآن فى نشأته الآخرة تاريخياً، وبالتالي فهو يختلف بالضرورة عن القرآن فى نشأته الأولى تاريخياً، أى «الزبور» الذى نزل على داود فى القرن العاشر قبل الميلاد، وكان مصحوباً بطريقة قراءة خاصة به، ومن ثم كان «قرآناً» بالمعنى الدقيق، ولو أنه كان قرآناً مُخففاً للغاية، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: (خُفِفَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنَ. فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِهِ فَتَسْرَجُ. فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْرَجَ دَوَابَّهُ)(١).

فالقرآن شأنه شأن أى خلق خلقه الله، الذى لم يخلق من أى خلق واحداً، ولا أكثر من اثنين، إنما خلق من أى خلق وكل خلق اثنين على الأقل وعلى الأكثر (٤٩/الذاريات) ثم أوجب سبحانه التمييز بينهما (٢٠/العنكبوت). وبذا فالجدل قديماً حول ما إذا كان القرآن الأخير

(١) الألبانى: السابق - ص ٦١٤ رقم ٣٢٣١.

تاريخياً مخلوقاً من عدمه، كان خلافاً ناقصاً من حيث موضوعه، وجدلاً عقيماً من حيث جدواه علمياً وعملياً.

فالقرآن الأخير تاريخياً مخلوق كرسالة إلهية موضوعها تبيان كل شئ وتفصيل كل شئ للمخاطبين بها.

٤٦ - مخلوق رسالة :

القرآن مخلوق كرسالة، وبالتالي لم يتكفل الله بجمعه وقرأنته فحسب (١٧/القيامة)، إنما تكفل أيضاً ببيانه (١٩/القيامة)، لكي تكون رسالته المهيأة لإبلاغها كاملة غير منقوصة (٦٧/المائدة)، وإبلاغها إلى الناس كافة (٢٨/سبأ)، أى إبلاغها إلى كافة المخاطبين بها، مؤمنين ومناققين وظالمين وكفاراً بحسب الأحوال، وبالتالي مهياًة لأمرين على الأقل:

أولاً: مهياًة لتوحدهم حولها واعتصامهم بها باعتبارها حبل نجاتهم الممدود من السماء إلى الأرض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ (١). وقول خاتم الرسل: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض) (٢). وقوله أيضاً: (أبشروا، فإن هذا القرآن طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبداً) (٣).

(١) ١٠٣/آل عمران.

(٢-٣) الألبانى: السابق - ص ٤٨٢ رقم ٢٤٥٨، ص ٦٩ رقم ٣٤.

وثانياً: مهياً لإبلاغها إليهم باعتبارها «شريعة» أى قانون إلهى، وشريعة واجبة الاتباع وحدها دون سواها السابقة عليها تاريخياً، وواجبة الاتباع فوراً ومستقبلاً إلى ما لا نهاية، وبصرف النظر عن أى كلام بخلاف ذلك، أى لا يُعتد مطلقاً بأى كلام على خلاف ذلك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا...﴾^(١).

وقول خاتم الرسل: (قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْتَدِينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ...)^(٢).

٤٧- رسالة إلهية :

القرآن مخلوق كرسالة «إلهية»، وبالتالي مهياً لوصفه ببعض أسماء خالقه الذى له الأسماء الحسنى، ولو أن القرآن لم يوصف إلا ببعضها فحسب، مثل: العظيم (٨٧/الحجر)، والمجيد (١/ق، ٢١/البروج)، والحكيم (٢/يس، ٤/الزخرف)، والكريم (٧٧/الواقعة)، والعلى (٤/الزخرف)، والعزیز (٤١/فصلت).

وأوصافه بهذا لم تبلغ حتى عُشر أسماء الله الحسنى، التى هى تسعة وتسعون دون زيادة أو نقصان مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنها:

(١) ١٨-١٩/الجاثية.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٨٠٥ رقم ٤٣٦٩.

(إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة) (١).

وهى بهذا واردة عدداً وحسراً، ويقدر عدد ما يملكه سبحانه من «الرحمة»، التى يملك منها تسعة وتسعين رحمة دون زيادة أو نقصان، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة. فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة) (٢).

وبذا تتمخض أسماؤه سبحانه عن واحد هو: «الرحمن»، الذى اتخذه القرآن عنواناً لسورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٥٥)، أى «سورة الرحمن». والله هو الذى علم القرآن، ولم يعلمه سبحانه إلا باعتباره الرحمن مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (٣). كما لم يعلمه سبحانه إلا باعتباره رحمة منه، والتى أرسل بها رسوله إلى العالمين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٤).

٤٨ - لكن هذه الرسالة الإلهية، ليست فقط رسالة عامة من الوجهة الشخصية أى من حيث المخاطبين بها، إنما هى أيضاً رسالة عامة من الوجهة الموضوعية أى تامة وكاملة موضوعياً، بل هى حتى رسالة أخيرة زمانياً، مصداقاً لقوله تعالى فى آخر آية قرآنية نزلت: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٥).

وهى بهذا تُغنى تماماً عن كافة الرسائل الإلهية السابقة عليها، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ

(١-٢) الألبانى: السابق - ص ٤٣٢ رقم ٢١٦٦، ص ٣٦٣ رقم ١٧٦٣.

(٣-٥) ٢-١/الرحمن، ١٠٧/الأنبياء، ٣/المائدة.

بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾. وقول خاتم الرسل: (أعطيت مكان التوراة السبع الطوال. وأعطيت مكان الزبور المثني. وأعطيت مكان الإنجيل المثاني. وفضلت بالمفصل) (٢).

أما العكس فهو غير صحيح على الإطلاق، أى أن تلك الرسائل الإلهية السابقة تاريخياً على القرآن لا تُغنى عنه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٣).

٤٩ - مخلوق ناطق :

القرآن مخلوق. وهذا المخلوق، لا هو من البشر ملكاً أو جنأً أو إنساً، ولا حتى من الخلائق الناطقة بالمنطق، إنما هو خلق ناطق على أى الأحوال، ولو أنه ناطق باللغة شأنه فى ذلك شأن البشر، بل إنه ناطق حتى بأمثل وأعلى لغة بإطلاق، أى ناطق عربياً، وناطق بلسانه هو مصداقاً لقوله تعالى مرة: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (٤)، وقوله تعالى مرة أخرى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٥).

وهو ليس ناطقاً فى الدنيا فحسب، إنما هو أيضاً ناطق فى الآخرة، بل هو حتى شافع ومُشفع يومئذ وشأنه فى ذلك شأن الصوم، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة. يقول الصيام: أي رب إنى منعتك الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: رب منعتك النوم بالليل فشفعني فيه. فيُشفَّعان) (٦).

(١) ١٠٦/البقرة.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٢٤١ رقم ١٠٥٩.

(٣) ١٠١-١٠٢/النحل، ١٠٣/النحل، ١٩٥/الشعراء.

(٤) الألبانى: السابق - ص ٧٢٠ رقم ٣٨٨٢.

وهو ينطق بأحسن الحديث بإطلاق (٢٣/الزمر)، وبأصدق حديث بإطلاق (١٢٢/النساء)، وبالحق (١٠٨/آل عمران)، وذلك بمراعاة أمرين فى هذا الصدد:

فأولاً: هو مخلوق ناطق، ولو أنه نزل مصحوباً بطريقة مثلى لقراءته شكلياً، وواجبة الاتباع على الدوام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾^(١)، وقول خاتم الرسل: ﴿اقْرَأُوا الْقُرْآنَ كَمَا عَلَّمْتُمْ. إِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفَهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ﴾^(٢).

فقراءته، ليست الوسيلة لفهمه موضوعياً، ولا لفهمه شكلياً على الأقل، إنما هى مجرد وسيلة لسماعه والإنصات إليه على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٣). ومن ثم، فلا يملك أعداؤه حياله إلا عدم سماعه وعدم الإنصات إليه وكذا اللغو فيه حال سماعه مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٤).

٥٠ - وثانياً: هو مخلوق ناطق، بثلاث لغات عربية، تعاقبت نشأتها تاريخياً من قبل خلق الإنسان، ويستحيل بعدئذ فهمه كاملاً، أى فهمه شكلاً وموضوعاً، جملة وتفصيلاً، علمياً وعملياً، إلا باستذكاره، وبالتالي فهو مخلوق مهياً لهذا الاستذكار، الذى يجب إذن مباشرته على الدوام،

(١) ١٨/الجاثية.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٢٥٨ رقم ١١٧١.

(٣-٤) ٢٠٤/الأعراف، ٢٦/فصلت.

مصدّقاً لقوله تعالى أربع مرات في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(١). وقول خاتم الرسل: (اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النِّعَمِ مِنْ عَقْلِهَا)^(٢).

وبدون هذا الاستذكار للقرآن، فإن القراءة والاستماع والإنصات ليست بقرآن بالمعنى الدقيق، إنما هي لقرآن بدون «الذكر» الذى يحفظه الله وأنزله فيه، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣).

أى قراءة واستماع وإنصات لقرآن، بدون أدواته البيانية أى «الذكر»، الذى لم ينزله الله فى القرآن إلا كأداة بيانية له، أى كأداة لبيان هذا القرآن، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤).

وبدهى أن «منهج الاستذكار» بهذا عصى على أن تستبدل به «مناهج الإنسان» مجتمعة أو فرادى، حتى مناهج «الكلام والتفسير والتفقيه» الشائعة حالياً، رغم عجزها عن «بيان» طه ويس وصـ و ق، وكهيعص ... إلخ، وكذا بيان مريم فى عنوان سورتها رقم (١٩)، أى سورة مريم التى ليست أم المسيح عيسى وذلك على أقل الأقل ... إلخ.

(١) ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠/القمر.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٢٢٢ رقم ٩٣٦.

(٣-٤) ٩/الحجر، ٤٤/النحل.

المبحث الثانى

علم الخلق

مقدمة المبحث

٥١ - التأويل أداة للاستذكار:

من أدوات استذكار القرآن تأويله، الذي لا يعلمه أحد بقدر ما يعلمه خالقهم، أى خالق القرآن وتأويله واستذكاره مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١).

والتأويل اصطلاحياً هو التزام الأول بالأول، والأول فالأول، والأول بعد أو قبل الأول بحسب الأحوال، ولو أن العبرة بالأول على الدوام. فمثلاً، أول العمل أياً كان «الإرادة» أى «النية»، وبالتالي فالعبرة فى الأعمال هى بالإرادة أو النية مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إنما الأعمال بالنيات)^(٢). ومثلاً، لماذا خلق الله الخلق؟. لا لشيء، إلا لأنه سبحانه أراد ذلك وقتذاك، مصداقاً لقوله تعالى فى حديث قدسى: [... فأردت أن أعرف. فخلقت الخلق. فبى عرفونى]^(٣).

وقد صارت تلك القاعدة من قواعد «علم التأويل»، منذ نشأته الأولى تاريخياً (٧٧-٨٢/الكهف)، على يد الخضر الذى تلقاه مباشرة من ربه (٦٥ و ٧٨ و ٨٢/الكهف)، فى سيناء مصر وقتذاك، أى فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

(١) ٧/آل عمران.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٩-١٠.

(٣) مشار إليه لدى عبد الصبور شاهين: أبى آدم - قصة الخليقة - دار أخبار اليوم - ٢٠٠١ - ص ٥.

ويدهى أن ما قبل الخلق سابق تاريخياً على الخلق وعلم الخلق، أى هو الأول تاريخياً، وبالتالي فإن محتويات المبحث الراهن تتوزع على مطلبين كما يلي:

المطلب الأول، قبل الخلق.

المطلب الثانى: نظام الخلق علمياً.

المطلب الأول قبل الخلق

٥٢- قبل التاريخ والجغرافية :

معنى «قبل الخلق» فى السياق الراهن هو: قبل أى خلق بإطلاق، أى قبل خلق «أول» خلق تاريخياً، وبالتالي قبل خلق التاريخ والجغرافية على السواء.

وهذا الذى لم يشهد خلقاً على الإطلاق، وبالتالي لم يشهده خلق على الإطلاق، هو: موضوع سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١)، قبل أن تُعطى عنوانها بعدئذ، أى قبل أن تصبح بعدئذ «سورة الإخلاص»، ولو لم يتغير وزنها النسبى، أى وزنها نسبة إلى القرآن عامة.

٥٣- ماذا تعدل هذه السورة ؟

سورة الإخلاص تتكون من أربع آيات فحسب، ورقمها (١١٢) فى ترتيب السور القرآنية، لكنها وحدها تعدل ثلث القرآن، مصداقاً لقول خاتم الرسل: ((قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن)^(٢).

(١) ١/الإخلاص.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٨١١ رقم ٤٤٠٤.

وهي لا تعدل ثلث القرآن بقراءتها فحسب، إنما تعدله بقراءتها وفهم موضوعها تأويلياً معاً وعلى السواء. فموضوعها هو الذي يعدل ثلث موضوع القرآن تأويلياً.

بل إن موضوعها يعدل - حتى - الثلث «الأول» من الموضوع القرآني عامة. أما الثلث «الثاني» من هذا الموضوع، فإنه يتعلق بالحياة الدنيا منذ أول خلق بإطلاق حتى زوال السماوات والأرض في آخر الزمان. بينما يتعلق الثلث «الثالث» من الموضوع القرآني، بالحياة الآخرة. وموضوعها لا يعدل الثلث الأول من الموضوع القرآني عامة، رغم أنها من قصار السور، إلا لكونه يتعلق بمن كان موجوداً قبل الخلق، أي قبل خلق أول خلق بإطلاق، أو بالأحرى قبل خلق التاريخ والجغرافية على السواء.

٥٤ - موضوع سورة الإخلاص :

قبل الخلق، لم يكن موجوداً سوى الله، الذي كان موجوداً وحده آنذاك، وكان إلهاً وحده وقتذاك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١).

بل سبحانه بهذا هو الصمد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾^(٢). والصمد اصطلاحياً، ليس بمعنى الموجود من قبل فحسب، إنما أيضاً بمعنى الموجود من بعد، وبالتالي بمعنى الدهر مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لا يسب أحدكم الدهر، فإن الله هو الدهر)^(٣). وقوله أيضاً: (لا يقولن أحد يا خيبة الدهر، فإن الله هو الدهر)^(٤).

^(١) ١ / الإخلاص، ٢ / الإخلاص.

^(٣) الألباني: السابق - ص ١٢٧٥ رقم ٧٧١٠، ص ١٢٨٢ رقم ٧٧٦٨.

والدهر اصطلاحياً، ليس بمعنى الموجود من قبل ومن بعد فحسب،
 إنما أيضاً بمعنى «كل الوجود»، أى هو أول الوجود وآخر الوجود وظاهر
 الوجود وباطن الوجود، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
 وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

وسبحانه بهذا، لا هو أصل لفرع أياً كان، ولا هو فرع لأصل أياً كان،
 ولا نظير له على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ
 يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٢).

٥٥ - سمات الذات الإلهية :

فلا نظير إذن يُناظره سبحانه فى سماته الذاتية، سواء سماته السالف
 بيانها، أو غيرها من سماته سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ
 وَلَا نَوْمٌ﴾^(٣)، وقوله تعالى على لسان موسى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾^(٤)
 إلخ.

وحتى سماته سبحانه بعد أن خلق الخلائق، وبالتالي فلا مثيل له من
 هذه الخلائق على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٥).
 ولا تدركه - حتى - أبصار خلائقه على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى:
 ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(٦). وقول خاتم الرسل: (حجابه النور، لو كشفه
 لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)^(٧).

(١-٦) ٣/الحديد، ٣-٤/الإخلاص، ٢٥٥/البقرة، ٥٢/طه، ١١/الشورى، ١٠٣/الأنعام.

(٧) الألبانى: السابق - ص ٣٨٠ رقم ١٨٦٠.

٥٦ - السمة الأظهر للعيان :

وهكذا تمخضت سماته الذاتية عن واحدة على الأكثر، وهي أظهرهم للعيان على الأقل، أي «النور»، الذي لم يعد حجابيه سبحانه فحسب، إنما أصبح أيضاً نور السموات والأرض بعد خلقهما، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

أما قبل الخلق، فكان هذا النور حجابيه سبحانه فحسب، وحجابيه الذي لا يعلمه سواه آنذاك، أي كان مخفياً ومجهولاً، ولو لم يكن مخفياً ومجهولاً إلا باعتباره سبحانه «كل الوجود» بإطلاق، أو بالأحرى كنز الوجود آنذاك.

وعلى أي الأحوال، هذا النور يستحيل على الخلائق رؤيته بصرياً في الدنيا على الأقل، وبالتالي يستحيل عليهم التعرف على الذات الإلهية بطريقة مباشرة، إنما يمكنهم التعرف عليها بطريقة غير مباشرة، أي عن طريق معرفة خلائقه سبحانه، الذي خلقها لكي يُعرف بها ومن خلالها على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى في حديث قدسي: (كنت كنزاً مخفياً. فأردت أن أعرف. فخلقت الخلق. فبى عرفوني)^(٢).

٥٧ - مدى صعوبة الموضوع :

إذن الموضوع الذي يعدل الثلث الأول من الموضوع القرآني عامة، لا يتعلق فقط بأول أنباء الغيب بإطلاق، إنما يتعلق أيضاً بموضوع تستحيل معرفته بطريقة مباشرة، لكن يمكن معرفته بطريقة غير مباشرة على الأكثر.

(١) ٣٥/النور.

(٢) عبد الصبور شاهين: الإشارة السابقة.

وذلك من خلال معرفة الخلائق خلقاً بخلق، إنما حتى تلك المعرفة لا يمكن بلوغها إلا بمعرفة «نظام الخلق»، أى معرفة «النظام» الذى جرى بمقتضاه خلقها.

والقرآن وحده دون الشرع الإلهية السابقة عليه، هو الذى انفرد ببيان هذا «النظام» جملة وتفصيلاً، لكنه لا يزال غامضاً ومبهماً ومجهولاً حتى الآن، وذلك بسبب مناهج الإنسان، وعجز مناهج الكلام والتفسير والتفقيه عن بيان أمرين على الأقل: كيف تعدل سورة الإخلاص ثلث القرآن؟ وكيف أن الله الصمد؟.

المطلب الثانى نظام الخلق علمياً

٥٨ - تقسيم :

هذا النظام له أساسه، ومقتضياته، وقواعده، وأهميته العلمية، كضرورة علمية عصرية ملحة للغاية، وملحة على الدوام.

الفرع الأول أساس النظام

٥٩ - مبدأ مبادئه :

لم يخلق الله خلائقه دون نظام علمى، إنما خلقها وفق نظام مُحكم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾^(٢).

(١) ٤٩/القمر، ٢/الفرقان.

وهذا النظام تحكمه إذن مجموعة من المبادئ، التي موضوعها «الخلق»، والتي تخلق منها الشرع الإلهية السابقة تاريخياً على القرآن. لكنها موجودة في القرآن، وموجودة فيه كجزء لا يتجزأ من مبادئ الشريعة (١٨/الجاثية).

لكن هذه المبادئ موجودة كجزء قائم بذاته من مبادئ الشريعة، أى جزء له استقلاله، حتى من حيث مبدأ مبادئه، الذي هو مبدأ: «الرب الخالق».

٦٠- مفهومه :

«الرب» و «الخالق» ليسا من أسماء الله الحسنی فحسب، إنما هما أيضاً وجهان لحقيقة واحدة، هي حقيقة «الله» باعتباره الواحد وحده والإله وحده من قبل الخلق، وحتى بعد الخلق.

فالله هو إذن الرب الخالق بعدئذ. والرب هو الله الذي أعطى كل شئ خلقه، مصداقاً لقوله تعالى على لسان موسى في حوار مع فرعون في مصر في القرن الخامس عشر قبل الميلاد: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (١).

وهذا هو مفهوم «رب»، ومفهومه كاصطلاح قرآني، أى مفهومه حيثما ورد هذا الاصطلاح في آيات القرآن. وهو بهذا مفهومه الاصطلاحى، لكيلا يكون له أكثر من مفهوم واحد بعدئذ.

(١) ٤٩-٥٠/طه.

٦١ - ارتباطه بواجب قراءة القرآن :

مبدأ: الرب الخالق، لم ينفصل يوماً عن «واجب» قراءة القرآن، أى كلاهما لازم للآخر ومتلازم معه على الدوام، ومنذ نشأة هذا الواجب لأول مرة تاريخياً فى نهاية العقد الأول من القرن السابع الميلادى (٦١٠م).

أى منذ أول درس قرآنى تلقاه خاتم الرسل فى غار حراء وقتذاك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١). فيجب إذن أن يكون مبدأ الرب الخالق حاضراً حال قراءة القرآن، ومثالاً فى الأذهان باعتباره مبدأ مبادئ نظام الخلق كافة، وأسبق من حيث النزول تاريخياً، حتى من ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢).

٦٢ - معانيه :

أولاً: مبدأ الرب الخالق يعنى أن هذا «الرب» ليس خلقاً على الإطلاق، إنما هو الخالق، بل هو أسبق وجوداً من تلك الخلائق كافة، أى كان موجوداً وحده وإلهاً وحده قبل الخلق وذلك كما قننته سورة «الإخلاص»، وعلى نحو ما عرضناه آنفاً.

ولا محل بعدئذ للسؤال عنه سبحانه باعتباره خلقاً من الخلق، كالسؤال عن كيفية خلقه، أو السؤال - من باب أولى - عن خلقه، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (يوشك الناس يتساؤلون حتى يقول قائلهم: هذا الله خالق الخلق، فمن خلق الله؟. فإذا قالوا ذلك فقولوا: «الله أحد. الله الصمد. لم

(١) ١/ العلق، ١/ الفاتحة.

يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد». ثم يتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعد من الشيطان(١).

وثانياً: مبدأ الرب الخالق يعنى أن هذا الخالق أكبر من كافة خلقه جملة وتفصيلاً، وأكبر منهم بكثير جداً، وبالتالي يجب دائماً أن نُكبره (٣/المدثر)، ولو لم يكف أن نكبره فحسب، إنما يجب أن نكبره تكبيراً (١١١/الإسراء).

أى يجب أن نكبره دائماً وأبداً، كما يجب أن نكبره كثيراً جداً، وبالتالي فإن مبدأ: الله أكبر، حاضر فى أذان كل صلاة وفى أذان إقامتها وفى الدخول فيها وفى ركوعها وسجودها وفى القيام منهما، وحاضر حتى فى التسبيح فى أعقابها.

فهو يعنى أن السيادة لله وحده، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (السيد الله)(٢). وقوله أيضاً عقب أذان إقامة الصلاة، (قوموا إلى سيدكم)(٣). ومن ثم فله وحده العزة جميعاً (١٣٩/النساء) والقوة جميعاً (١٦٥/البقرة).

وثالثاً: مبدأ الرب الخالق يعنى أن هذا الرب هو وحده خالق كل الخلائق جملة وتفصيلاً، فلا هى خُلقت تلقائياً، ولا هى خلقت نفسها بنفسها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾(٤). ولا هى خلق خالق غير الرب الخالق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ

(١) الألبانى: السابق - ص ١٣٥٩ رقم ٨١٨٢، ص ٦٨٩ رقم ٢٧٠٠، ص ٨١٥

رقم ٤٤٢٧.

(٤) ٣٥/الطور.

اللَّهِ»^(١). ولا هي خلق الرب الخالق وغيره مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾^(٢).

ولا يستوى إذن الرب الخالق وغيره على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٣).

الفرع الثاني

مقتضيات النظام

٦٣- نطاق التفكير فيه :

أولاً: الذات الإلهية ليست موضوعاً لنظام الخلق، أي هي بطبعها خارجة عن نطاقه. فلا يجب إذن التفكير في هذه الذات الإلهية، خاصة أنها عصية على الرؤية بصرياً من جانب الخلائق عامة، وحتى من جانب الإنسان، ولو كان نبياً ورسولاً كموسى، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾^(٤). وقول خاتم الرسل: (تعلموا أنه لن ير أحد منكم ربه حتى يموت)^(٥). وقوله أيضاً: (إنكم لن تروا ربكم عز وجل حتى تموتوا)^(٦).

إذن يجب أن يقتصر نطاق التفكير العلمي على الخلائق وحدها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله)^(٧).

وثانياً: لا يجب التفكير العلمي - حتى - في هذه الخلائق، إلا باعتبارها «آلاء» على وجود الرب الخالق وألوهيته وقدرته وحده على خلق

^(١) ٣/فاطر، ١١/لقمان، ١٧/النحل، ١٤٣/الأعراف.

^(٢-٥) الألباني: ص ٥٧٠ رقم ٢٩٦٣، ص ٤٥٨ رقم ٢١٢٣، ص ٥٧٢ رقم ٢٩٧٦.

ما يشاء ووقتاً يشاء، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (تفكروا فى آلاء الله، ولا تفكروا فى الله) (١).

ولا يجب إذن أن يقتصر نطاق التفكير العلمى على بعض الخلائق، دون بعضها الآخر، خاصة أن الرب الخالق قد تكفل ببيانها كافة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (٢).

وثالثاً: يجب التفكير العلمى فى كافة الخلائق، خلقاً بخلق، حتى تلك التى لم يشهد أحد خلقها قديماً، كخلق السموات والأرض وخلق البشر ملكاً وجناً وإنساً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ (٣).

٦٤ - قواعد التفكير فيه :

أولاً: تمييزاً للرب الخالق عن كافة خلائقه خلقاً بخلق، فإنه سبحانه لم يخلق من أى خلق واحداً فحسب، ولا حتى أكثر من اثنين على الإطلاق، أى أنه سبحانه قد خلق من كل خلق اثنين دون زيادة أو نقصان، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤).

والله لم يخلق من أى خلق واحداً، لكى يظل سبحانه الواحد وحده والإله وحده قبل الخلق وبعد الخلق على السواء، فلا شبهة بعدئذ لاختلاطه سبحانه بخلائقه.

(١) الألبانى: السابق - ص ٥٧٢ رقم ٢٩٧٥.

(٢) (٤٢) ٥٣/فصلت، ٥١/الكهف، ٤٩/الذاريات.

كما أنه سبحانه لم يخلق من أى خلق أكثر من اثنين، لكى يظل الخلق عامة خاضعاً لنظام واحد علمياً، هو نظام الخلق من أى خلق اثنين على الأكثر، وذلك لكون الخالق واحداً.

وثانياً: بل إنه سبحانه لم يخلق من أى خلق اثنين متعاصرين زمانياً، إنما خلقهما متعاقبين زمانياً ومُتباعدين تاريخياً، لكى يتسنى للمخاطبين بالقرآن التمييز بينهما فى سهولة ويسر، سواء التمييز بينهما فى القرآن، أو التمييز بينهما فى الخلائق.

فمثنى الخلائق مثنى بمثنى مذكورة فى القرآن ذاته الذى لم يُفرط فى بيان أى شئ على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى بشأن هذه المثنى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثْنًا...﴾^(١).

وثالثاً: ما على المخاطبين بالقرآن سوى التمييز بين مثنى الخلائق مثنى بمثنى، والتمييز فى إطار كل مثنى بين خلق أول وخلق آخر، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

٦٥ - حدا التفكير فيه :

أولاً: لا تجوز الاستعانة فى شأن معرفة نظام الخلق، بالشرع الإلهية السابقة تاريخياً على القرآن. فحتى التوراة، لم تنزل خالية من «علم التأويل» فحسب (٦٠-٨٢/الكهف)، إنما نزلت خالية أيضاً من «علم الخلق».

(١) ٢٣/الزمر، ١٩-٢٠/العنكبوت.

لذا عندما سأل فرعون موسى عن القرون الأولى، لم يكن أمام الأخير سوى إحالة الأول إلى «كتاب» الذكر المحفوظ فوق عرش الرحمن، مصداقاً لقوله تعالى بشأن حوارهما معاً: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ. قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾^(١).

وثانياً: القرون الأولى كالقرون الآخرة، وإن كانتا غيباً بالنسبة للإنسان لغاية نزول القرآن، إنما كلتاهما أصبحت علماً ميسوراً للإنسان منذ نزول القرآن وإلى ما لا نهاية، وعلماً مصدره الله مباشرة.

فهذا العلم الذي لا يعلمه إلا الله وحده، ولا يوجد إلا في «كتاب القدر» المحفوظ لديه سبحانه، قد أنزله سبحانه مؤخراً في القرآن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢). وقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (كتاب الله به نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل).

وثالثاً: هذا «الذكر»، لا هو والقرآن مترادفان ولو لغوياً على الأقل، ولا الذكر يستغرق القرآن كله، ولا القرآن يستنفده الذكر وحده، الذي هو مجرد «أداة بيانية» موجودة في القرآن.

فالذكر لم ينزل في القرآن، إلا كأداة بيانية للناس، أي كأداة تبين لهم ما أنزل إليهم في هذا القرآن، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣).

(٣-١) ٥١-٥٢/طه، ٩/الحجر، ٤٤/النحل.

وبهذه الأداة البيانية التي خص الله بها القرآن وحده، أصبح هذا القرآن ذاته مُيسراً للذكر من جانب المخاطبين به، ولمن شاء منهم أن يتذكر فعلاً، مصداقاً لقوله تعالى أربع مرات متتاليات في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(١).

على أن الذكر، ليس أداة بيانية من حيث موضوعه فحسب، إنما أيضاً من حيث أشخاصه، الذين هم «أهله»، أى «أهل الذكر» على مر التاريخ، لكى يسألهم الناس عما لا يعلمونه مباشرة من الذكر (٤٣/النحل، ٧/الأنبياء)، وبالتالي لا يجوز لأحد بعدئذ أن ينتحل صفتهم دون حق.

الفرع الثالث

معرفة النظام

٦٦- ضرورة معرفته :

التفكير العلمى فى نظام الخلق يهدف إلى معرفته، سواء معرفة النظام كنظام وخلق، أو معرفة الخلق كخلق وكنظام، أى معرفته مثنى بمثنى (٤٩/الذاريات) وخلقاً بخلق (٢٠/العنكبوت). وكلتاها ضرورة علمية عصرية مُلحة للغاية، ومُلحة على الدوام، لما تؤديه من دور ثلاثى للمُخاطبين بالقرآن، وذلك كما يلى:

أولاً: التثبيت من أن «الرب» و «الخالق» ليسا من أسماء الله الحسنى فحسب، إنما هما أيضاً وجهان لحقيقة واحدة، هى حقيقة الله،

(١) ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠/القمر.

وبالتالى فهما لازمان ومتلازمان معاً على الدوام وذلك من ناحية، ولازمان ومتلازمان مع قراءة القرآن خاصة (١/العلق) وذلك من ناحية أخرى.

فلا يجوز بعدئذ الإشراك به مطلقاً، مصداقاً لقوله تعالى مرة تلو مرة: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾**(١). وقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (يا معاذ بن جبل، هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟. فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً. وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً)(٢).

وثانياً: التثبت من أن الله باعتباره الرب الخالق، هو وحده خالق كل شئ بإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾**(٣). وقوله تعالى: **﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾**(٤).

وهو خالق الخلائق كافة وفق نظام علمى واحد، خضعت له الخلائق خلقاً بخلق، حتى «خلق» القرآن وذلك على نحو ما تقدم بيانه وبما يكفى للإحالة إليه هنا منعاً للتكرار.

وثالثاً: التثبت من أن كل القرآن صادر عنه وحده سبحانه، وذلك على نحو ما هو ثابت فى «صيغة إصدار» القرآن. وهى الصيغة الموجودة فى أول آية قرآنية من سورة الفاتحة، التى تتصدر باقى سور القرآن، أى **﴿بِسْمِ**

(١) ١١٦/النساء وكذا ٤٨/النساء.

(٢) الألبانى: السابق - ص ١٣١٩ رقم ٧٩٦٨.

(٣-٤) ١٦/الرعد، ١٠٢/الأنعام.

اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) (١)، وهى تعنى تأويلياً أن كل القرآن: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢)، وتعليم من الرحمن ذاته مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (٣).

٦٧- أزمة التأويل :

التأويل علم **science** بالمعنى الدقيق، أى مصدره الله مباشرة، أو بالأحرى هو خلق من خلق الله، ونزل بنشأته الأولى والآخرة سلطاناً فى القرآن مؤخراً، وذلك على اعتبار هذا العلم من لوازم استنكار القرآن. فهو إذن خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، أى نشأتان متعاقبتان زمانياً ومتباعدتان تاريخياً، ويجب التمييز بينهما (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: علم التأويل فى نشأته الأولى تاريخياً، هو العلم الذى علمه الله مباشرة للخضر (٦٥ و ٧٨ و ٨٢/الكهف)، فى سيناء مصر، فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وقد نزل هذا العلم على استقلال تام آنذاك، أى على استقلال - حتى - عن التوراة التى نزلت وقتذاك على موسى، وعلى استقلال - من باب أولى - عن الزبور وعن الإنجيل بعدئذ.

(٣-١) ١/الفاحة، ٢/فصلت، ١-٢/الرحمن.

(٤) الألبانى: السابق - ص ٨١٢ رقم ٤٤٠٥.

(٦-٥) ٢/الفاحة، ١٢/لقمان.

أما القرآن، فقد قص قصته كاملة بعددئذ، وذلك فى الآيات من ٦٠- ٨٢ من سورة الكهف، وعلى اعتبار أن هذا العلم من لوازم استنكار القرآن، وشأنه فى ذلك شأن علم التأويل فى نشأته الآخرة تاريخياً.

وثانياً: علم التأويل فى نشأته الآخرة تاريخياً، هو أحد العلوم التى علمها الله مباشرة لخاتم الرسل مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾^(١). وقول خاتم الرسل فى دعائه المشهور: (اللهم ... علمه التأويل).

وهو بهذا من علوم القرآن حالياً، ولو لم يُنظر إليه بعد إلا من منظور «لغوى»، أو من منظور «فلسفى»، وبما يتمخض - حتى - عن إنكار وجود علم الخضر على الأقل^(٢)، وكأن التأويل لم يعد اصطلاحاً تكرر سبع عشرة مرة فى القرآن. أى أن هذا العلم لا يزال ضحية «مناهج الإنسان»، حتى مناهج الكلام^(٣) والتفسير^(٤) والتفقيه^(٥) على السواء،

(١) ١١٣/ النساء.

(٢) انظر هذا الإنكار لدى محمد متولى الشعراوى: قصص الأنبياء والمرسلين - ط ٢ - ٢٠٠١ - مكتبة التراث الإسلامى - ص ٤٢٦.

(٣) انظر هذا المنهج لدى نصر حامد أبو زيد: فلسفة التأويل - دراسة فى تأويل القرآن عند محيى الدين بن عربى - ط ٥ - المركز الثقافى العربى بالدار البيضاء - ٢٠٠٣، فاطمة إسماعيل: مقالات فى فلسفة التأويل - ٢٠١٩ - الهيئة العامة لقصور الثقافة.

(٤) انظر هذا المنهج لدى محمد حسين الذهبى: علم التفسير - دار المعارف سلسلة كتابك عدد ٩-١٩٧٧ - ص ٦-٨.

(٥) انظر هذا المنهج لدى بليغ كمال: مفهوم التأويل وصلته بالتطبيق القضائى - مقالة بمجلة محكمة النقض - المجلة الفصلية - عدد ٣ خاص بالعيد الماسى - ابريل ٢٠٠٧.

وبالتالى لا يزال من «المجاهيل» الموجودة فى أدمغة المخاطبين بالقرآن جيلاً بعد جيل حتى الآن.

٦٨- بينما التأويل، لا هو مجرد تفسير أياً كان، ولا هو أحسن تفسير بإطلاق، ولا هو أحسن تفسير باللغة أى باللفظ أو الحرف، بالنحو والصرف، بالعبارة والدلالة، بالأثر أو المأثور، بالشعر أو القصص، وذلك على النحو الذى كان معروفاً قبل نزول القرآن. إنما هو أحسن تفسير بالحق، أو أحق وأحسن تفسير مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿جِنَّاتِكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(١)، بمعنى خير وأحسن تأويلاً (٥٩/النساء)، وبالتالى فهو أحسن تفسير بالحق على نحو ما استحدثه القرآن.

وعلم التأويل بهذا وجه من أوجه اختلاف القرآن عن كافة الشرع الإلهية السابقة عليه تاريخياً، والتي نزلت خالية من هذا العلم وخالية - حتى - من طريقة مثلى لقراءتها عدا الزبور (٥٥/الإسراء)، وبالتالى لم تكن تلك الشرع عصية على التقليد (٧٩/البقرة)، بينما القرآن عصى على التقليد كلياً (٨٨/الإسراء) أو تقليد عشر سور منه على الأقل (١٣/هود)، أو تقليد سورة واحدة منه على أقل الأقل (٢٣/البقرة).

(١) ٣٣/الفرقان.

المبحث الثالث
نشأة
التاريخ والجغرافية

人、

مقدمة البحث

٦٩- الشئ بالشئ يُذكر:

استنكار القرآن موضوعياً، هو استنكار كل شئ نزل ببيانه (٨٩/النحل)، واستنكاره شيئاً بشئ، أى استنكاره شيئاً بعد شئ، ويمرعاة أن الشئ بالشئ يُذكر.

فمثلاً، هل بدء التاريخ أم الجغرافية من وجود «الماء»، الذى كان عليه عرش الرحمن قبل خلق السموات والأرض (٧/هود)؟ وهل كان هذا الماء ماء بحر، أم لم يكن هناك بحراً موجوداً قبل خلق الأرض، وقبل أن تتفجر فيها (٣/الانفطار) سبعة أبحر (٦/التكوير)؟.

وما مآل هذه البحار بعد انقضاء أجل السموات والأرض؟ وما أجلها من حيث بدايته ومدته ونهايته؟. وكيف تُستبدل بالأرض غير الأرض يومئذ (٤٨/إبراهيم)؟

وما قصة ابنى آدم الأول، سواء ابنيه اللذين قريا قرباناً (٢٧-٣١/المائدة)، أو ابنيه اللذين قدما للحضارة (٨٥/الأنبياء)؟ وما قصة ابنى نوح، سواء ابنيه قبل الطوفان (٣٢-٤٢/الكهف)، أو ابنيه بعد الطوفان؟. وما قصة لقمان ووعظه لإبنه (١٣/لقمان) الذى نصحه عمران بالخروج من مصر (٢٠/القصص)؟

المطلب الأول

مفردات

الجغرافية الأولى

٧٠- البحر المسجور والدخان :

الجغرافية التى لم تكن قبلها جغرافية على الإطلاق، هى الجغرافية الأولى تاريخياً، التى استنفدت زمنياً الخمسين ألف سنة الأولى تاريخياً، بدءاً

من خلق القلم (٤/العلق) وانتهاءً بتمام خلق السموات والأرض في ستة أيام (٧/هود)، وكان بينهما خلق البحر المسجور والدخان تبعاً.

والكتاب المقدس كالتراث العلماني، أي كلاهما لا يخلو فقط من بيان أول مفردات الجغرافية تاريخياً، إنما يخلو أيضاً من بيان عصرها الزمني، الذي يُشار إليه في الغرب بـ «العصر الجليدي» Ice age، بمعنى العصر المجهول والغامض والمبهم علمانياً لغاية الآن، وبالتالي تتوزع محتويات المطلب الراهن على الفروع التالية:

الفرع الأول: البيئة المائية الأولى.

الفرع الثاني: نشأة البحر المسجور.

الفرع الثالث: نشأة آخرة للبحر المسجور.

الفرع الأول

البيئة المائية الأولى

٧١- وجود «الماء» :

خلق السموات والأرض، لا هو أول الخلائق تاريخياً، ولا هو إذن أقدمها، وذلك بصرف النظر عما في الكتاب المقدس بشأن خلق السموات والأرض (تك ١: ١ و ٢). فالعكس هو الصحيح، أي أن خلقهما أحدث في الوجود تاريخياً من «خلق» الماء على الأقل. فالماء إذن أسبق في الوجود تاريخياً من خلق السموات والأرض، وذلك بمراعاة ما يلي:

فأولاً: قبل خلق السماء والأرض، كان الماء موجوداً وكان عليه

عرش الرحمن، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾^(١).

(١) ٧/ هود.

وثانياً: قبل خلق السماوات والأرض، بخمسين ألف سنة ، لم يكن الماء موجوداً ، أى لم يكن موجوداً وقت أن قدر سبحانه مقادير الخلائق خلقاً بخلق قبل أن يخلقها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(قدر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)**(^١).

وثالثاً: قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، أى وقت كتابة مقادير الخلائق فى «كتاب القدر»، أصبح الماء موجوداً وعليه عرش الرحمن، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(كتب الله تعالى مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء)**(^٢).

إذن كان هذا الماء موجوداً فى الخمسين ألف سنة «الأولى» من تاريخ الكون، أى فى فترة زمنية مماثلة تماماً للخمسين ألف سنة «الآخرة» من تاريخ الكون (٤/المعارج) والتي ستنتهى حتماً - وقريباً - يوم القيامة (٦ و ٧/المعارج).

وهكذا حتى «تاريخ الخلق» هو خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

١- فهو فى نشأته الأولى، تاريخ الخمسين ألف سنة الأولى منذ خلق الله القلم (٤/العلق) حتى تمام خلق السماوات والأرض فى ستة أيام (٧/هود).

(^١)الألبانى: السابق - ص ٨٠٨ رقم ٤٣٨٠، ص ٨٢٦ رقم ٤٤٧٤.

٢- وهو فى نشأته الآخرة، تاريخ الخمسين ألف سنة الآخرة منذ خلق الله الملائكة (٤/المعارج) حتى اليوم الآخر، الذى هو آخر يوم فى الأجل المسمى للسموات والأرض.

ونخلص من ذلك بأمرين سريعاً: أ - عمر الكون، لا هو بضع «آلاف» من السنين كما يجرى حسابه وفق الكتاب المقدس عادة، ولا هو بضع «ملايين» من السنين كما يجرى حسابه جيولوجياً عادة. ب - ولا عناصر الكون أو عناصر الإنسان على الأقل، أربعة هى: التراب والماء والهواء والنار كما يتردد عادة فى التراث العلمانى بعهديه الإغريقى والغربى حالياً^(١).

وبعبارة أخرى، المتداول عالمياً عن هذين الأمرين حتى الآن، هو أمر خاطئ قرآناً وسنة، وبالتالى خاطئ علمياً.

٧٢- ماء بحر:

الماء الموجود آنذاك، لم يكن مجرد ماء بإطلاق، إنما كان ماء بحر بالمعنى الدقيق. وهذا البحر، وإن كان أسبق فى الوجود تاريخياً من خلق الأرض، لكنه بدوره لم يكن أول الخلائق تاريخياً، ولا هو إذن أقدمها.

فأول الخلائق بإطلاق وأقدمها تاريخياً، هو: «القلم» الذى خلقه الله واستكتبه مقادير الخلائق خلقاً بخلق فى كتاب القدر، ومن ثم صار هذا القلم مرتبطاً - حتى - بواجب قراءة القرآن، وذلك منذ نشأة هذا الواجب

(١) انظر مثلاً: ريجار هوكاس: الدين ونشوء العلم الحديث - دراسة فى فلسفة العلوم وعلم الاجتماع الدينى - بالإنجليزية - ترجمة زيد العامرى الرفاعى - ط ١ - ٢٠٠٨ - مكتبة مدبولى.

لأول مرة تاريخياً في نهاية العقد الأول من القرن السابع الميلادي (٦١٠م).

أى منذ تلقى خاتم الرسل أول درس قرآني في غار حراء وقتذاك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾^(١). وهو نفس الواجب الذي ارتبط منذ ذاك التاريخ، بمبدأ: الرب الخالق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٢).

وبهذا صار ذاك القلم مرتبطاً بمبدأ: الرب الخالق، ومبدأ: الرب ذو الجلال والإكرام، وبكتابة كتاب القدر، ثم بواجب قراءة القرآن، على السواء.

فهو أول خلق خلقه الله، واستكتبه الله مقادير الخلائق بإطلاق، قبل أن يخلقها سبحانه، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن أول شيء خلقه الله القلم. فأمره فكتب كل شيء يكون)^(٣). وقوله أيضاً: (إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يارب ما أكتب؟. قال: اكتب القدر، ما كان وما هو كائن إلى الأبد)^(٤).

٧٣- ماء بحر قائم بذاته:

ماء البحر الموجود آنذاك لم يكن موجوداً إلا كخلق قائم بذاته، أى له استقلاله من ناحيتين على الأقل. فله استقلاله عن كتابة القدر قلماً ومداداً باعتبارهما خلقاً سابقاً تاريخياً على هذا البحر، وله استقلاله عن خلق السموات الأرض باعتبارهما خلقاً لاحقاً على هذا البحر. وبما يترتب على هذا الاستقلال من آثار:

^(١) ٣-٤/العلق، ١/العلق.

^(٢) ٣-٤/الألبياني: السابق - ص ٤٠٥ رقم ٢٠١٦، ص ٤٠٥ رقم ٢٠١٧.

فأولاً: ماء هذا البحر على انفراد أو بمدد من غيره، لم يكن مداداً للقلم الذى استكتبه الله مقادير الخلائق، إنما كان لهذا القلم مداداً آخر لا ينفد بطبيعته، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(١). فالبحر المكرر لفظياً مرة تلو مرة، مُعرف بـ «أل»، ومُعاصر لكتابة الله فى كتاب القدر، لكنه ليس مداداً لهذه الكتابة.

وثانياً: ماء هذا البحر، وإن لم يكن له أى دور فى كتابة مقادير الخلائق، أى فى كتابة «كتاب القدر»، لكنه العامل المشترك فى خلق كافة الكائنات الحية بإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

فالإنسان مثلاً، وإن كانت مادته الأولية هى التراب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾^(٣). لكن خلقه لم يبدأ إلا بمزيج من التراب والماء، أى من الطين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾^(٤).

وسياتى لاحقاً، بيان أن عُرفة الماء اللازمة لخلق الطين الذى منه بدء خلق الإنسان، كانت من خير ماء على وجه الأرض بعد خلقها. أى من الماء الذى خصه القرآن بعدئذ بموضوع آية قرآنية قائمة بذاتها، بل حتى أول آية فى سورتها رقم (١٩)، أى سورة مريم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كَهَيْعِصٍ﴾^(٥).

وثالثاً: ولأن دور الماء أن يكون عاملاً مشتركاً فى خلق الكائنات الحية، فإن خلقه متقدم تاريخياً عن خلقها، بل هو حتى ثالث الخلائق ترتيباً

(١-٥) /١٠٩/ الكهف، /٣٠/ الأنبياء، /٢٠/ الروم، /٧/ السجدة، /١/ مريم.

وأقدمية من الوجهة التاريخية، أى جاء خلقه بعد خلق القلم وبعد خلق كتاب القدر، أى بعد كتاب الذكر المحفوظ فوق عرش الرحمن.

الفرع الثانى

نشأة

أولى للبحر المسجور

٧٤- أول الجغرافية تاريخياً:

الماء الذى كان موجوداً آنذاك، وإن كان ماء بحر بالمعنى الدقيق، لكنه لم يكن ماء بحر عادى على الإطلاق، فهو بحر خاص بإطلاق، أى خاص من حيث تكوينه، وخاص من حيث دوره، وخاص من حيث مسماه اصطلاحياً، وذلك على التفصيل التالى:

فأولاً: كان هذا البحر يتكون من الماء، والماء فحسب، والماء دون سواه على الإطلاق، أى كان - حتى - دون شيطان أرضية ودون قاع أرضى، لأن الأرض لم تكن قد خلقت بعد، وبالتالي لم تكن هناك حدوداً أرضية تحد هذا البحر على الإطلاق.

ولأن ماؤه لم يكن مختلطاً بالأرض على الإطلاق، كان عليه عرش الرحمن (٧/هود)، ومن ثم، فلا محل بعدئذ للمقارنة بين وضع هذا العرش الإلهى على الماء قديماً قبل خلق الأرض، وبين وضع إبليس عرشه على الماء حالياً، أى بعد خلق الأرض، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأنه: (إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة...)(^١).

وثانياً: هذا البحر هو أول بحر تاريخياً، فلا كان قبله أى بحر، ولا كان معه أى بحر آخر، أى هو أسبق البحار وجوداً من الوجهة التاريخية، وبالتالي فهو الأصل التاريخى للبحار عامة، بل حتى أصل

(^١) الألبانى: السابق - ص ٣١٨ رقم ١٥٢٦.

الجغرافية تاريخياً، والتي هي بهذا أسبق فى الوجود تاريخياً من خلق الأرض.

ومن ثم، فلا يجوز بعدئذ أن يخلو أى تأريخ للبحر أو البحار أو الجغرافية، من البحر المسجور، وإلا كان هذا التأريخ مغلوطاً وخاطئاً من الوجهة العلمية، ولو لم يلتفت المؤرخون والجغرافيون إلى هذه الحقيقة.

وثالثاً: هذا البحر له مُسمى اصطلاحى خاص به، أى حكر عليه وحده، ولم يخلعه عليه إلا خالقه سبحانه، الذى سماه «البحر المسجور»، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾^(١). والذى سيظل بحراً مسجوراً حتى خلق الأرض بعدئذ.

ويدهى أن كل بحر أياً كان هو بحر ماء. والماء ليس من المواد القابلة للاشتعال أو المعاونة عليه، إنما العكس هو الصحيح، أى من مواد إطفاء النار، وبالتالي لا يصح مطلقاً الكلام عن البحر المسجور باعتباره البحر «المنقذ ناراً»، خاصة أن عرش الرحمن كان على مائه قبل خلق السموات والأرض (٧/هود).

٧٥- مآله بعد خلق الأرض:

لم يعد البحر المسجور موجوداً منذ خلق الأرض، التى تفجر فيها هذا البحر ذاته بحاراً عدة، ولو لم تتجاوز سبعة أبحر (٢٧/لقمان)، موجودة لغاية الآن، ومُتفق عالمياً على وجودها، ولو لم يتفق بعد على أماكنها ومسمياتها.

وهذه البحار السبعة ليست بحاراً مسجورة على الإطلاق، إنما بحار لها شيطان أرضية وقاع أرضى على السواء، مصداقاً لقوله تعالى بشأن نشأتها لأول مرة تاريخياً: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾^(٢). وتفجير البحار أو الأنهار (٩١/الإسراء) أو العيون (٣٤/يس) ليس بمتفجرات أو بنار.

(١) ٦/الطور، ٣/الانفطار.

وليس معنى هذا بالبداهة، أن البحر المسجور لم يعد هو أصل البحار التي تفجرت فى الأرض بعد خلقها، لأن العكس هو الصحيح، أى سيظل هذا البحر المسجور بمثابة الأصل التاريخى للبحار والمحيطات السبعة الموجودة حالياً، حتى ولو لم تكن بحاراً مسجورة، وبما يترتب على ذلك من آثار كما يلى:

فأولاً: ماء البحر المسجور هو «أصل» ماء بحار الأرض تاريخياً، حتى لو أصبح هذا الماء بعدئذ «ماء الأرض» بعد خلقها، مصداقاً لقوله تعالى للأرض بعد طوفان نوح: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾^(١). فهو فى الأصل ماء البحر المسجور وحالياً موجود فى الأرض.

وثانياً: بحار الأرض، ليست أرضاً بالمعنى الدقيق، إنما هى بحسب الأصل ماء، وماء فحسب، وبما يترتب على ذلك من آثاره ما يلى:

١- هذه البحار لا تصلح أن تكون حدوداً مادية أو فواصل جغرافية بين أجزاء الأرض، لأنها مجرد ماء.

٢- قاع تلك البحار السبعة هو قاع أرضى أصلاً، أى أرض.

٣- وهذه الأرض ممتدة إذن، وبصرف النظر عن وجود أو عدم وجود بحار فوقها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾^(٢).

وثالثاً: البيئة البحرية أسبق فى الوجود تاريخياً من البيئة الأرضية، ولو أن كلتاهما جغرافية على أى الأحوال. لكن فساد البيئة البحرية أحدث

^(١) ٤٤ / هود، ٣ / الرعد.

فى الوجود تاريخياً من فساد البيئة الأرضية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ
الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾^(١).

لكن كلاهما فساد على أى الأحوال، ولم يصنعه سوى الإنسان
وحده، الذى هو إذن المسئول عنه ولو أنه الضحية له فى نفس الوقت،
لكى يذوق بعض فساد، فيرجع عنه، أى يرجع عن الإفساد فى الأرض،
مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢).

وبدهى أن هذا الفساد لا يقتصر على الفساد المادى وحده دون
غيره. ولا الفساد المادى يقتصر على التلوث وحده دون غيره. لكن هذا
الفساد يقتصر على الفساد فى البر والبحر وحدهما، دون سواهما، أى
دون «الجو» الذى لا يتبعهما على الإطلاق، إنما هو يتبع السماء على
الدوام، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه اصطلاحياً: ﴿جَوَّ السَّمَاءِ﴾^(٣). وهو
جو السماء، ولو اشتهرت تسميته اختصاراً بلفظ «الجو» فحسب.

وعلى أى الأحوال، لا هذا الجو هو «الهواء»، ولا الهواء هو الجو
على الإطلاق، إنما هما شيان مختلفان تماماً عن بعضهما، حتى من
الوجهة الإصطلاحية. فجو السماء هو اختصاراً الجو، بينما الهواء
اصطلاحياً ﴿وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً﴾^(٤) هو «الفراغ» اصطلاحياً ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ
أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾^(٥).

وبهذا فالهواء أو الفراغ، لا هو عنصر من أربعة يتكون منها أصل
الكون أو أصل الإنسان كما يذهب التراث العلمانى منذ منتصف الألف

(١) ٤١/الروم، ٤١/الروم، ٧٩/النحل، ٤٣/إبراهيم، ١٠/القصص.

الأول قبل الميلاد حتى الآن^(١). ولا هو - حتى - عنصر يتكون من النيتروجين والأكسجين، إنما هو الفراغ.

رابعاً: إذن بعد خلق السماوات والأرض، ماء البحر المسجور موجود لكن دون البحر المسجور ذاته، الذى حلت محله سبعة أبحر غير مسجورة، ولو أنها لم تحل محله إلا بصفة مؤقتة.

الفرع الثالث

نشأة

آخرة للبحر المسجور

٧٦- نشأتا البحر المسجور:

البحر المسجور خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلي:

فأولاً: له نشأة أولى تاريخياً وذلك على نحو ما بيناه آنفاً. حيث كانت هذه النشأة قبل خلق الأرض، وقبلها بخمسين ألف سنة.

وثانياً: أما نشأته الآخرة تاريخياً، فهي بعد زوال الأرض فى آخر الزمان. فآنذاك تعود البحار والمحيطات غير المسجورة، بحراً واحداً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾^(٢)، وتعود بحراً مسجوراً فى نفس الوقت، أى بحراً من الماء ومن الماء فحسب، بدون شيطان أرضية وبدون قاع أرضى على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى بشأن نشأة هذا البحر الآخرة تاريخياً: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾^(٣).

(١) انظر مثلاً، ريجار هوكاس: الإشارة السابقة.

(٢-٣) ٢٧/لقمان، ٦/التكوير.

إذن البحر المسجور لن يستنفد نشأته تاريخياً إلا وقتذاك، أى وقت زوال السماوات والأرض فى آخر الزمان. وإذا كان الناس لم يشهدوا نشأته الأولى تاريخياً، فإنهم سوف يشهدون نشأته الآخرة تاريخياً يوم القيامة، ويشهدوا حتى النشأة الآخرة للدخان.

٧٧- أسبقية الماء على الدخان تاريخياً:

ماء البحر المسجور، لم يكن أسبق تاريخياً من خلق السماوات والأرض فحسب، إنما هو أيضاً أسبق تاريخياً من خلق «الدخان»، الذى هو خلق قائم بذاته، أى له استقلاله، وبالتالي اتخذه القرآن «عنواناً» لسورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٤٤)، أى «سورة الدخان».

وهذا الخلق بدوره له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: فى نشأته الأولى تاريخياً، كان الدخان موجوداً بعد نشأة ماء البحر المسجور، وقبل خلق السماوات والأرض، مصداقاً لقوله تعالى بشأن نشأة هذا الدخان على استقلال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾^(١). والإنسان أحدث فى الوجود تاريخياً من خلق السماوات والأرض، وبالتالي لم يشهد خلقهما، ولم يشهد إذن تلك النشأة الأولى للدخان.

وثانياً: نشأة الدخان الآخرة تاريخياً، ستكون حتماً بعد زوال السماوات والأرض فى آخر الزمان، أى يوم القيامة. ويومئذ يشهد الناس كافة نشأة

(١) ١١/ فصلت.

الدخان الآخرة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ. يَغْشى النَّاسَ...﴾^(١).

وهكذا سيواكب زوال السماوات والأرض يوم القيامة، أن يُستبدل بهما ماء البحر المسجور والدخان فى نشأتها الآخرة تاريخياً، مصداقاً لقوله تعالى بشأن هذا الاستبدال التاريخى على استقلال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢). وقول خاتم الرسل: (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقى، ليس فيها معلم لأحد)^(٣).

فيومئذ تُستبدل البيئة المائية بالبيئة الأرضية، كما يُستبدل الدخان بالسماوات، وذلك عوداً إلى بدء الخلق، الذى لم يشهد الناس نشأته الأولى تاريخياً. إنما يلزمهم أن يشهدوا نشأته الآخرة تاريخياً يوم القيامة.

٧٨- أسبقية القلم على الماء :

خلق القلم، لم يكن أسبق تاريخياً من ماء البحر المسجور والدخان فحسب، إنما هو أيضاً أسبق تاريخياً من كافة الخلائق، أى هو أول وأقدم خلق خلقه الله. وهو خلق قائم بذاته، أى له استقلاله، وبالتالي اتخذه القرآن «عنواناً» لسورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٦٨)، أى «سورة القلم».

وهذا القلم خلق على أى الأحوال، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى: فأولاً: نشأة القلم الأولى تاريخياً، كانت قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وذلك على نحو ما بيناه آنفاً. وقد استكتبه الله «كتاب القدر» مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾^(٤). وقول

^(١) ١٠ و ١١/ الدخان، ٤٨/إبراهيم.

^(٢) الألبانى: السابق - ص ١٣٣٥ رقم ٨٠٤٤.

^(٤) ٣ و ٤/العلق.

خاتم الرسل: (إن أول ما خلق الله القلم. فقال له: أكتب. قال: يارب ما أكتب. قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. من مات على غير هذا فليس مني)(^١).

وهذا «الكتاب»، الذى هو أول الكتب الإلهية بإطلاق، هو الذكر المحفوظ (٩/الحجر)، أى اللوح المحفوظ (٢٢/البروج) فوق عرش الرحمن، وبالتالي هو الكتاب المكنون (٧٨/الواقعة).

وبذا، لم يعد لأحد أن يُنكر بعدئذ «القدر» على الأقل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لو أنفقت مثل أحدٍ ذهباً فى سبيل الله ما قبله الله منك، حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك. وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مت على غير هذا، لدخلت النار)(^٢).

ولا لأحد أن يُجادل فى هذا القدر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (آخر الكلام فى القدر لشرار أمتى فى آخر الزمان)(^٣). ولا لأحد أن يكذب بهذا القدر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (سيكون فى أمتى أقوام يكذبون بالقدر)(^٤). وقوله أيضاً: (أخاف على أمتى من بعدى خصلتين: تكذيباً بالقدر، وتصديقاً بالنجوم)(^٥).

فقدر الله لا يحتمل إذن الكلام فيه على الأقل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إذا ذكر القدر فأمسكوا)(^٦). فما بالناس إذن بالقديين، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (القدرية مجوس هذه الأمة. إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن

(^١) الألبانى: السابق - ص ٤٠٥ رقم ٢٠١٨، ص ٩٣٠ رقم ٥٢٤٤، ص ١٠٥

رقم ٢٦٢، ص ٦٨٤ رقم ٣٦٦٩، ص ١٠٣ رقم ٢١٥، ص ١٥٥ رقم ٤٥٤.

ماتوا فلا تشهدوهم^(١). وقوله: (لكل أمة مجوس. ومجوس أمتى الذين يقولون لا قدر...)^(٢).

وثانياً: نشأة القلم الآخرة تاريخياً، كانت بعد خلق السموات والأرض، وكان القلم للملائكة لكي يسطروا به ما أنيط بهم تسطيره مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(٣). وهم يسطرون ما قدمه الناس وآثارهم مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾^(٤). وما يكتبوه إذن هو الكتاب المسطور (٢/الطور)، أى الرق المنشور (٣/الطور) بعدئذ يوم القيامة.

وهذا القلم ممنوع من التسطير فى حق ثلاثة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ. وعن النائم حتى يستيقظ. وعن الصبي حتى يحتلم)^(٥).

وعلى أى الأحوال، القلم فى الحالتين لم يكن قلماً أو أقلاماً من شجر الأرض، بل كان قلماً لا تحل محله كافة أقلام شجر الأرض، ولا يحل إذن محل مداده ماء البحر المسجور أو البحار السبعة التى تمده من بعد، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾^(٦).

^(١) الألبانى: السابق - ص ٨١٨ رقم ٤٤٤٢، ص ٩١٧ رقم ٥١٦٣.

^(٢-٣) ١/القلم، ١٢/پس.

^(٥) الألبانى: السابق - ص ٦٥٩ رقم ٣٥١٢.

^(٦) ٢٧/لقمان.

المطلب الثانى

أجل

السموات والأرض

٧٩- قابليتهما للزوال:

رؤية الناس للبحر المسجور والدخان فى نشأتها الآخرة تاريخياً، هى رؤية متوقفة على زوال السموات والأرض، اللتين تقبلان الزوال ولو قبل يوم القيامة، لولا أن الله يمسكهما فيمنعهما من الزوال مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾^(١).

وسبحانه يمسكهما ويمنعهما من الزوال قبل انقضاء أجلهما المسمى، لكيلا تزولا إلا بعد انتهاء هذا الأجل المسمى، وعندئذ لن يمسكهما أو يمنع زوالهما أحد بعده سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾^(٢).

ويومئذ لن يمسكهما أو يمنع زوالهما أحد، لأن زوالهما بعد انتهاء أجلهما المسمى هو أمر حتمى. فهما خلق خلقه الله. وهذا الخلق غير مستثن من الهلاك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٣).

إذن زوالهما مرتبط بانقضاء أجلهما المسمى، وبانقضاء هذا الأجل وحده، الذى يجب تمييزه عن أجل خلقهما من ناحية، وعن آجال أمم الأرض من ناحية أخرى.

^(١) ٤١/فاطر، ٤١/فاطر، ٨٨/التقصص،

٨٠- أجلهما المسمى:

السموات والأرض خلق من خلق الله". وهذا الخلق له أجل زمني، أى أجل مُعين زمنياً من حيث بدايته ومن حيث مدته ومن حيث نهايته، مصداقاً لقوله تعالى بشأن أجلهما: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(١).

فإن الله لم يترك خلقاً من خلائقه، دون أجل مسمى، حتى لو كان هذا الخلق هو السموات والأرض، وبالتالي جعل الله لهما أجلاً مسمى، أى أجلاً مُعيناً زمنياً من حيث بدايته ومن حيث مدته ومن حيث نهايته، مصداقاً لقوله تعالى مرة: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(٢). وقوله تعالى مرة أخرى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(٣).

وبدهى أن «بيان» هذا الأجل المسمى موجود حتماً فى القرآن (٣٨/ الأنعام، ٨٩/ النحل)، حتى ولو لم يعرف أحد بعد بوجوده لغاية الآن.

٨١- تمييز أجل حياتهما عن أجل خلقهما:

المقصود بالأجل المسمى للسموات والأرض، هو أجل حياتهما بعد خلقهما، وبالتالي فهو أجل حياتهما دون أجل خلقهما، الذى هو ستة أيام استغرقها خلقهما (٧/ هود)، حتى لو كان اليوم عند الله كألف سنة مما نعدده (٤٧/ الحج).

^(١-٣) ٩٩/ الإسراء، ٨/ الروم، ٣/ الأحقاف.

إذن أجل خلقهما، أى الستة أيام، لا تدخل مطلقاً فى حساب أجلهما المسمى، الذى هو أجل حياتهما بعد خلقهما. وبالتالي فإن هذه الستة أيام تتجاوز أجلهما المسمى، وتدخل فى الخمسين ألف سنة «الأولى» من تاريخ الكون، الذى لم يبدأ إلا بخلق القلم ثم خلق ماء البحر المسجور ثم خلق الدخان، ثم خلق السموات والأرض.

٨٢- تمييز أجلهما عن آجال أمم الأرض:

أجل السموات والأرض، لا يُحسب بآجال أمم الأرض، تلك الآجال التى يستنفدها أجل السموات والأرض، دون أن تستنفده هذه الآجال، حتى لو كانت هذه «الأمم» كثيرة ومتباينة نوعياً وعددياً وتاريخياً، وذلك كما يلى:

فأولاً: هذه الأمم لا تقتصر على أمم الإنس وحدهم دون غيرهم، إنما تطال كافة الأمم بإطلاق، سواء كانت هذه الأمم دابة فى الأرض أو طائرة بجناحيها، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ ... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (١).

وثانياً: أمم الإنس لا تقتصر على «الأمة الأمية» أى أمة خاتم الرسل، والتى هى آخر أمم الإنس تاريخياً، أى الأمة السبعون فى سلسلة تعاقب أمم الإنس تاريخياً، حتى لو كانت هذه الأمة خير أمم الإنس نوعياً، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٢).

(١) ٣٨ / الأنعام، ١١٠ / آل عمران.

وقول خاتم الرسل بشأنها: **(إنكم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها، وأكرمها إلى الله)**(^١). وهى وإن كانت آخر الأمم السبعين ترتيباً، لكنها أولهم حساباً يوم القيامة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(نحن آخر الأمم، وأول من يُحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبیها. فنحن الآخرون الأولون)**(^٢).

وثالثاً: أمم الإنس، التى هى سبعون عددية، ومتعاقبة تاريخياً، ليست متساوية من حيث آجالها، إنما آجالها متباينة، حتى أن لكل أمة أجل خاص بها، أى خاص من حيث بدايته ومدته ونهايته، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)**(^٣).

لكن الله لن يُعجز نبيه الخاتم فى أمته الأمية، فيؤخرها سبحانه نصف يوم على الأكثر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن الله تعالى لن يُعجزنى فى أمتى، أن يؤخرها نصف يوم)**(^٤)، أى يؤخر أجلها نصف «ألف» سنة مما نعهده (٤٧/الحج)، أو بالأحرى يؤخر أجلها خمسمائة سنة.

٨٣ - بداية ومدة أجلهما:

أولاً: لا مشكلة هناك فى معرفة طريقة سريان هذا الأجل، ولا فى معرفة نهايته: ١- فهذا الأجل يسرى تباعاً وتنازلياً، ولا يسرى متقطعاً ولا تصاعدياً، وبالتالي فإن اليوم الأخير منه آت حتماً، مصداقاً لقوله تعالى

(^١) الألبانى: السابق - ص ٤٥٦ رقم ٢٣٠٦، ص ٥٤٥ رقم ٢٨٢٥.

(^٢) ٢٤ / الأعراف وكذا ٤٩ / يونس.

(^٤) الألبانى: السابق - ص ٣٧٢ رقم ١٨١١.

مرة: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾^(١). وقوله تعالى مرة أخرى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾^(٣).

٢- وهو ينقضى بانقضاء اليوم الأخير منه، والذي تعددت وتباينت مسمياته اصطلاحياً، أى هو اليوم الآخر، ويوم القيامة (١١٣/البقرة)، ويوم الدين (٤/الفتح)، ويوم الحساب (١٦/ص)، ومرسى الساعة (١٨٧/الأعراف) إلخ وبحسب الأحوال.

وثانياً: المشكلة فى مدة وبداية هذا الأجل، وبالتالي لا يزال يكتنفهما الغموض والإبهام والتجهيل لغاية الآن، أى أصبحتا من «مجاهيل» القرآن حتى الآن، رغم أن القرآن لم يُفِطَ فى بيانهما (٣٨/الأنعام)، وذلك كما يلى:

١- فمدة هذا الأجل هى الخمسون ألف سنة «الآخرة» من تاريخ الكون.

٢- وهذه المدة لا تبدأ من خلق السموات والأرض، إنما تبدأ من بعد خلقهما فى ستة أيام، أى تبدأ من تاريخ خلق البشر.

٣- وهى - حتى - لا تبدأ إلا من تاريخ خلق أول وأقدم بشر بإطلاق، أى من تاريخ خلق البشر السماوى أو النورانى وهم الملائكة.

وثالثاً: الملائكة، ليسوا فقط أسبق البشر وجوداً من الوجهة التاريخية، إنما هم أيضاً البشر الذى بمقدوره أن يعرج فى معارج الله، سواء معارجه فى السماء أو معارجه فى الأرض، وباعتبار تلك المعارج هى السبل إليه سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن جملة وتفصيلاً: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ. مِّنَ اللَّهِ ذِي

(٢-١) ٥٩/غافر، ٧/الحج.

المعارج. تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا. إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا. وَنَرَاهُ قَرِيبًا»^(١).

لكن تاريخ خلق الملائكة، هو أمر خفى على البشر كافة ملكاً وجنباً وإنساً، وبالتالي فإن اليوم الآخر من الأجل المسمى آت حتماً لكنه لن يأت إلا خفية على هؤلاء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾^(٢).

فتاريخ خلق الملائكة بمثابة غيب للبشر ملكاً وجنباً وإنساً على السواء. وغيب لا يعلمه إلا الله وحده، وبالتالي يظل اليوم الآخر من الأجل المسمى بمثابة غيب للبشر، حتى لو سألوا عنه، مصداقاً لقوله تعالى مرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾^(٣). وقوله تعالى مرة أخرى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا. إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾^(٤).

وقول خاتم الرسل فى شأنها: (ما المسئول عنها (يعنى الساعة) بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربتها فذلك من أشراطها. وإذا كانت العراة الحفاة رؤوس الناس، فذاك من أشراطها. وإذا تناول رعاء البهم فى البنيان، فذاك من أشراطها. فى خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية)^(٥).

٨٤ - مدى سريان أجلهما المسمى:

وعلى أى الأحوال، أوشكت الخمسون ألف سنة الآخرة من تاريخ الكون، على الانقضاء، أى انقضى منها الكثير ولم يبق إلا القليل، وبالتالي أصبح اليوم الأخير منها قريباً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ

(١) ٧-١ / المعارج، ١٥ / طه، ١٨٧ / الأعراف، ٤٢-٤٤ / النازعات.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٩٧٣ رقم ٥٥٤٩.

السَّاعَةُ» (١). وقول خاتم الرسل: (بُعِثت بين يدي الساعة) (٢). وقوله أيضاً: (بُعِثت في نسم الساعة) (٣). وقوله كذلك: (بُعِثت أنا والساعة كهاتين) (٤).

وقوله: (لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج: وهو القتل) (٥). وقوله (لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كالיום، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضربة بالنار) (٦).

المطلب الثالث قصة إبنى آدم

٨٥- مدى تشعب القصة:

قصة ابنى آدم خالية من إسميهما، وردت لأول مرة تاريخياً فى سياق كلام الله إلى موسى فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وذلك كما جاء بعدئذ فى الآيات ٢٧-٣١ من سورة المائدة فى القرآن.

لكن هذا القرآن، لم يأخذ بإسميهما، اللذين أضافهما بنو إسرائيل إلى القصة، والموجودين حتى الآن فى الكتاب المقدس أى «قايين وهابيل». بل أن هذا القرآن لم يُفرط - حتى - فى بيان إسميهما (٧٦/النمل). لكنه أوردهما ضمن «عناوين» السور، وجعلهما موضوعين لأيتين قرآنيتين، وشأنهما فى ذلك شأن «قاف» و «صاد».

ومن ثم تتوزع محتويات المطلب الراهن على الفروع الأربعة التالية:

الفرع الأول: من هو طه؟.

الفرع الثانى: من هو يس؟.

الفرع الثالث: ما هى صاد؟.

الفرع الرابع: ما هى كهيعص؟.

(١) ١/القمر.
(٢-٣) الألبانى: السابق- ص ٥٤٥ رقم ٢٨٣١، ص ٥٤٦ رقم ٢٨٣٢، ص ٥٤٥ رقم ٢٨٢٩، ص ١٢٣٨ رقم ٧٤٢٨، ص ١٢٣٧ رقم ٧٤٢٢.

الفرع الأول

من هو طه؟

٨٦- لفظ «طه» :

هذا اللفظ، ليس مجرد لفظ لغوي، إنما هو «إصطلاح» في القرآن كشريةة. وهو أيضاً «عنوان» سورة قرآنية قائمة بذاتها هي السورة رقم (٢٠) أي «سورة طه». بل هو حتى موضوع آية قرآنية قائمة بذاتها، هي الآية الأولى من تلك السورة، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿طه﴾**(١).

وهذا الاصطلاح هو «اسم» على الأقل، واسم «خلق» من خلق الله على أي الأحوال. وهذا الخلق ليس إنسياً فحسب، إنما أيضاً له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب إذن التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلي:

٨٧- طه في نشأته الأولى تاريخياً:

طه هو اسم أحد إبنى آدم الأول اللذين قدما قرباناً، واسمه قبل وقوع القتل آنذاك. بل هو اسم القاتل منهما، والذي تكلم أولاً في سياق قصتهما، منتوياً القتل، وقبل أن يقتل بالفعل، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه إلى موسى: **﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ... فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾**(٢).

(١) طه، ٢٧ و ٣٠/ المائدة.

لذا حتى السورة القرآنية التي حملت إسمه كعنوان لها، وكموضوع لأول آياتها، جاءت متقدمة ترتيباً عن نظيرتها التي حملت إسم القتل كعنوان لها وكموضوع لأول آياتها، إذن طه لم يكن إسم القتل، الذي لم يكن أول من تكلم وقتذاك، إنما هو إسم القاتل.

أما إنكار أن طه إسم القاتل من بنى آدم الأول، فإنه لا يعنى شيئاً سوى أن القرآن قد نزل خالياً من إسمه، رغم أن هذا القرآن لم يُفرط فى بيان أى شئ على الإطلاق (٣٨/الأنعام)، ولم يُفرط - حتى - فى بيان أسماء «الأصنام» لدى قوم نوح على الأقل (٢٣/نوح)، وبالتالي فإن هذا الإنكار غير ذى موضوع على الإطلاق.

٨٨- فى نشأته الآخرة تاريخياً :

طه هو إسم القاتل من إبنى آدم، قبل وقوع القتل، وحتى وقوعه. أما بعد القتل، فقد صار لهذا القاتل إسماً آخرأ، جنباً إلى جنب إسمه الأول تاريخياً، وذلك تمييزاً له باعتباره أول من سن القتل تاريخياً.

إذ صار إسمه «طه ذو الكفل»، واختصاراً «ذو الكفل» (٨٥/الأنبياء، ٤٨/ص~)، بمعنى الذى يقع عليه دائماً «كفل» من دم كل نفس تقتل ظلماً بعدئذ وإلى يوم القيامة، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: (لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل)(١).

(١) الألبانى: السابق - ص ١٢٣٢ رقم ٧٣٨٧.

وبهذا، فإنكار أن إسم القاتل من إبنى آدم هو: «طه» ثم «ذو الكفل»، لا يفضى إلى شئ، سوى صيرورة هذين الإسمين وكذا إسم ذاك القاتل، من «مجاهيل» القرآن، وذلك هو الحاصل فعلاً لغاية الآن، وبالتالي فإن هذا الإنكار غير ذى موضوع على الإطلاق.

٨٩ - بعثته :

ذنب ذى الكفل، ولو كان هذا الذنب قتل نفس، لم يمنع من بعثته بعدئذ نبياً ورسولاً (٨٥/الأنبياء، ٤٨/ص~)، مثلما ذنب موسى، وهو قتل نفس أيضاً، لم يمنع من بعثته بعدئذ بعشر سنين، مصداقاً لقوله تعالى على لسان موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(١).

على أن بعثة أيهما لن تعفيه من كفله، حسناً كان هذا الكفل أو سيئاً بحسب الأحوال، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾^(٢).

فذنب موسى مثلاً، سيكون مانعاً له من الاستشفاع للناس يوم القيامة على الأقل، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس. إشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟. فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله

(١-٢) /٣٣ القصص، ٨٥/النساء.

مثله. ولن يغضب بعده مثله. وإنى قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسى
نفسى نفسى، إذهبوا إلى غيرى^(١).
٩٠ - النبي القاتل قبل بعثته:

حتى «النبي» الذى قتل قبل بعثته، نفساً بغير نفس، هو خلق من
خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين
نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

١- ففى نشأته الأولى تاريخياً، هو «طه ذو الكفل» واختصاراً «ذو
الكفل». ٢- وفى نشأته الآخرة تاريخياً، هو «موسى» بن عمران.

وهما متعاقبان زمانياً، ومتباعدان تاريخياً، وبينهما قرون طوال
للغاية. وأولهما قتل حال حياة آدم الأول، وخارج مصر، بينما الثانى، قتل
فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى مصر.

وقد زامل ذو الكفل إدريس، وأقاما لأول مرة تاريخياً، أول بيت للناس
ببكة، ثم بيت المقدس، ثم تمثال رأس آدم بالجيزة أى أبو الهول، وذلك فى
غضون القرن الأول من الثلث الأخير من عمر آدم، وعلى نحو ما
سنعرضه من بعد.

٩١ - ظاهرة الإسمين فى القرآن:

هذه الظاهرة لا تقتصر على طه وحده، الذى هو أيضاً ذو الكفل.
إنما هى تطال أيضاً - حتى - إل ياسين الذى هو إسماعيل. كما تطال

(١) الألبانى: السابق - ص ٣٠٨ رقم ١٤٦٦.

إسحق الذى هو شعيب، وكذا إسرائيل الذى هو يعقوب، وكذا المسيح الذى هو عيسى، وحتى إسم خاتم الرسل وذلك كما يلي:

١- فإسمه فى نشأته الأولى تاريخياً، هو: «أحمد»، مصداقاً لقوله تعالى على لسان عيسى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ... وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(١).
وقول خاتم الرسل: (كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد)^(٢).

٢- وإسمه فى نشأته الآخرة تاريخياً، هو: «محمد» مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَأَمْنُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾^(٤).

وعلى أى الأحوال، لا إسم خاتم الرسل هو طه، ولا هو يس، لا على الحقيقة ولا على المجاز، ولا إسم ابنى آدم هما «قايين وهابيل» على الإطلاق، وبصرف النظر عما فى الكتاب المقدس (٧٦/النمل).

الفرع الثانى

من هو يس؟

٩٢- لفظ «يس»:

هذا اللفظ، ليس مجرد لفظ لغوى، إنما هو «اصطلاح» فى القرآن كشريعة. كما هو «عنوان» سورة قرآنية قائمة بذاتها هى السورة رقم

(١) ٦/الصف.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٦٥٣ رقم ٣٤٧١.

(٣-٤) ١٤٤/آل عمران، ٢/محمد.

(٣٦)، أى «سورة يس». وأيضاً هو «موضوع» آية قرآنية قائمة بذاتها، هى الآية الأولى من تلك السورة، مصداقاً لقوله تعالى فيها: ﴿يس﴾^(١).

وهذا الاصطلاح هو «إسم» على الأقل. وإسم «خلق» من خلق الله على أى الأحوال. وهذا الخلق، ليس إنسياً فحسب، إنما له أيضاً نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز إذن بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

٩٣- فى نشأته الأولى تاريخياً:

يس هو إسم أحد إبنى آدم الأول اللذين قدما قرباناً، بل هو حتى إسم من تكلم مؤخراً منهما، وبالتالي جاءت السورة التى تحمل إسمه كعنوان لها وموضوع لأول آياتها، متأخرة ترتيباً عن نظيرتها التى حملت إسم الآخر وهو: طه، باعتباره القاتل.

إذن هو إسم القاتل الذى تكلم مؤخراً آنذاك، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه إلى موسى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

ورغم أن يس لم يكن نبياً أو رسولاً وقت قتله، فإن الله قد «ترك» عليه فى الآخرين، شأنه فى ذلك شأن الأنبياء والمرسلين الذين ترك الله

(٢-١) ١/ يس ، ٢٧-٢٩/المائدة.

عليهم فى الآخرين، كنوح مثلاً (٧٨/الصافات)، وإبراهيم (١٠٨/الصافات)، وموسى وهارون (١١٩/الصافات) إلخ.

فترك سبحانه على «يس» فى الآخرين، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه وعقب قصتها مباشرة: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١).

كما ترك سبحانه عليه فى بنى إسرائيل، مبدأ: المقاصة فى الدماء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾^(٢).

وأيضاً ترك سبحانه عليه - حتى - فى الأمة الأمية، القصاص والمقاصة فى الدماء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ... وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣).

وكذلك ترك سبحانه عليه أيضاً مبدأ: وجوب دفن موتى الإنسان فى الأرض، ودفن القتلى على حالهم أى دون غسل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾^(٤). وقول خاتم الرسل: (إدفنوا القتلى فى مصارعهم)^(٥).

(١) ٣٢/المائدة، ٤٥/المائدة، ١٧٨-١٧٩/البقرة. ٣١/المائدة.

(٥) الألبانى: السابق - ص ١٠٨ رقم ٢٤٩.

أما إنكار أن يس إسم القتيل من إبنى آدم الأول، فإنه لا يعنى شيئاً سوى أن القرآن قد نزل خالياً من إسمه، رغم أن القرآن قد نزل تبياناً لكل شئ بإطلاق (٨٩/النحل)، ولم يُفْرط - حتى - فى بيان أسماء «الأصنام» لدى قوم خاتم الرسل على الأقل (٩ و ٢٠/النجم)، وبالتالي فإن هذا الإنكار غير ذى موضوع على الإطلاق.

٩٤ - فى نشأته الآخرة تاريخياً:

هو «إل ياسين» الذى كان نبياً ورسولاً، وترك الله عليه فى الآخرين، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١).

والياسين بالعربية الجامعة والذى ترك الله عليه فى الآخرين (١٢٩/الصافات)، هو «إسماعيل» بالعربية الخاتمة، والذى ترك الله عليه فى الآخرين، شأنه فى ذلك شأن أبيه إبراهيم من قبل، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢).

وكلاهما بهذا، لم يترك الله عليه فى الآخرين فحسب، إنما عليه أيضاً سلام، أى سلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً (١٥/مريم، ٣٣/مريم). بل كلاهما كان - حتى - حليماً (١١٤/التوبة، ١٠١/الصافات).

(١) ١٢٩-١٣٢/الصافات، ١٠٤-١١١/الصافات.

ولم يترك الله على إسماعيل في الآخرين، الفداء بالذبح فحسب، إنما أيضاً الصلاة والزكاة اللتان كان يأمر بهما أهله بعد أن كذبه قومه، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾^(١).

ولفظ «الصلاة» لم يرد على لسان أحد من الأنبياء والمرسلين قبل إبراهيم، الذي بدوره لم يذكر هذا اللفظ إلا بمناسبة توطين ابنه إسماعيل رضيعاً مع أمه، في واد غير ذي زرع لكي يقيموا الصلاة بعدئذ في بيت الله، مصداقاً لقوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾^(٢).

وقبلها دعا إبراهيم ربه أن يجعله أول من يقيم الصلاة تاريخياً، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾^(٣). وبعدئذ اتخذ المسلمون من أول مقام لصلاته، مصلى لهم، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(٤). فهذا المقام في الكعبة ذاتها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٥).

بل ترك سبحانه على إسماعيل في الآخرين، حتى «العربية الخاتمة»، التي كان إسماعيل أول من تلقاها مباشرة من ربه، وقبل أن يولد يعقوب بل حتى قبل أن يولد إسحاق. فقد تلقاها وعمره أربع عشرة سنة.

بهذا، فإنكار أن إسم القتيل من ابني آدم الأول هو: «يس» بالعربية الفاتحة ثم «إل ياسين» بالعربية الجامعة، هذا الإنكار لا يفضى إلى شيء،

(١) ٥٥/مريم، ٣٧/إبراهيم، ٤٠/إبراهيم، ١٢٥/البقرة، ٩٧/آل عمران.

سوى صيرورة هذين الإسمين وكذا إسم القتيل، من «مجاهيل» القرآن وذلك حاصل فعلاً لغاية الآن، وبالتالي فإن هذا الإنكار غير ذى موضوع على الإطلاق.

٩٥- آل ياسين:

إسماعيل أسبق فى الوجود تاريخياً، من إسحق ، وأسبق - من باب أولى - من يعقوب، الذى له «آل» هم «آل يعقوب» (٦/مريم)، كالأسباط ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وذكريا ويحيى وعيسى ومريم وعمران ... فلا يجوز بعدئذ إنكار وجود «آل إسماعيل»، أى «آل ياسين»، وهم إلياس وإليسع ويونس وخاتم الرسل مصداقاً لقوله: (منهم أربعة من العرب: و و و نبيك يا أبا نر) (١). هذا ولو لم يتضمن الحديث تعدادهم الصحيح كاملاً، وذلك بخطأ الراوى، الذى لم يكن يُدرك - حتى - أن شعيب هو إسحاق، وإسحاق هو شعيب، الذى ليس إذن من آل ياسين، إنما من آل إبراهيم.

الفرع الثالث

ما هى ص~؟

٩٦- لفظ «ص~»:

هذه الصاد، ليست مجرد «حرف» أبجدى عربى فى لفظ، إنما هى لفظ قائم بذاته، بل أن هذا اللفظ ليس مجرد لفظ لغوى، إنما هو «اصطلاح» فى القرآن كشريعة، كما هو «عنوان» سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة

(١) مشار إليه لدى ابن كثير: قصص الأنبياء - ط ١ - مكتبة الإيمان بالمنصورة -

رقم (٣٨)، أى «سورة ص~». وأيضاً هو «موضوع» أول اصطلاح فى أول آية قرآنية فى تلك السورة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ص~ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾^(١).

ولولا وجود هذه الصاد فى مقدمة الآية، ما استقامت تلك الآية نحواً وصرفاً، إنما بوجودها صار معنى هذه الآية تأويلياً هو: أن لغة الصاد العربية جزء لا يتجزأ من لغة القرآن «ذى» الذكر، أو أن لغة الصاد إحدى لغات القرآن «ذى» الذكر. أما بدون هذه الصاد، فهو القرآن «ذو» الذكر. ولغة الصاد هى لغة عربية، ولغة عربية قائمة بذاتها. أى لها استقلالها، بل هى - حتى - اللغة العربية الفاتحة تاريخياً، أى أول وأقدم لغة عربية تاريخياً، ولو لم تكن لغة ضاد وقتذاك.

إذن القرآن لم ينزل بلغة عربية واحدة، كما يعتقد حتى الآن، اللغويون عامة والعرب خاصة وحتى المصريون، الذين لم يجدوا اسماً يليق بالعربية الفاتحة سوى عبارة «الكلام العاطل» فى القرآن^(٢)، أى العاطل من حيث معناه ومن حيث دوره ومن حيث الحاجة إليه فى القرآن، وبالتالي لا تزال لغات القرآن عامة ولغة الصاد خاصة وألفاظها بالأخص، من «مجاهيل» القرآن.

٩٧- لغة الصاد العربية :

إذن لفظ «ص~» هو إسم على الأقل، واسم «خلق» من خلق الله على أى الأحوال، وهذا الخلق، ليس لغة فحسب. إنما هى أيضاً لغة عربية، بل هى - حتى - أسبق فى الوجود تاريخياً من لغة الضاد العربية.

(١) ١/ ص~.

(٢) انظر مثلاً، عبد العظيم المطعنى: الكلام العاطل - مقالة فى مؤلف جماعى صادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بعنوان «حقائق الإسلام فى مواجهة شبهات المشككين» - ٢٠٠٢ - ص ٥٨-٦٢.

وهى لم تنشأ لأول مرة تاريخياً قبل خلق آدم فحسب، إنما أيضاً قبل خلق الجان، وبالتالي كانت لغة الملائكة. وهى لم تكن تقوم إلا على أربعة عشر حرفاً أبجدياً على الأكثر، ولم يكن من بين حروفها حرف «الضاد» على الإطلاق، وبالتالي فهى ليست لغة ضاد ولو أنها لغة عربية، أى هى لغة عربية ولو أنها لغة الصاد.

وهى بهذا تختلف عن لغة «الإنسان» العربية بنوعيتها، سواء العربية الجامعة أى لغة آدم تاريخياً (٣١-٣٣/البقرة)، أو العربية الخاتمة أى لغة إسماعيل تاريخياً، وكلتاهما تقوم على ثمانية وعشرين حرفاً أبجدياً، ومن بين حروفها حرف الضاد، الذى يميزها عن العربية الفاتحة من ناحية، وعن أى لغة أخرى للإنسان وذلك من ناحية أخرى، أى يميزها عن أى لغة أعجمية.

وعلى أى الأحوال، اللغة العربية أسبق فى الوجود تاريخياً من نظيرتها الأعجمية، أى هى أصل اللغة تاريخياً. ولغة الصاد أسبق فى الوجود تاريخياً من نظيرتها العربية، أى هى أصل اللغة العربية تاريخياً.

٩٨- لغات القرآن العربية :

نزل القرآن باللغة العربية التى يجب أن نتعقل كثيراً فى شأنها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١). لأن هذا القرآن لم ينزل بلغة عربية واحدة، ولا نزل حتى باثنتين من اللغات العربية، إنما نزل

(١) ٢/يوسف.

بجمع من اللغات العربية مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (فُضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم و....)(^١).

وهكذا نزل القرآن بكل اللغات العربية تاريخياً، أى بالثلاث لغات، وهى: العربية الفاتحة والعربية الجامعة والعربية الخاتمة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (أعطيت فواتح الكلام، وجوامعه، وخواتمه)(^٢).

وبعبارة أخرى، نزل القرآن بلغة الصاد جنباً إلى جنب لغة الضاد، وبلغة الضاد الجامعة جنباً إلى جنب لغة الضاد الخاتمة، وألفاظ لغة الصاد واردة عدداً وحصرأ. فى القرآن، ولا يتجاوز عددها أربعة عشر لفظاً، منها طه ويس وق وصاد والم.... إلخ. وألفاظها موجودة فى مفتاح السور، أى فى أوائل الآيات، لكونها ألفاظ العربية الفاتحة تاريخياً.

٩٩ - قابلية لغة الصاد للتأويل:

لغة الصاد، كانت لغة الملائكة، ولغتهم فى نشأتها الأولى تاريخياً قبل خلق آدم، لكنها لغة عربية على أى الأحوال، ومن ألفاظها أربعة «عناوين» سور قرآنية على الأقل، وبالتالي فهى ليست عصية على التأويل، الذى هو أحسن تفسير بالحق (٣٣/الفرقان)، سواء حروفها الأربعة عشر أو ألفاظها الأربعة عشر:

فأولاً: من حروفها الأربعة عشر ثلاثة منقوطة هى: النون والقاف والياء، ومنها أحد عشر غير منقوطة هى: أ، ح، د، س، ص، ط، ع، ك، ل، م، هـ. ولو رُتبت هذه الحروف فى قاعدة تأويلية واحدة، فإنها

(^١) الألبانى: السابق - ص ٧٧٨ رقم ٤٢٢٢، ص ٢٤١ رقم ١٠٨٥.

تتمخض عن قاعدة تتعلق بمفهوم القرآن كشريعة أو بمفهوم الشريعة كقرآن،
أى كلاهما هو «نص حكيم قاطع له سر».

وهكذا، فلغة الصاد ليست أصل لغة القرآن أو الشريعة فحسب، إنما
هى أيضاً أصل مفهومه أو مفهومها تأويلياً، الذى يوجب على المخاطبين به
أو بها أن يبحثوا علمياً عن سره، أى يوجب عليهم البحث عن سره العلمى،
الذى يتمثل فى «علم التأويل» بنشأته الأولى والآخرة اللتين نزل بهما
سلطاناً من الله فى القرآن ذاته.

وثانياً: لا يوجد من ألفاظ لغة الصاد فى القرآن، سوى أربعة عشر
لفظاً هى: الر، الم، المص، المر، حم، ص~، حم عسق، طس، طسم،
ق، كهيعص، ن، يس، طه. وإذا كانت ألفاظ: طه ويس و ص~ ذات
معانى مفهومة تأويلياً وذلك على نحو ما بيناه آنفاً، لكنها ليست وحدها
التي تقبل التأويل.

فلفظ «ق» مثلاً، له معنى مفهوم تأويلياً وذلك على نحو ما
سنعرضه من بعد. وكذا لفظ «الر» الوارد فى مفتاح خمس سور هى:
يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر. فهو نصف لفظ «الرحمن» بلغة
الضاد، والذى اتخذ القرآن عنواناً لسورة قرآنية قائمة بذاتها، هى «سورة
الرحمن»، كما اتخذ موضوعاً لأول آية فى تلك السورة.

وكذا لفظ «المر» الوارد فى مفتاح سورة الرعد. فهو نصف لفظ
«المرسلات» بلغة الضاد، والذى اتخذ القرآن عنواناً لسورة قرآنية قائمة
بذاتها هى «سورة المرسلات».

وكذا لفظ «حم» الوارد فى مفتتح ست سور قرآنية هى: غافر، وفصلت، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف. فهو نصف لفظ «حميد» بلغة الضاد، والذى هو توأم لفظ «مجيد».

وكذا لفظ «الم»، الوارد فى مفتتح ست سور قرآنية هى: البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة. فهو نصف لفظ «المقسط» بلغة الضاد، والذى هو اسم من أسماء الله الحسنى، ويعنى قيامه سبحانه وحده بشئون القسط كافة ودائماً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ...﴾^(١).

والخلاصة، أن القرآن يخلو من «المجاهيل»، التى لا تخلو منها أدمغة المخاطبين به. لأنهم لم يتبعوا رسولهم وحده، حتى فى خشيته البالغة عليهم من وجود الأئمة ومذاهبهم (مناهجهم) وتراثهم الفكرى.

الفرع الرابع

ما هى كهيعص؟

١٠٠ - خير ماء فى الأرض:

خير ماء على وجه الأرض بإطلاق هو ماء كهيعص. وهو بهذا ليس معلماً من معالم الأرض فحسب، إنما هو أيضاً معلماً من معالم الماء فى الأرض، بل هو حتى معلماً من معالم عاصمة الأرض وهى مكة ومن قبل أن تكون بكة على الأقل.

(١) ١٨ / آل عمران.

لكن كهيعص أسبق في الوجود تاريخياً من خلق آدم الأول، بل حتى غرفة الماء اللازمة لخلق الطين الذى منه بدء خلق آدم الأول (٧/السجدة)، كانت غرفة من ماء كهيعص، وبالتالي خصها القرآن بموضوع آية قرآنية على استقلال، هي الآية الأولى من السورة رقم (١٩)، أى سورة مريم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كهيعص﴾^(١).

١٠١ - عنوان سورة قرآنية:

كهيعص بلغة الصادر العربية قبل خلق آدم، هي «مريم» بلغة آدم العربية الجامعة، وذلك بعد أن صار مأوها مغتسلاً وشراباً لآدم وزوجه منذ أهبطا إلى الأرض، وطوال حياتهما فيها بعدئذ، بل حتى كان منه ماء غسلهما عقب وفاتهما الواحد بعد الآخر، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأن غسل آدم: (لما توفى آدم غسلته الملائكة بالماء وتراً. والحدوا له، وقالوا: هذه سنة آدم فى ولده)^(٢).

وهكذا فمريم هي كهيعص، وكهيعص هي مريم. ومن ثم اتخذ القرآن من مريم عنواناً لسورة قرآنية قائمة بذاتها، واتخذ من كهيعص موضوع آية قائمة بذاتها، لكنها الآية الأولى فى تلك السورة. مثلما فعل القرآن بشأن طه ويس وصاد وقاف بعد مريم. فهذه الألفاظ هي عناوين سورها على التوالي، ومواضيع الآيات الأولى فى سورها.

إذن مريم فى عنوان سورتها رقم (١٩)، ليست هي مريم أم المسيح عيسى. فالقرآن لم يتخذ مطلقاً من «اسم امرأة» عنواناً لسورة قرآنية أياً

(١) ١/مريم.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٩٢٤ رقم ٥٢٠٧.

كانت، لا فى عنوان سورة «سبأ»، ولا حتى فى عنوان سورة «مريم» على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ (١).

بل حتى مريم أم المسيح، ليست مسماة على اسم مريم فى عنوان سورتها، إنما سميتها من قبلها تاريخياً هى مريم أخت موسى وهارون فى مصر فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، والتي كناها القرآن بـ «أخت موسى»، بينما كُنيت أم المسيح عيسى بعدئذ بـ «أخت هارون»، لكيلا يقع أى اختلاط بينهما بعدئذ.

علماً بأن من قام بتسمية مريم أم المسيح هى أمها مصداقاً لقوله تعالى على لسانها: ﴿وَأَنى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ (٢). وهى لم تسمها بهذه التسمية إلا نزولاً على تقليد يهودى مُتبع فى بنى إسرائيل، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأن هذا التقليد: (إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم) (٣).

١٠٢- فى عصر أيوب بن نوح :

ظلت مريم مُغتسلاً وشراباً بارداً، ولو أنها رُدمت بعد عصر آدم الأول، وحتى عصر أيوب، الذى ركضها برجله فأحياها بأمر الله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (٤). ثم جرى ردمها مرة أخرى، وظلت مردومة حتى عصر طفولة إسماعيل.

١٠٣- فى عصر طفولة إسماعيل:

فى هذا العصر أصبحت مريم بلغة آدم العربية الجامعة هى «زمزم» باللغة العربية الخاتمة، وذلك بعد أن ركضها جبريل بعقبه لكى تكون مشرباً

(١) آل عمران، ٣٦/آل عمران.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٤٧٩ رقم ٢٤٤٢.

(٤) ٤٢/ص~.

لإسماعيل آنذاك، أى فى طفولته مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن جبريل لما ركض زمزم بعقبه، جعلت أم إسماعيل تجمع البطحاء. رحم الله هاجر لو تركتها كانت عيناً مُعيناً)^(١).

ولو أن زمزم لم تعد مُغتسلاً، إنما صارت مشرباً، لكنها لا تزال خير ماء على وجه الأرض، وبالتالي بمثابة تحية الله لضيوفه من الحجاج والعمار، باعتبارها طعام طعم وشفاء سقم، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام من الطعم، وشفاء من السقم...)^(٢).

أما إنكار أن زمزم هى مريم وهى كهيعص، فإنه لن يُفضى إلى شئ، إلا تصور أن القرآن قد فرط فى بيان زمزم على الإطلاق، أو تصور أن القرآن والسنة قد فرطا فى بيان قصة زمزم قبل عصر إسماعيل على الأكثر، وكلاهما تصور خاطئ علمياً وعملياً على السواء.

١٠٤ - أطول لفظ :

كهيعص، وإن كان عدد حروفها خمسة، إنما هى أطول لفظ فى لغة الصاد «العربية»، ولو أنها نصف أطول لفظ فى لغة الضاد العربية الذى هو «أسقيناكموه»، وكلاهما متعلق بالسقيا من ماء من السماء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾^(٣). ولذا، حتى حروفها الخمسة بقدر عدد ألفاظ مفهوم كهيعص ومريم وزمزم اصطلاحياً، الذى هو «خير ماء على وجه الأرض».

^(١) الألبانى: السابق - ص ٤١٢ رقم ٢٠٥٥، ص ٦٢٧ رقم ٣٣٢٢.

^(٢) ٢٢/الحجر.

المطلب الرابع

قصة إبنى نوح

١٠٥ - مدى تشعب القصة:

كم إبناً، كان لنوح قبل الطوفان وأثناء الطوفان وبعد الطوفان؟ هل فرط القرآن فى هذا البيان، عدداً وإسماً، أم لم يُفرط فيه (٣٨/الأنعام)؟ وفى الحالة الأخيرة، هل كان أحد بإسم «سام» أو «حام» أو «يافت»، أم لم تكن تلك سوى أسماء مبتدعة، حتى لو كانت موجودة فى الكتاب المقدس؟ وفى الحالة الثانية، هل تهمة «معادة» السامية لها أساس، أم شأنها شأن تهمة «محبية» السامية (١٨/المائدة)، أى كلتاهما بدعة مبتدعة تاريخياً؟.

الفرع الأول

إبنا

نوح قبل الطوفان

١٠٦ - قصة وردت على استقلال:

قصة إبنى نوح قبل الطوفان هى قصة وردت على استقلال فى القرآن. فهى ليست قصة نوح ذاته، وبالتالي لم ترد فى سورة نوح، ولا فى غيرها من السور التى عالجت زوايا من قصة نوح. إنما وردت قصتهما فى سورة أخرى، هى سورة الكهف.

وقصتهما، لم ترد على استقلال فحسب، إنما وردت أيضاً كمثال مضروب للناس عبر الزمان، أى ثابت لا يتغير بتغير الزمان، ولو أنه مثال رجلين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ...﴾^(١).

(١) ٣٢/الكهف.

وهذان الرجلان، ليسا مختلفين مالا وولداً فحسب، إنما أيضاً مختلفان ديناً، فأحدهما كافر والآخر مؤمن، وكلاهما ليس من أهل الآخر، ولو كانا أخوين شقيقين، وذلك قياساً على وضع الكافر نسبة إلى والده نوح على الأقل (٤٦/هود)، وبالتالي فهما صاحبان على الأكثر.

وكانا يتحاوران بمناسبة ما جعله الله للكافر منهما، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّثْلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا. كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا. وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ...﴾ (١)

١٠٧- حوار الكافر :

وكان الكافر يتحاور من منطلق كثرة المال وعزوة الولد، والاطمئنان فى الدنيا وفى الآخرة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿... فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٢).

١٠٨- حوار المؤمن :

وكان المؤمن يتحاور من منطلق أن الله قادر على أن يذل من يشاء ولو كان كثير المال والولد، وأن يعز من يشاء ولو كان أقل مالا وولداً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا. لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي

(١) (٣٢-٣٤/الكهف، ٣٤-٣٦/الكهف،

أَحَدًا. وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا
أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا. فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا
حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا. أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ
تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴿١﴾.

١٠٩ - بداية ونهاية التغير في حال الكافر:

التغير في حال الكافر بعدئذ، كانت بدايته فيما حدث للثمر وللجنتين، بينما نهايته فيما حدث له أثناء الطوفان، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا. وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا. هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾^(٢).

وبدهى أن الكافر لن يكون موجوداً بعد الطوفان، ولا حاجة مطلقاً إلى معرفة إسمه بعدئذ. بينما المؤمن سيكون ناجياً من الطوفان، ويعوضه الله عن قلة ماله وولده بعدئذ، أى يأتيه سبحانه أهله ومثلهم معهم (٨٤/الأنبياء، ٤٣/ص~)، وهو أيوب عليه السلام.

كما أغناه ربه، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (بينما أيوب يغتسل عرياناً، خر عليه جراد من ذهب. فجعل أيوب يحثى في ثوبه. فناداه ربه تبارك وتعالى: يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك)^(٣).

^(١) (٣٧-٤١/الكهف، ٤٢-٤٤/الكهف).

^(٢) (الألبانى: السابق - ص ٥٥٠ رقم ٢٨٦٣).

١١٠ - غرق الكافر فى الطوفان:

وقد وردت قصة غرقه فى إطار قصة الطوفان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾^(١).

فكان فى خندق الكافرين، أى لم يكن فى جانب أبيه نوح، ولا حتى من أهله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...﴾^(٢). فلا هو من أهل أبيه أو أخيه.

الفرع الثانى

إبنا

نوح بعد الطوفان

١١١ - أيوب وعاد:

إبنا نوح بعد الطوفان، كلاهما كان مؤمناً وراكباً مع أبيه فى السفينة حتى استوت على الجودى: وأحدهما هو «أيوب» الذى هو أسبق فى الوجود تاريخياً من إبراهيم ولوط، أى هو من ذرية نوح مباشرة، ولو ورد ذكره فى قائمة ذرية نوح وإبراهيم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ﴾^(٣).

(١) ٤٢-٤٣/هود، ٤٥-٤٦/هود، ٨٤/الأنعام.

أما الآخر، فهو «إرم»، الذى «عاد» إلى الأحقاف موطن نوح قبل الطوفان، وصار أصل قوم عاد الأولى، ولم يُبعث نبياً ورسولاً، وبالتالي لم يرد ذكره فى قائمة ذرية نوح وإبراهيم من الأنبياء والمرسلين.

فلم يُبعث منهما نبياً ورسولاً سوى أيوب، الذى لم يعد إلى الأحقاف موطن نوح قبل الطوفان، وبالتالي ورد ذكره فى القرآن أربع مرات (١٨٦/النساء، ٨٤/الأنعام، ٨٣/الأنبياء، ٤١/ص~).

١١٢- وجهته بعد الطوفان :

أيوب - كعاد - من أهل نوح الذين نجاهم الله من الطوفان، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾**^(١). وكلاهما أسبق فى الوجود تاريخياً من «هود» الذى أرسل إلى قوم عاد، وأسبق منه بكثير جداً.

لكن أيوب توجه إلى «بكة» آنذاك، حيث يوجد البيت العتيق الذى تهدمت جدرانه بالطوفان، ولو لم يكن من مهام أيوب وقتذاك إعادة بناء تلك الجدران.

١١٣- مرضه :

أصيب أيوب فى بكة بمرض جسدى على يد الشيطان، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: **﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾**^(٢). ومن ثم كان مرضه عضالاً، مصداقاً لقوله

^(١) (٧٥-٧٦/الصافات، ٤١/ص~).

تعالى على لسانه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١).

فقد كان أيوب مصاباً بالطاعون تحديداً، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأن هذا المرض: (الطاعون وخز أعدائكم من الجن)^(٢). وقوله أيضاً بشأنه: (الطاعون ... وخز أعدائكم من الجن. غدة كغدة الإبل تخرج في الآباط والمراق...)^(٣).

وأصبح هذا المرض رحمة بعد أن كان عذاباً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (الطاعون كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء. وأن الله جعله رحمة للمؤمنين)^(٤). فهو رحمة لمن مات منه، حيث يموت شهيداً لو كان مسلماً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (الطاعون شهادة لكل مسلم)^(٥).

والطاعون أحد الأمراض المعدية، وبالتالي يوجب عزل المرضى عن الأصحاء، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لا يوردن ممرض على مصح)^(٦). وعزل الأصحاء عن المرضى، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه. وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا فراراً منه)^(٧). وهو بهذا لا يوجب وجود المشافي لعزل المرضى فيها فحسب، إنما يوجب أيضاً وجود الحجر الصحي عامة.

(١) ٨٣/الأنبياء.

(٢-٧) الألباني: السابق - ص ٧٣٢ رقم ٣٩٥١، ص ٧٣١ رقم ٣٩٤٦، ص ٧٣٢ رقم ٣٩٤٩، ص ٧٣٢ رقم ٣٩٤٧، ص ١٢٨٨ رقم ٧٨١٠، ص ١٦٧ رقم

١١٤ - دوره فى تفجير ماء زمزم :

اصطلاح «زمزم» هو إسم على الأقل، وإسم «خلق» من خلق الله على أى الأحوال. وهذا الخلق الذى هو «ماء» أصلاً، وتفجير هذا الماء له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: تفجير زمزم لأول مرة تاريخياً، كانت على يد أيوب ببكة، حيث كان يسكن - حتى - فى واد غير ذى زرع عند بيت الله الحرام، أى عند البيت العتيق، الذى هدم الطوفان جدرانته ولم تكن إقامتها من شأن أيوب، الذى كان من شأنه تفجير ماء زمزم.

فأيوب مريضاً وواهناً ووحيداً وطريحاً على ظهره، هو أول من فجر برجله ماء زمزم، وذلك بأمر ربه، مصداقاً لقوله تعالى إلى أيوب: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾^(١). وكان فى هذا الماء الطعام والشفاء على السواء، وذلك لأيوب المريض وقتذاك، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾^(٢).

وآنذاك، لم تكن زمزم مجرد عين بئر على نحو ما هى عليه الآن، إنما كانت أكثر من ذلك، أى كانت «مغتسلاً»، لكنها لا تزال لغاية الآن طعاماً وشفاء على السواء، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (زمزم طعام طعم، وشفاء سقم)^(٣). وقوله: (خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم)^(٤).

(٢-١) ٤٢/ص~، ٨٤/الأنبياء.

(٣-٤) الألبانى: السابق - ص ٦٦٨ رقم ٣٥٧٢، ص ٦٢٧ رقم ٣٣٢٢.

وثانياً: كان تفجير زمزم لآخر مرة تاريخياً، فى عصر إسماعيل بيكة، حيث كان يسكن هو وأمه فى نفس الواد. وكان إسماعيل طفلاً رضيعاً ووحيداً وطريحاً على ظهره، وبالتالي فجر له جبريل ماء زمزم بعقبه، ولو أن أمه هاجر لم تصبر عليها حتى تصبح مغتسلاً كما كانت، إنما حوطت عليها واغترفت منها بيديها لكى تسقى رضيعها، وبالتالي صارت مجرد عين بئر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (يرحم الله أم إسماعيل، لولا أنها عجلت لكنت زمزم عيناً معيناً)^(١). وقوله أيضاً: (يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم، أو قال لو لم تغرف من الماء، لكنت عيناً معيناً)^(٢).

١١٥ - دوره فى رجم إبليس :

لم يُطعن أيوب بالطاعون إلا على يد الشيطان (٤١/ص~)، الذى هو العدو المبين للإنسان (٥٣/الإسراء). بل هو حتى العدو غير المرئى للإنسان، الذى هو مرئى للشيطان وقبيله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾^(٣).

بل هو أيضاً العدو الذى يجب رجمه، مصداقاً لقوله تعالى إليه قديماً: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ﴾^(٤). ولفظ «الرجم» هو اسم على الأقل، وإسم «خلق» من خلق الله على أى الأحوال. وهذا الخلق له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات) ويجب إذن التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

(١) الألبانى: السابق - ص ١٣٤٣ رقم ٨٠٨٠، ص ١٣٤٢ رقم ٨٠٧٩.

(٢) (٢٧/الأعراف، ٧٧/ص~).

فأولاً: رجم الشيطان لأول مرة تاريخياً، كان على يد أيوب، الذى أقسم حال مرضه، أن يضرب المتسبب فى مرضه بالطاعون، أى يضرب الشيطان، لو أن الله شفاه من هذا المرض، وبالتالي بيّن له الله كيف يضربه لكيلا يحنث فى قسمه، مصداقاً لقوله تعالى إلى أيوب: ﴿وَأَخَذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾^(١).

وأيوب أسبق فى الوجود تاريخياً من إبراهيم، الذى هو أول من أذن فى الناس بالحج (٢٧/الحج)، وبالتالي لم يكن رجم إبليس فى عصر أيوب قد أصبح بعد من شعائر الحج، أى أن هذا الرجم بدوره كان أسبق فى الوجود تاريخياً من الحج ذاته.

وثانياً: رجم الشيطان لآخر مرة تاريخياً، كان على يد خاتم الرسل، وكشعيرة من شعائر الحج، ولو لم يتجاوز الضرب عدة مرات، كل مرة سبع جمرات. ولا يُغنى عن هذا الرجم، مجرد سب الشيطان كلاماً، بل إن هذا السب منهى عنه، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لا تسبو الشيطان، وتعودوا بالله من شره)^(٢).

١١٦ - المبدأ فى عصر أيوب :

وهكذا فالمبدأ منذ عصر أيوب لغاية الآن وإلى مالا نهاية، هو أنه: لا زمزم ولا رجم لإبليس إلا فى بكة، أى من قبل أن تُصبح - حتى - مكة، ومن قبل أن يوجد الحج والصلاة لأول مرة تاريخياً فى مكة فى عصر إبراهيم. وفى بكة ثم مكة باعتبارها عاصمة الأرض ومن ثم البلد

(١) ٤٤/ص~.

(٢) الألبانى: السابق - ص ١٢٢٣ رقم ٧٣١٨.

الحرام منذ خلق الله السماوات والأرض، وبالتالي بها أول بيت وضع للناس، أى البيت العتيق.

ويدهى أن نوح وأيوب لم يكونا هوداً ولا نصارى على الإطلاق، وذلك قياساً - ومن باب أولى - على إبراهيم وإسماعيل اللذين لم يكونا هوداً ولا نصارى على الإطلاق (٦٥-٦٧/آل عمران). بل إن إبراهيم كان من شيعة نوح، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَأَنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ. إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (١).

المطلب الخامس

قصة عمران

١١٧ - مدى تشعب القصة:

من هو «عمران» هذا الذى له آل هم «آل عمران»؟ وما هو دوره تاريخياً، حتى ولو لم يكن نبياً ولا رسولاً، ولا يهودياً ولا نصرانياً، أى حتى لو كان واحداً من بنى إسرائيل قبل نزول التوراة والإنجيل تاريخياً؟.

هل فرط القرآن فى هذا البيان تحديداً، أم لم يُفرط فيه على الإطلاق (٣٨/الأنعام، ٨٩/النحل)؟ وفى الحالة الأخيرة، هل عمران ولقمان شخصان مختلفان عن بعضهما، أم شخص واحد بدورين مختلفين عن بعضهما؟. وهل هذه الازدواجية أم تلك هى سبب التأخير فى معالجة الموضوع علمياً لغاية الآن؟.

(١) ٨٣-٨٤/الصفات.

وعلى أى الأحوال، لفظ «عمران» ليس مجرد لفظ لغوى، إنما هو «اصطلاح» موجود فى القرآن كشريعة. وهذا الاصطلاح هو اسم على الأقل، وإسم «خلق» من خلق الله على أى الأحوال. وهذا الخلق، ليس إنسياً فحسب، إنما أيضاً له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب إذن التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك على التفصيل التالى بيانه.

١١٨ - فى نشأته الآخرة تاريخياً:

عمران فى نشأته الآخرة تاريخياً، هو والد مريم أم المسيح عيسى، وهو لم يكن نبياً أو رسولاً أو راهباً، ولو كان يهودياً، ولم يعرف له آل. ولم يُعرف عنه شيئاً سوى أنه لم يكن سيئاً على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أُخْتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾^(١).

وهكذا لم تكن مريم من «آل موسى» (٢٤٨/البقرة)، إنما هى كوالدها ووالدتها من قبلها وكابنها من بعدها، من «آل هارون» (٢٨/مريم)، وبالتالي فإنها عيسى شأنه شأن هارون، أى كلاهما من ذرية إبراهيم (٨٤-٨٦/الأنعام) على أى الأحوال.

وهى لم تُسم بمريم ولا سُمى أبوها بعمران، إلا كتقليد يهودى مُستقر فى هذا الشأن، مصداقاً لقول خاتم الرسل عنه: (إنهم كانوا يُسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم)^(٢). فهى مسماة على إسم مريم أخت موسى

(١) ٢٨/مريم.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٤٧٩ رقم ٢٤٤٢.

وهارون، وأبوها مُسمى على إسم عمران والد الثلاثة، وذلك رغم اختلاف الزمان والمكان بين هؤلاء وهؤلاء.

وقد كُنيت أمها فى القرآن بـ «امرأة عمران» (٣٥/آل عمران)، بينما كُنيت هى بـ «أخت هارون» (٢٨/مريم). كما كُنى عيسى بـ «ابن مريم» (٣٤/مريم). وقد مات أبوها قبل أمها، وماتا قبل بعثة عيسى، أى ماتا على اليهودية وقبل وجود النصرانية.

١١٩ - فى نشأته الأولى تاريخياً:

كانت نشأة عمران لأول مرة تاريخياً، فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، فى مصر آنذاك، وحيث تزوج بعدئذ وأنجب هو وزوجته أولاده: هارون وموسى وأختهما مريم، أى جميعهم من مواليد مصر، وشأنهم فى ذلك شأن المسيح عيسى. ولو أنهم من مواليد مشارق مصر، بينما المسيح من مواليد مغاربا المباركة، وذلك على نحو ما سنعرضه من بعد.

وقد أفاض القرآن فى بيان أعمال «آل عمران»، سواء أعمال زوجته أو إبنته أو إبنيه، بل حتى خصهم على استقلال بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٣)، أى «سورة آل عمران».

ثم أفاض القرآن بعدئذ فى بيان دور عمران على استقلال، بل حتى خصه بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٣١)، أى «سورة لقمان». وذلك على اعتبار أن لقمان هو عمران، وعمران هو لقمان، أى هو شخص واحد له إسمان وظيفياً: فهو كرب عائلة، عمران. وهو كحكيم، لقمان.

فعمران هو لقمان الذى تلقى مباشرة من ربه «علم الحكمة»، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾^(١). وقد أوتى بهذا خيراً كثيراً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٢). أى أوتى خيراً أكثر كثيراً من مجرد التفقه فى الدين، والذى يؤتى به المتفقه مجرد الخير، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين)^(٣).

ومن ثم يُصبح من يُؤت الحكمة مثاراً لحسد مشروع، وكاستثناء على الحسد عامة، إذا وظف هذه الحكمة فى القضاء، وفى التعليم على السواء، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لا حسد إلا فى اثنتين: رجل.... ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضى بها، ويعلمها)^(٤).

١٢٠ - دوره تاريخياً :

عمران أو لقمان، لم يكن نبياً أو رسولاً أو راهباً أو كاهناً، بل كان أسبق فى الوجود تاريخياً من التوراة واليهودية والمحاريب، ومن باب أولى أسبق وجوداً من الإنجيل والنصرانية والكنائس، وبالتالي لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، أى كان على ديانة ما قبل اليهودية والنصرانية فى مصر، فى بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وآنذاك، كان «أول» الدعاة إلى سبيل الله من خارج إطار الأنبياء والمرسلين، ومن خارج إطار الكهان والرهبان، وذلك بفضل الحكمة التى أوتىها مباشرة من ربه. وكان لقمان أو عمران يعظ بالموعظة الحسنة، باعتبارها شكل هذه الحكمة عملياً. وكان يعظ ابنه على الأقل، سواء ابنه

^(١) ١٢/لقمان، ٢٦٩/البقرة.

^(٢-٣) الألبانى: السابق - ص ١١٢٤ رقم ٦٦١١، ص ١٢٤٦ رقم ٧٤٨٨.

الأكبر هارون، أو ابنه الأصغر موسى، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ...﴾^(١).

بل هو حتى الذي نصح موسى بالخروج من مصر لكيلا يقتله المملأ المتآمرون على قتله، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ...﴾^(٢).

وهكذا فالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، نشأت لأول مرة تاريخياً، على يد لقمان أو عمران. أما نشأتها الآخرة تاريخياً، فكانت على يد خاتم الرسل، وأصبحت هذه الدعوة واجباً مأموراً به قرانياً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾^(٣).

أما إنكار أن عمران هو لقمان ولقمان هو عمران بعدئذ، فإنه لن يتمخض عن شيء، سوى وجود «مجاهيل» كثيرة في أدمغة المخاطبين بالقرآن لغاية الآن، مثل: ١- ما هو إذن دور عمران تاريخياً؟. ٢- ومن هو لقمان^(٤)؟. ٣- ومن هو ابن لقمان الذي كان يعظه؟. ٤- ومتى وأين كان لقمان وابنه موجودين تاريخياً؟. ٥- وما هو موضوع قصة لقمان أو عمران من الوجهة العلمية؟

١٢١- موضوع قصة لقمان أو عمران:

ستظل قصة عمران أو لقمان في القرآن هي قصة «الخطبة الدعوية المثالية»، حال نشأتها الأولى تاريخياً في مصر، أي حال نشأتها في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وهي قصة «الخطبة الدعوية

^(١) ١٣/ لقمان، ٢٠-٢١/ القصص، ١٢٥/ النحل.

^(٢) انظر جدلاً خيالياً حول ما إذا كان لقمان نبياً أم راهباً في أنطاكية مع بولس بعد موت المسيح، على جمعة: حتى لقمان نبى - مقالة في المؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - السابق - ص ٥١٥.

النموذجية»، ولو خارج إطار الأنبياء والمرسلين، وحتى لو خارج دور العبادة.

والأصل فيها تاريخياً، أنها خطبة دعوية إلى سبيل الله فيمن آمنوا أصلاً. وهذا ليس في زمن لقمان أو عمران فحسب، إنما أيضاً في زمن «ذى القرنين» بعدئذ بقرون عدة، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: ﴿قَالَ ... وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾^(١)

وحتى خاتم الرسل لم يكن يتجاوز هذا «النموذج الأمثل» تاريخياً، في خطبه، التي كان يستهلها بحمد الله على الأقل، وذلك نزولاً على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٢). ومن ثم، صار استهلال الخطبة الدعوية بحمد الله والصلاة والتسليم على خاتم رسله، جزءاً لا يتجزأ منها بعدئذ.

١٢٢ - تنظيم الخطبة الدعوية :

هذا التنظيم بعد نزول القرآن، لم يعد يقتصر على تنظيم وجودها كواجب فحسب، إنما أصبح يطال حتى تنظيمها شكلاً وموضوعاً وزماناً، وذلك كما يلي:

فأولاً: من الوجهة الشكلية هي «نصيحة» ولو كانت نصيحة «خاصة» جداً من حيث غايتها، أي هي نصيحة لوجه الله وكتابه ورسوله

(١) ٨٧-٨٨/الكهف، ١٢/لقمان.

وأهل الذكر فى القرآن وعامة المسلمين، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)^(١).

وبدون هذه الغاية الخصوصية، فلا خطبة دعوية بالمعنى الدقيق، حتى لو كانت فى شكل نصيحة، وحتى لو كانت فى دار عبادة، وحتى لو كانت قبل صلاة جمعة فى أكبر دار عبادة، وبصرف النظر - حتى - عن هوية الخطيب وبلاغته لغوياً.

وثانياً: من الوجهة الموضوعية هى «حكمة» فى شكل «موعظة حسنة»، ذات أثر إيجابى حضارى فى نفوس الموعوظين (١٢٥/النحل). بل حتى العبرة فى الخطبة الدعوية هى بأثرها الإيجابى الحضارى، وذلك منذ قديم.

ويكفى فى بيان هذا الأثر قديماً، أن تتمعن - مثلاً - فى موقف موسى باعتباره أحد الموعوظين بالخطبة الدعوية المثالية فى نشأتها لأول مرة تاريخياً، وقبل بعثته بعشر سنين، أى موقفه من جرمه بعد ارتكابه، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾^(٢).

(١) الألبانى: السابق - ص ٤٦٠ رقم ٢٣٢٤.

(٢) ١٥-١٧/القصص.

وبدون هذه الحكمة أو الموعظة الحسنة أو الأثر الإيجابي الحضارى، فلا خطبة دعوية بالمعنى الدقيق، وذلك بصرف النظر عن هوية الخطيب وبلاغته لغوياً، وبصرف النظر - حتى - عن عدد الموجودين للسمع.

وثالثاً: من الوجهة الزمنية، هي سابقة ولازمة فى صلاة الجمعة والعيدىن، ولو لم تكن الصلاة فى دار عبادة، أى حتى لو كانت صلاة فى الخلاء.

١٢٣ - خلو الخطبة من لغو الكلام :

المشترك فى «موضوع» الخطبة الدعوية بنشأتها الأولى والآخرة تاريخياً، هو خلو هذا الموضوع من لغو الكلام، أى «لهو الحديث». لأنه نوع من اللهو المحظور على الأقل (٦٤/الإسراء)، والذى هو بدوره نوع من نوعى «اللغو» المحظور (٣/المؤمنون، ٥٥/القصص، ٧٢/الفرقان).

إن حكم لهو الحديث، سواء قبل نزول القرآن أو بعد نزول القرآن، هو حكم واحد فى الشريعة. لأن لهو الحديث لم يكن موجوداً قبل نزول القرآن إلا كنوع من «الظلمات» التى نزل هذا القرآن ليخرج الناس منها (١/إبراهيم)، وبالتالي أصبح لهو الحديث محظوراً منذ نزول القرآن، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ» (١).

بهذا، فإن لهو الحديث محظور بإطلاق، أى محظور بأنواعه، ومحظور فى الخطبة الدعوية أو فى غيرها، ولو كان أكثر حظراً فى

(١) ٦/لقمان.

الخطبة الدعوية بوجه خاص، لكون موضوعها دعوة إلى سبيل الله. فما هي إذن «أنواعه» التي يجب اجتنابها في الخطبة الدعوية وفي غيرها؟

أولاً: الفلسفة (الجدل) توأم الضلال قبل أو بعد الهدى، مصداقاً لقول الرسول: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)^(١). وهى كفر لو تعلقت بآيات الله (٤/غافر)، أو تعلقت بالقرآن مصداقاً لقول الرسول: (لا تجادلوا في القرآن، فإن جدالاً فيه كفر)^(٢).

وثانياً: القصص الخيالي بدعة إسرائيلية تاريخياً، ولم تنشأ إلا فى ظل هجر التوراة (٥/الجمعة)، وبالتالي محذور بإطلاق فى ظل القرآن مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن بنى إسرائيل، لما هلكوا، قصوا)^(٣).

١٢٤ - وثالثاً: الشعر منذ نزول القرآن، أصبح محظوراً تعليمه وتعلمه على الرسول كأسوة حسنة للناس كافة حتى يوم القيامة (٦٩/يس). ومحظوراً حفظه لغوياً، مصداقاً لقول الرسول: (لأن يمتلى جوف أحدكم قيحاً حتى يريه، خير له من أن يمتلى شعراً)^(٤).

أما المحفوظ منه قبل حظره، فلا بقاء له إلا كاستثناء، مُقيد شخصياً بالحفظة وحدهم دون زيادة عليهم. وبالتالي مُقيد زمانياً، بأعمار هؤلاء الحفظة والتي لن تتجاوز قرناً على الأكثر، مصداقاً لقول الرسول: (لا تأتى مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم)^(٥). ومُقيد موضوعياً، بحسنه

(١) الألبانى: السابق - ص ٩٤٨ رقم ٥٦٣٣، ص ١٢١٠ رقم ٧٢٢٣، ص ٤١٠ رقم ٢٠٤٥، ص ٩٠٠ رقم ٥٠٤٨، ص ١٢٠٦ رقم ٧١٨٧.

ككلام دون قبيحه على الإطلاق مصداقاً لقول الرسول: (الشعر بمنزلة الكلام. فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام)(^١).

أما حسان بن ثابت كاستثناء آخر، فكان مؤيداً بروح القدس حال حياة الرسول، وبالتالي فلا يُقاس عليه مطلقاً بعد وفاة الرسول، مصداقاً لقوله: (إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح رسول الله)(^٢).

١٢٥- وعلى أى الأحوال، يجرى البحث حالياً فى مصر على الأقل، عن «حل علمى» تجتاز به الخطبة الدعوية أزمتهما الحادة مؤخراً. فقد صارت هذه الخطبة تقاس بمحتواها لغوياً حتى لو كان محتواها مجرد لهو حديث. أى لم تعد تُقاس - كما كانت تُقاس قديماً - بأثرها الإيجابى الحضارى على الموعوظين بها، وبالتالي لم تعد تزودهم بالحكمة، ولا بالموعظة الحسنة على الأقل، ولا حتى بالحكمة «اللغوية» على أقل الأقل.

فمثلاً، لم يعد الواعظ أكثر من الموعوظ معرفة: باختلاف بكة (٩٦/آل عمران) عن مكة (٢٤/الفتح). واختلاف طور سينين (٢/التين) عن طور سيناء (٢٠/المؤمنون). واختلاف التين (١/التين) عن شجرة من يقطين (١٤٦/الصافات). واختلاف شرعة (٤٨/المائدة) عن شرعية (١٨/الجاثية). واختلاف الزبور (٥٥/الإسراء) عن الزير (٢٥/فاطر) إلى آخر المجاهيل اللغوية الموجودة لغاية الآن.

(^١) الألبانى: السابق - ص ٦٩٤ رقم ٣٧٣٣، ص ٣٨٠ رقم ١٨٦٥.

المبحث الرابع
جغرافية
نشأة الأرض

مقدمة المبحث

١٢٦ - استذكار مثنى الخلق :

استذكار القرآن موضوعياً، هو استذكار موضوعه الذى كله مثنى، و «كل المثنى» (٢٣/الزمر). أى استذكارها مثنى بمثنى (٤٩/الذاريات)، واستذكار كل مثنى خلقاً بخلق (٢٠/العنكبوت)، حتى خلق السموات والأرض.

إذن ليس مهماً السؤال: عمن خلق السموات والأرض؟. لأنه لم يخلقهما إلا خالق الخلق عامة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

كما ليس مهماً السؤال: لماذا خلق الله السموات والأرض؟. فهو سبحانه لم يخلق الخلق عامة إلا لأنه أراد أن يخلق هذا الخلق، لكى يُدلل «مادياً» على وجوده سبحانه وألوهيته وقدرته.

وبذا فالمهم هو: كيف خلق سبحانه السموات والأرض؟. ومن ثم

تتوزع محتويات المبحث الراهن كما يلى:

المطلب الأول: نشأتا السموات والأرض.

المطلب الثانى: ببيان الأرض شكلياً.

المطلب الثالث: رؤية ملكوت السموات والأرض.

المطلب الرابع: النفاذ من أقطار السموات والأرض.

^(١) ٣٨/الزمر، ٩/الزخرف.

المطلب الأول

نشأتا السموات والأرض

١٢٧- واجب التمييز بين نشأتيهما:

التمييز بين نشأتى السموات والأرض تاريخياً، هو واجب قرآنياً (٢٠/العنكبوت)، خاصة أن الكتاب المقدس يخلو تماماً من بيان نشأتى الأرض تاريخياً، كما يخلو تماماً من بيان نشأتى السماء تاريخياً، ولو أن هذا الكتاب المقدس لم يُنكر أن السموات والأرض خلق من خلق الله، وذلك فى مستهل أول أسفاره بإطلاق حيث قيل: «فى البدء خلق الله السموات والأرض»^(١).

الفرع الأول

أول نشأة

للسموات والأرض

١٢٨- نشأتها الأولى تاريخياً:

فى بداية خلق السموات والأرض، كانتا رتقاً معاً، أى كانتا كتلة واحدة، أنت طوعاً لأمر الله وقد استوى سبحانه إلى السماء، التى لم تكن قد خُلقت بعد ومن ثم كان مكانها أثيراً أو دخاناً آنذاك، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا

(١) تك ١ : ١.

وَلِلْأَرْضِ إِنْتِياً طَوْعاً أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ^(١). وينبغي إذن مراعاة أمرين في هذا الصدد:

أولاً: الدخان، أسبق في الوجود تاريخياً من السموات والأرض. وهو ليس موجوداً في الكون، إلا كخلق من خلق الله. وهذا الخلق، ليس قائماً بذاته أى له استقلاله فحسب، إنما له أيضاً نشأتان تاريخياً وذلك على نحو ما تقدم بيانه. وإذا كان الإنسان لم يشهد نشأة الدخان لأول مرة تاريخياً، إنما سيشهد نشأته الآخرة تاريخياً، فى آخر الزمان، وبعد زوال السموات والأرض (٩-١٠/الدخان).

وثانياً: السماء والأرض أتيتا لأول مرة تاريخياً، من العدم وليس من انفجار كونى كما يزعم العلمانيون لغاية الآن. وأتيتا طوعاً، وليس كرهاً عنهما. وأتيتا بأمر الله، وليس تلقائياً من جانبهما كما يزعم العلمانيون لغاية الآن. وأتيتا كتلة واحدة معاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **﴿أُولَئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا...﴾**^(٢).

١٢٩ - خلق ناطق:

وهذا الخلق هو خلق ناطق، ولو لم ينطق «لغة» بالمعنى الدقيق. إنما كان ناطقاً بالمنطق، أى هو من الناطقين بالمنطق، الذى هو أسبق فى الوجود تاريخياً من اللغة، ويؤرخ علمياً لهذا المنطق منذ «منطق» القلم (٤/العلق) الذى هو أول خلق خلقه الله واستكتبه «كتاب القدر»، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: (إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يارب ما أكتب؟...)^(٣).

^(٢-١) ١١/ فصلت، ٣٠/ الأنبياء.

^(٣) الألبانى: السابق - ص ٤٠٥ رقم ٢٠١٧.

كذلك منطق السموات والأرض، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهما: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١). وهكذا فالسموات والأرض خلق ناطق منذ نشأته لأول مرة تاريخياً، ولو لم يكن ناطقاً بلغة البشر الذى لم يكن قد خُلق بعد آنذاك.

١٣٠ - خلق يُسبِّح بحمد ربه :

المنطق حكر على الناطقين به فيما بينهم من ناحية، وفيما بينهم وبين الله الذى علمهم إياه، ولم يعلمه بعدئذ للبشر ملكاً أو جنأً أو إنساً، وبالتالي لا يفهمون حتى تسبيح الناطقين بالمنطق، سواء السموات والأرض، أو غيرهما من الناطقين بالمنطق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿تَسْبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ .. وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٢).

والله لم يُعلم المنطق للبشر، إنما علمهم سبحانه اللغة، وبالتالي لم يعلم المنطق للإنسان إلا كاستثناء وارد حصراً. مثل تعليم سليمان منطق الطير (١٦/النمل) وكذا منطق النمل (١٩/النمل). ومثل تعليم خاتم الرسل قبل بعثته منطق الحجر الأسود مصداقاً لقوله: ﴿إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ، كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ﴾^(٣). وكذا تعليمه منطق جذع النخل الذى كان يقف عليه كمنبر فى مسجده، مصداقاً لقوله بشأن هذا الجذع: ﴿إِنْ هَذَا بَكِيَ، لَمَا فَقَدَ مِنَ الذِّكْرِ﴾^(٤).

١٣١ - خلق بكاء:

بل حتى هذا الخلق هو خلق بكاء، وذلك عند اللزوم، أى فى حالة الضرورة التى تقتضى هذا البكاء، وبأمر من الله، كما فى طوفان نوح مثلاً، حينما فُتحت أبواب السماء بماء منهمر وفجرت الأرض عيوناً.

^(١) ١١/ فصلت، ٤٤/ الإسراء.

^(٢) الألبانى: السابق - ص ٤٨٨ رقم ٢٤٨٧، ص ٤٤٨ رقم ٢٢٥٦.

لكن هذا البكاء لم يكن لازماً، حال غرق فرعون وجنده مثلاً، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾^(١).

وكلتاها حالة إغراق للكافرين تاريخياً، لكن كان البحر وحده كافياً لأداء هذه المهمة بالنسبة لإغراق فرعون وجنده، أى أن هذا البحر شأنه شأن السموات والأرض من الجنود الإلهية التى لا يعلمها إلا الله، باعتبارهم جنوده سبحانه.

١٣٢ - خلق مُلتزم بقدره :

كما أن هذا الخلق يُقدر نفسه حق قدرها. فهو يعلم - أولاً - أنه ليس مُيسراً إلا لما خلق له على الأكثر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (كل مُيسر لما خلق له)^(٢). كما يعلم - ثانياً - أنه ليس ميسراً لحمل «الأمانة» مطلقاً، وبالتالي أشفق على ذاته منها لو حملها ومن ثم رفض حملها حينما عُرضت عليه من ربه قبل عرضها على الإنسان، بل حتى قبل خلق الإنسان، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾^(٣).

فهذه الأمانة اصطلاحياً، هى أمانة الالتزام بمعرفة وفهم العلم الحق من مصدره الحق، والعمل بمقتضاه وحده دون سواه على الإطلاق. وذلك على نحو ما تقدم بيانه من قبل، وبيان أن المقصود بمصدر العلم الحق مؤخراً هو القرآن والسنة.

(١) ٢٩/الدخان.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٨٣٧ رقم ٤٥٦١.

(٣) ٧٢/الأحزاب.

الفرع الثانى آخر نشأة للسموات والأرض

١٣٣ - نشأتها الآخرة تاريخياً:

فى هذه النشأة الآخرة للسموات والأرض، لم تعودا كتلة واحدة كما فى نشأتها الأولى تاريخياً، إنما أصبحتا مفتوقيتين عن بعضهما، أى منفصلتين تماماً، وكل واحدة منهما على استقلال عن الأخرى، أى كل منهما قائمة بذاتها، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما...﴾^(١).

بل حتى لم تصبعا مفتوقيتين عن بعضهما فحسب، إنما أصبحتا أيضاً مفتوقيتين داخلياً، أى من داخلهما، وبالتالي صارت كل واحدة منهما سبعاً من الداخل، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾^(٢).

١٣٤ - سبع سماوات :

تمخض خلق السماء بنشأته الأولى والآخرة تاريخياً، عن بنيان سماوى قائم بذاته، أى له استقلاله، وبناءه الخالق سبحانه مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾^(٣). وبنائها سبحانه سبعاً شداداً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾^(٤). وبلا فتوق أو شقوق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾^(٥).

وهذا البنيان مكون من سبع سماوات متدرجة فى طبقات يعلو بعضها بعضاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ

(١) ٣٠/ الأنبياء، ١٢/ الطلاق، ٥/ الشمس، ١٢/ النبأ، ٦/ ق.

سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا»^(١). وهى بهذا السماء إجمالاً مصداقاً لقوله تعالى: «فَازْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ»^(٢) كما هى السماوات تفصيلاً مصداقاً لقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا»^(٣)، وبحسب الأحوال.

وليلة عُرِج بخاتم الرسل إلى هذه السماوات، وجد أن لكل سماء بابها على استقلال. وهى أبواب لا تفتح إلا لمن صدق بآيات الله والتزم بها طوعاً وقبل بها رضاءً، مصداقاً لقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ»^(٤).

كما لا تُفَتَّح هذه الأبواب إلا بالطرق عليها، حتى لو كان القادم ممن صدقوا بآيات الله والتزم بها طوعاً وقبلها رضاءً، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: «وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ»^(٥). وقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل من أنت؟. قال: جبريل. قيل: ومن معك؟. قال: محمد. قيل: أو قد بُعث؟. قال: بُعث إليه؟. ففتح لنا)^(٦).

وقابل خاتم الرسل ليلتها آدم فى السماء الأولى، وعيسى ويحيى فى السماء الثانية، ويوسف فى السماء الثالثة، وإدريس فى السماء الرابعة، وهارون فى السماء الخامسة، وموسى فى السماء السادسة، وإبراهيم فى السماء السابعة، وبمراعاة أن السماء الأولى هى السماء الدنيا مصداقاً لقوله تعالى: «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا»^(٧). وبذا فالسماوات السابعة هى السماء العليا.

(١) ٣/ الملك، ١٠/ الدخان، ١٥/ نوح، ٤٠/ الأعراف، ١/ الطارق.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٨٦ رقم ١٢٧.

(٣) ١٢/ فصلت.

لكن كل السموات هي سماوات عُلَى بالنسبة للأرض مصداقاً لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ (١).

كما رأى ليلتها الملائكة بكثرتهم البالغة، مصداقاً لقوله: (أُطِتَ السَّمَاءُ وَيَحِقُّ لَهَا أَنْ تَنْطُ. وَالذِّي نَفْسَ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ شَبِيرٌ إِلَّا وَفِيهِ جِبْهَةٌ مَلِكٌ سَاجِدٌ يَسْبِيحُ اللَّهَ بِحَمْدِهِ) (٢).

١٣٥ - مدة الخلق :

نشأتا السموات والأرض وما بينهما لم تستنفدا زمنياً أكثر من ستة أيام مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...﴾ (٣). وهذه المدة مُنظمة تفصيلاً كما يلي:

أولاً: نشأتا الأرض على استقلال، استنفدتا أربعة أيام، منها يومين في خلق الأرض مصداقاً لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (٤). أما إعدادها وتمهيدها فقد استنفدا يومين آخرين، وبإجمالي أربعة أيام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ (٥)، وما بارك سبحانه فيه من «الأراضين» ورد عدداً وحسراً في القرآن، ومنها عاصمة الأرض وأدنى الأرض وأعلى الأرض، ولو لم تحظ تلك الأراضين المباركة باهتمام الأوساط العلمية حتى الآن، وبالتالي هناك من يبتدع قداسة زائفة لأماكن لم ينزل بقداستها سلطاناً من الله: مثل «قم» بإيران و «كربلاء» بالعراق.

(١) ٤/طه.

(٢) الألباني: السابق - ص ٢٣٥ رقم ١٠٢٠.

(٣-٥) ٤/السجدة، ٩/ فصلت، ١٠/ فصلت.

وثانياً: نشأتا السماء على استقلال، استنفدتا يومين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ... فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(١).

وعلى أى الأحوال، هذه المدة هى أجل «خلق» السماوات والأرض، أى سابقة تاريخياً على أجل «حياة» السماوات والأرض، وبالتالي لا يسرى هذا الأجل الأخير من خلقهما أول مرة تاريخياً ولا من خلقهما لآخر مرة تاريخياً، إنما يسرى بعد تمام خلقهما، أى أن هذا الأجل يفترض تمام خلق السماوات والأرض.

ومن ثم فإن هذه الستة أيام لا تدخل فى حساب أجل السماوات والأرض، إنما تدخل فى الخمسين ألف سنة «الأولى» من تاريخ الكون، والتي تحسب من تاريخ خلق القلم كأول خلق تاريخياً وتنتهى بتمام خلق السماوات والأرض. بينما أجلهما هو الخمسون ألف سنة «الآخرة» من تاريخ الكون، والتي تبدأ بخلق الملائكة، وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

١٣٦ - خلق الملائكة :

لم يخلق الله الملائكة إلا بعد خلق السماوات والأرض، واستوائه سبحانه على العرش يُدبر الأمر، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾^(٢):

^(١) ١١-١٢/فصلت، ٥٤/الأعراف وكذا ٣/يونس،

أولاً: هذا التدبير للأمر له نظامه. فسبحانه يُدبر الأمر من السماء إلى الأرض، وليس العكس، ويدبره يوماً بيوماً، لكن ليس بحساب اليوم عند خلائق الأرض، إنما بحساب اليوم عند الله، الذى عنده اليوم يعدل ألف سنة مما يعده الخلائق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(١).

إذن يدبر سبحانه الأمر من السماء إلى الأرض، وليس العكس، ثم يعود إليه الأمر بعدئذ بألف سنة، لكى يُدبره سبحانه من جديد، ... وهكذا دورياً وبناتظام، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٢).

وهكذا يُدبر سبحانه الأمر ألف سنة بألف سنة، أى يدبر سبحانه أمر كل ألف سنة على استقلال، وتدبيراً قائماً بذاته، أى تدبيراً جديداً ومستقبلياً، وبحسب شئون الألف سنة مستقبلياً، رغم أن البشر ملكاً وجنباً وإنساً يسألون الله يوماً بيوماً، وكل يوم قائم بذاته، أى له استقلاله من حيث شئونه، لكن بحسب اليوم عندهم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(٣).

علماً بأن تدبيره سبحانه للأمر، لا يقتصر على مجرد التدبير فى ذاته، دون تنفيذ هذا الأمر، إنما يشمل تدبير وتنفيذ الأمر فى الألف سنة،

(١) ٤٧/ الحج، ٥/ السجدة، ٢٩/ الرحمن.

مصدّقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١).

وثانياً: من الملائكة من هم «المدبرات أمراً»، ولو لم يخلق الله الملائكة لأداء دوراً واحداً، إنما خلقهم لأداء أدواراً متعددة ومتباينة عن بعضها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا. وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا. وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا. فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا. فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (٢).

لذا لم يخلقهم سبحانه من الأرض، لا بطريقة مباشرة أى من طين الأرض كالإنس، ولا من الأرض بطريقة غير مباشرة أى من نار شجر الأرض كالجان، إنما خلقهم على استقلال عن الأرض، أى خلقهم من النور مباشرة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: ﴿خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ﴾ (٣).

لكن سبحانه خلقهم كبشر على أى الأحوال، وجعل لهم لغة، هى لغة عربية، التى فى نشأتها الأولى تاريخياً هى لغة الصاد وذلك على نحو ما بيناه آنفاً. وبذا فالملائكة، ليست فقط أول البشر تاريخياً، إنما هى أيضاً ليست من البشر الأرضى كالجن والإنس، بل هى - حتى - بشر سماوى، وبالتالي لها أجنحة مثنى أو ثلاث أو رباع أو أكثر بمشيئة الله (١/فاطر).

وهذا البشر السماوى لا يأكل ولا يشرب (٧٠/هود)، ولا يتناكح أو يتناسل (٣٧/القمر)، ولا له إذن ذرية، ولا حتى يُصنّف إلى ذكور وإناث، ولا يعرج فى السماوات دون الأرض، ولا يعرج فى الأرض دون السماوات كالجن والإنس، إنما يعرج فيهما معاً، وبالتالي يسرى «أجل» السماوات والأرض منذ خلق الملائكة، ولو لم يعرف البشر ملكاً وجناً وإنساً متى خلقت الملائكة ومن ثم يجهلون متى يوم القيامة (١-٧/المعارج).

(٢-١) ١١٧/البقرة، ١-٥/النازعات.

(٣) الألبانى: السابق - ص ٦١٦ رقم ٣٢٣٨.

بهذا، فالملائكة بشر غير مرئى للإنس، الذى هو بشر مرئى للملائكة ومرئى لغيرهما من البشر (٢٧/الأعراف). وليس معنى هذا بالبداهة أن الملائكة غير موجودين أو غير مختلفين عن غيرهم من البشر، إنما معناه أن الإنسان غير مؤهل لرؤية شئ بصرياً ما لم يكن هذا الشئ من الطين أصلاً (٣٨-٣٩/الحاقة).

ومن الرعونة البالغة للغاية بعدئذ، تصور أن «البشر هو الإنسان» وحده، أو أن «آدم هو أبو البشر» عامة، أو «هو أبو الجنس البشرى» بإطلاق، حتى لو استقر هذا التصور لدى مجمع اللغة العربية فى مصر (١).

المطلب الثانى بنيان الأرض شكلياً

١٣٧- تمهيد:

ليست السموات كالأرض، ولو من الوجهة الشكلية على الأقل، فلا هى بيبضاوية، ولا هى غير جامدة فى مكانها، ولا هى ناقصة الأطراف، ولو أن كلتاهما «سبع» من الوجهة العددية على أى الأحوال، وسبع يسعهم «كرسى الله» باعتبارهم جزءاً من «ملكوت الله»، وبالتالي تتوزع محتويات المطلب الراهن على ثلاثة فروع كما يلى:

الفرع الأول

سبع أرضين

١٣٨- خلق الأرض:

تمخض خلق الأرض بنشأته الأولى والآخرة تاريخياً، عن سبع أرضين، أى أن الخالق سبحانه قد مد الأرض، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ (٢). وسبحانه لم يمدّها أفقياً فحسب، ولا رأسياً فحسب، إنما مدها أفقياً ورأسياً على السواء.

(١) مجمع اللغة العربية - المعجم ... السابق - ص ١ و ١٠ و ٥٢.

(٢) ٣/الرعد.

فمدّها أفقيّاً، أي بسطها بسطاً مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: **﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاها﴾**^(١). كما مدّها رأسيّاً، أي جعلها سبعاً، بعضها فوق بعض، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾**^(٢).

وألقى سبحانه فيها البحر المسجور الذي تفجر فيها بحاراً (٣/الانفطار)، هي سبعة أبحر لغاية الآن (٢٧/لقمان). وكذا ألقى فيها الرواسي، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوَاسِي﴾**^(٣). أي ألقى فيها الجبال مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾**^(٤). وكذا الأنهار مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِي وَأَنْهَارًا﴾**^(٥). وقول خاتم الرسل: (أربعة أنهار من أنهار الجنة: سيحان، وجيحان، والنيل، والفرات)^(٦).

١٣٩ - ما مدى قابلية الأرضين للإنكار؟

يُنكر البعض مؤخراً، وإنكاراً صريحاً، وجود أكثر من أرض واحدة، وذلك باسم «العلم»^(٧)، الذي هو برئ تماماً من هذا الإنكار، وذلك قرآناً وسنة على السواء، فأولاً: الآية (١٢) من سورة الطلاق صريحة في أن الله خلق سبع سماوات ومثلهن من الأرض (١٢/الطلاق). وكذا الآية (٦٧/الزمر) تتكلم عن الأرض كجمع في قبضته سبحانه يوم القيامة، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**^(٨).

^(١) ٦/ الشمس، ١٢/ الطلاق. ١٩/ الحجر وكذا ٧/ق، ٣٢/النازعات، ٣/الرعد.

^(٢) الألباني: السابق - ص ٢١٢ رقم ٨٧٦.

^(٣) انظر مثلاً، على جمعة: القرآن يتناقض مع العلم - مقالة في المؤلف الجماعي الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - السابق - ص ٤٤٩-٤٥١.

^(٤) ٦٧/الزمر.

وثانياً: قول خاتم الرسل بشأن «الأرضين» يوم القيامة: (يطوى الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟) (١).

وقوله أيضاً بشأن «الأرض السفلى» على استقلال، أى الأرض السابعة - حتى - قبل يوم القيامة: (أذن لى أن أحدث عن ملك من حملة العرش، رجلاه فى الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمئة عام. يقول ذلك الملك سبحانه حيث كنت) (٢). وكذا قوله: (لا يأخذ أحد شبراً من الأرض بغير حقه، إلا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة) (٣).

إذن العلم برئ من ذاك الإنكار، الذى يُعارض صريح القرآن مرة تلو مرة، وصريح السنة مرة تلو مرة، حتى لو كان الإنس غير مؤهل لرؤية الأرضين السبع بصرياً (٣٨-٣٩/الحاقة).

١٤٠ - غموض قصة يأجوج ومأجوج:

إنكار وجود سبع أرضين، ولو ضمناً، لم يتمخض عن شئ، بقدر ما تمخض عن «غموض» قصة يأجوج ومأجوج مع ذى القرنين، أو العكس أى قصة ذى القرنين معهم.

فلا يزال المنكرون يبحثون على سطح الأرض الواحدة، عن «مكان» السدين اللذين بلغهما ذو القرنين من ناحية، وعن «مكان» السد الذى أقامه وقتذاك من ناحية أخرى، ولو كان بحثهم فى هذا الشأن عبثاً لغاية الآن، وبالتالي لم يجدوا أى شئ نافع علمياً، وذلك لسببين على الأقل:

(١-٣) الألبانى: السابق - ص ١٣٤٦ رقم ٨١٠١، ص ٢٠٨ رقم ٨٥٣، ص ١٢٥٧

فأولاً: ذو القرنين لم يبن «سداً» على الإطلاق، إنما وضع «ردماً» فحسب، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: ﴿قَالَ ... فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾^(١). ولا محل بعدئذ للبحث رأسياً عن سد، إنما يجب البحث أفقياً عن ردم، ولو لم يكن موجوداً على سطح الأرض الأولى.

وثانياً: الثقب الذى أحدثه يأجوج ومأجوج، وجرى ردمه، لم يكن سوى ثقب فى سد أفقى يعلو سد أفقى آخر، وبينهما يوجد هؤلاء أصلاً، مصداقاً لقوله تعالى بشأن هذين السدين: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ. وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَلَّذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

إذن يجب البحث عن الردم والسدين فى أرض تحت الأرض الأولى، وليس على سطحها كما يحدث حالياً وحيث هما غير موجودين على هذا السطح المرئى للإنسان.

وثالثاً: لم ولن يكف يأجوج ومأجوج عن محاولتهم عبثاً خرق السد الذى يسجنهم تحت الأرض، ما لم يجعله الله دكاء (٩٨/الكهف)، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن (إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم : ارجعوا ! فسحقه غدا ، فيعيده الله أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس ، حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم ارجعوا ! فستحفرونه غدا - إن شاء الله تعالى - واستثنوا ، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون الماء، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم. فيرمون سهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم الذى أحفظ. فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء. فيبعث الله

(١) ٩٥/الكهف، ٨-١٠/يس.

عليهم نغماً في أقفائهم فيقتلهم بها، والذي نفسى بيده، إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم(١).

١٤١ - خلق الجان:

ذو القرنين (٨٣/الكهف) والقوم الذين وجدهم عند عين الشمس (٨٦/الكهف)، والقوم الذين لم يجعل الله لهم من دون الشمس سترًا (٩٠/الكهف)، والقوم الذين وجدهم لا يكادون يفقهون شيئاً (٩٣/الكهف) ويأجوج ومأجوج، ليسوا إنساً من الإنس، إنما هم جان، وبالتالي شأنهم شأن إبليس باعتباره أول الجان تاريخياً، أى كلهم من ذوى القرنين.

وهم بشر على أى الأحوال، وبشر غير مرئى للإنسان، وشأنهم فى ذلك شأن الملائكة، لكنهم ليسوا ملائكة، ولا كانوا يوماً طائفة من الملائكة(٢).

وهم أحدث فى الوجود تاريخياً من الملائكة، وأسبق فى الوجود تاريخياً من الإنسان، وبالتالي فلا هم من النور كالملائكة، ولا هم من الطين كالإنسان، إنما هم من «النار» مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾(٣). وقول خاتم الرسل فى شأن الاختلاف بين أنواع البشر تاريخياً ونوعياً: (خلقت الملائكة من نور. وخلق الجان من مارج من نار. وخلق آدم مما وصف لكم)(٤) فى القرآن.

(١) الألبانى: السابق - ص ٤٥٢ رقم ٢٢٧٦.

(٢) انظر العكس، محمد عمارة: حول عصيان إبليس وهو من الملائكة - مقالة فى المؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - السابق - ص ٢٧٤-٢٧٦.

(٣) ٢٦-٢٧/ الحجر.

(٤) الألبانى: السابق - ص ٦١٦ رقم ٣٢٣٨.

لكن الجان بشر أَرْضَى على أى الأحوال، ولو أنهم بشر أَرْضَى بطريقة غير مباشرة، أى ليسوا من الأرض مباشرة كالإنس، إنما من الأرض بطريقة غير مباشرة، أى من نار شجر الأرض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ (١).

وهكذا تأخر خلق الإنسان تاريخياً، ليس عن خلق الملائكة فحسب، إنما أيضاً عن خلق الجان، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن عدم وجود الإنسان آنذاك: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (٢).

وفى عصر ما قبل الإنسان، أخبر الله الملائكة بعزمه على جعل خليفة فى الأرض، دون أن يعلموا وقتذاك بعزمه سبحانه على خلق نوع ثالث من البشر، وبالتالي لم ينصرف ذهنهم آنذاك بشأن تلك الخلافة سوى أن مآلها: إما إلى الجان وإما إلى الملائكة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

إذن عصر الجان فى الأرض قبل خلق الإنسان، هو «عصر الجاهلية الأولى» (٣٣/الأحزاب)، أى عصر الإفساد فى الأرض، وسفك الدماء، وتبرج الجنيات لدرجة الإباحية العلنية، أى الإباحية على مرأى المشاهدين مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأنهم: (إنما مثل ذلك شيطانة لقيت شيطاناً فى السكة، ففضى حاجته والناس ينظرون إليه) (٤).

(١) ٨٠/بس.

(٢) ١/ الإنسان، ٣٠/البقرة.

(٤) الألبانى: السابق - ص ١١٨٣ رقم ٧٠٣٧.

ولا يزال لهم عالمهم حتى بعد خلق الإنسان، وبالتالي خصهم القرآن بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هي السورة رقم (٧٢)، أى «سورة الجن»، ولو كانوا طرائق قديماً (١١/الجن).

فمنهم العفاريت (٣٩/النمل) وكذا من عنده علم من الكتاب (٤٠/النمل). والمقرنون فى الأصفاد (٣٨/ص~ ، ٨/يس)، وغير المقرنين (٣٧/ص~). والمحبوسين بين سدين من أمامهم وخلفهم (٩/يس)، وغير المحبوسين. والصالحين ومن دون ذلك (١١/الجن). والمسلمين والقاسطين (١٤/الجن) وهكذا.

الفرع الثانى

ملامح الأرض

١٤٢ - أولاً: الأرض بيضاوية:

بالكاد عرف الإنسان أن الأرض «كروية» شكلاً، وغير جامدة فى مكانها، ولم يعرفهما إلا فى وقت متأخر للغاية أى فى القرن السادس عشر الميلادى على الأكثر. لكن لا يزال الوسط العلمى ينظر إلى هذه المعرفة الضئيلة باعتبارها «ثورة علمية»، على الكتاب المقدس، الذى يخلو من هذه المعرفة، وبالتالي يعتبرها ثورة علمية لصالح التراث العلمانى، ولو أنه بدوره يخلو من هذه المعرفة.

هذا، رغم أن الأرض ليست كروية كما يقال عادة لغاية الآن، أى ليست مثل «كرة اللعب» على الأقل. خاصة أن الأرض لم تُخلق للعب بها، ولا للعب فيها، ولا خُلقت لعباً على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾^(١). ولنفس العلة، فاللعب محظور فى الأرض، حتى لو كان لعباً بالنرد على الأقل، مصداقاً

(١) ٣٨/الدخان.

لقول خاتم الرسل: (من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله)^(١). وقوله: (من لعب النردشير، فكأنما غمس يده في لحم الخنزير ودمه)^(٢). وكل متباريين متنافسين، لا يجاب لهما دعاء ولا يؤكل لهما طعام، حتى لو كانا يتنافسان بوليمتين على أقل الأقل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (المتباريان لا يجابان، ولا يؤكل طعامهما)^(٣).

وعلى أى الأحوال، الأرض من حيث شكلها الجغرافى، «بيضاوية» أى فى شكل بيضة أو «دحية» بالمعنى الدقيق، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن تحديداً: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(٤)، أى جعلها سبحانه فى شكل دحية، وهى البيضة.

ولم يتأخر الإنسان فى معرفة بيضاوية الأرض بعد نزول القرآن، إلا لكون هذا الإنسان قد سعى وراء مسألة شكل الأرض جغرافياً، بمعزل عن القرآن، وكأنه كالكتاب المقدس الذى يخلو من بيان هذه المسألة، بينما القرآن نزل تبيانا لكل شئ بإطلاق (٨٩/النحل)، ولم يُفِطْ فى بيان أى شئ على الإطلاق (٣٨/الأنعام)، ولا حتى مسألة بيان شكل الأرض جغرافياً. وبالتالي فإن معرفة الإنسان هذه المسألة فى القرن السادس عشر الميلادى هو مجرد تحصيل حاصل بالنسبة للقرآن. بل إن تلك المعرفة لم تكن فى حاجة إلى تلكسوب أو تجارب، إنما كانت فى حاجة إلى التعامل مع القرآن علمياً من خلال تأويله بالحق (٣٣/الفرقان)، خاصة أن الله لم يخلق السموات والأرض إلا بالحق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٥).

^(١-٣) الألبانى: السابق - ص ١١١٣ رقم ٢٥٢٩، ص ١١١٣ رقم ٦٥٢٨، ص

١١٣٢ رقم ٦٦٧١.

^(٤-٥) (٣٠/النازعات، ٣/الأحقاف).

١٤٣ - ثانياً: الأرض غير جامدة فى مكانها:

الأرض متحركة، ولو أنها متحركة فى مكانها الذى لن تغادره، بل هى حتى متحركة حركة دورية، ومنظمة، ومزدوجة فى نفس الوقت. أى حركة حول نفسها مرة كل يوم، فيتعاقب الليل والنهار، ثم يتعاقب اليوم والأيام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾^(١). وحركة أخرى حول الشمس مرة كل سنة، فتتعاقب الشهور والفصول والسنون، شهراً بعد شهر وفصلاً بفصل وسنة بعد سنة.

وبذا، فالشمس يتبعها القمر هى «الساعة» بمعناها الاصطلاحى، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهما: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾^(٢). وهذه الساعة هى الأداة الزمنية المسخرة للعد التنازلى تبعاً لعمر السماوات والأرض، والذى ينتهى بـ «مرسى الساعة»، أى آخر يوم من هذا الأجل، وبالتالي هو اليوم الآخر.

فالشمس، لا هى السموات ولا هى الأرض، إنما هى خلق قائم بذاته، أى له استقلاله. يطلع ويغرب بحسب الأحوال، لكنه لا يطلع من السماء ولا يغرب فى السماء، كما لا يطلع من الأرض ولا يغرب فى الأرض على الإطلاق^(٣).

^(١) ٥٤/الأعراف، ١-٤/الشمس.

^(٢) قارن مثلاً، محمد عمارة: حول غروب الشمس فى عين حمئة ومخالفة ذلك للحقائق العلمية - مقالة بالمؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - السابق - ص ٢٩٦-٢٩٨ حيث يقول «العين الحمئة، هى عين الماء ذات الحمأ، أى ذات الطين الأسود المنتن».

بل هي تغرب في عينها ذاتها، أى في عين الشمس، التي هي عين حامية، أى عين حمئة، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾^(١). وقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (هل تدرون أين تغرب هذه؟. تغرب في عين حامية)^(٢). بل للشمس - حتى - «حاجب» مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إذا بدا حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى تبرز. وإذا غاب حاجب الشمس، فأخروا الصلاة حتى تغيب)^(٣).

كما ينتهي بها غروبها يومياً تحت عرش الرحمن، مصداقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟. إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً. فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ. فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً. وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ. فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا. ثُمَّ تَجْرِي لَا يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ، تَحْتَ الْعَرْشِ. فَيُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكَ. فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا. أَتَدْرُونَ مَتَىٰ ذَاكُمْ؟ (...)^(٤)).

وعلى أى الأحوال، تدور الأرض حركتها دورياً وبانتظام، ولا تدورهما إلا وهي حاملة البحار والأنهار والرواسي، أى الجبال التي بدورها تدور ولو بدت للعيان جامدة في مكانها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾^(٥). فيبدو دورانها مع

(١) ٨٦ / الكهف.

(٢) الألباني: السابق - ص ١١٧٧ رقم ٧٠٢٦، ص ١٣٤ رقم ٤١٢، ص ٧٨ رقم ٨٤.

(٥) ٨٨ / النمل.

الأرض إذن، بمثابة سراب على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾^(١). بينما هي تدور مع الأرض يومياً وسنوياً، أى دورياً وبانتظام.

وهذه الجبال بدورها خلق من خلق الله. وله إذن نشأتان تاريخياً، (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت). فهي فى نشأتها الأولى تاريخياً، مجرد كئبان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾^(٢). وهى فى نشأتها الآخرة تاريخياً، أوتاد جذورها ضاربة فى الأرض ويقدر خمس عشرة مرة من طولها على الأرض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾^(٣).

لكن هذه الجبال ليست نوعاً واحداً، إنما هى أنواع متعددة ومتباينة مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾^(٤).

وبدهى أن حركة الأرض تجرى ضد أجلها، الذى يتناقص تباعاً بمرور الزمان، حتى ينتهى هذا الأجل ومن ثم تنتهى تلك الحركة، أى أن حركة الأرض كأجل الأرض، كلاهما أمر مؤقت زمانياً مهما طال عهده.

١٤٤ - ثالثاً: الأرض منقوصة الأطراف :

رغم أن السماء جامدة فى مكانها، أى لا تتحرك على الإطلاق، لكنها ليست منقوصة الأطراف، أى لها أرجل تقف عليها فى مكانها، أو بالأحرى تقف فى مكانها على عمد، ولو لم تكن هذه العمدة مرئية بصرياً مصداقاً لقوله تعالى بشأنها مرة: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾^(٥)، وقوله تعالى بشأنها مرة أخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾^(٦).

(١) ٢٠/النبأ، ١٤/المزمل، ٦-٧/النبأ، ٢٧/فاطر، ١٠/لقمان، ٢/الزمر.

وهذه الأعمدة، لا تكفل فقط رفع السماء فوق الأرض، إنما تكفل أيضاً عدم وقوع السماء على ما تحتها، أى عدم وقوعها على الأرض، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(١).

بينما الأرض منقوصة الأطراف، أى ليس لها ما تقف عليه ولو فى مكانها، رغم أنها متحركة حركة دورية ومنتظمة، ولو كانت متحركة فى مكانها، ومتحركة حركة مزدوجة، إنما ليست لها عمداً تقف عليها، ولو حتى عمداً غير مرئية بصرياً، مصداقاً لقوله تعالى مرة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾^(٢) وقوله تعالى مرة أخرى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾^(٣).

وبهذا فالرواسى الملقاة فى الأرض، أى الجبال، ليست أطرافاً للأرض، ولا من أطرافها على الإطلاق، ولا شأن لها مطلقاً بحركة الأرض، إنما هى موجودة لكيلا تميل الأرض فى مكانها على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾^(٤)، وقوله تعالى فى هذا الشأن مرة أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾^(٥).

وأيضاً، هذه الجبال وإن كانت رواسى مُلقاة فى الأرض، لكنها ليست زوائد زائدة فى الأرض أى زوائد عليها، إنما هى جزء لا يتجزأ منها، أى عضو من الأرض يؤدي وظيفة ضرورية لها، وبالتالي لا يمكن الاستغناء

(١) ٦٥/الحج، ٤١/الرعد، ٤٤/الأنبياء، ١٥/النحل وكذا ١٠/لقمان،

٣١/الأنبياء.

عنه. بل حتى سنرى من بعد أن جبل قاف أو الطور مثلاً قد أدى أدواراً متعددة ومتباينة على امتداد التاريخ الإنساني.

إذن سبحانه لم يخلق الأرض في حاجة إلى أطراف، لكونها تحت السماء وليست فوقها وذلك من ناحية. ولكي تكون بينهما المسافة الكافية واللازمة للجو أى «جو السماء» (٧٩/النحل) وذلك من ناحية أخرى. ولكي تظل هذه المسافة بمثابة «أقطار» بين السموات والأرض (٣٣/الرحمن) وذلك من ناحية ثالثة.

الفرع الثالث

ملكوت الله

١٤٥ - مدى كبر وصغر الأرض :

خلق السموات والأرض «أكبر» من خلق الناس منذ أولهم إلى آخرهم (٣/البلد)، ولو كانت هذه الحقيقة مجهولة لدى أكثرهم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وهؤلاء يجهلون - من باب أولى - حقيقة أخرى، مفادها: أن خلق السموات والأرض ليس أكبر من خلق «كرسى الله»، ولا هما أوسع منه على الإطلاق، إنما العكس هو الصحيح بإطلاق. أى أن هذا الكرسى أكبر من السموات والأرض، وبالتالي يسعهما معاً على السواء، وحفظهما لا يؤود خالقهما مطلقاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾^(٢).

^(١) (٥٧/غافر، ٢٥٥/البقرة،

وهكذا يسع هذا الكرسي الأرضين السبع، كما يسع معهم وفوقهم السموات السبع كسقف يعلوهم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْفًا مَّحْفُوظًا﴾^(١)، لكون السماء مرفوعة على عمد غير مرئية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾^(٢)، وخالقهم وحده متكفل بحفظهم معاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾^(٣).

بل إن هذا الكرسي يسع - حتى - غيرهم معهم وفوقهم، كالجنة بعرضها المقتن قرآنيًا، أى بعرض السماوات والأرض، مصداقاً لقوله تعالى بشأن عرضهما: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾^(٤)، وقوله تعالى فى هذا الشأن مرة أخرى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥).

وهى بهذا «الجنة العالية» مصداقاً لقوله تعالى مرتين: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾^(٦). وقوله تعالى فى شأن تكوينها: ﴿عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٧) وقول خاتم الرسل فى شأنها: (إن فى الجنة مائة درجة أعداها الله للمجاهدين فى سبيل الله. ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض. فإذا سألتم الله، فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)^(٨).

(١) ٣٢/الأنبياء، ٥/الطور، ٤١/فاطر، ١٣٣/آل عمران، ٢١/الحديد، ٢٢/الحاقة وكذا ١٠/الغاشية، ٢٠/الزمر.

(٨) الألبانى: السابق - ص ٤٢٧ رقم ٢١٢٦.

وهكذا حتى عرش الرحمن، الذى كان موجوداً على ماء البحر المسجور فى نشأته الأولى تاريخياً (٧/هود)، صار فوق الفردوس باعتباره أعلى الجنة فى وضعه الأخير، وبالتالي فهو يعلو الجنة التى تعلو السماوات السبع باعتبارها سقفاً للأرضين السبع.

١٤٦ - نوعا الملكوت:

الكرسى الإلهى، كما يسع الجنة على نحو ما بيناه، فإنه يسع أيضاً نار السعير، وبالتالي فإن هذا الكرسى أكبر وأوسع نطاقاً من السماوات والأرض، وأكبر وأوسع بكثير جداً، ولو أنه يسعهما داخله (٢٥٥/البقرة). ويسع غيرهما معهما، وبالتالي يجب التمييز بين نوعين من «الملكوت الإلهى»، وذلك كما يلى:

أولاً: الملكوت الكلى، ويشمل الكرسى الإلهى وكل ما فيه من خلائق الله، الذى خلق كل شئ بإطلاق (١٦/الرعد، ١٠٢/الأنعام)، مصداقاً لقوله تعالى بشأن هذا الملكوت: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١). وقوله تعالى مرة أخرى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾^(٢).

وثانياً: ملكوت جزئى، يشمل السماوات والأرض دون غيرهما مما فى الكرسى الإلهى، مصداقاً لقوله تعالى بشأن هذا الملكوت: ﴿أُولَئِكَ

(١) ٨٣/يس، ٨٨/المؤمنون.

يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ^(١). وقوله تعالى مرة أخرى: **﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(٢).**

إذن هذا الملكوت الأخير، ليس قابلاً للنظر فيه فحسب، إنما هو أيضاً قابل للرؤية بمشيئة الله، وذلك بحسب الأحوال، لكن للتيقن من أن السموات والأرض ملك لخالقهما وهو الله، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣).**

وسبحانه، ليس مالكا لهما دون ما بينهما، إنما العكس هو الصحيح بإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: **﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾^(٤).** وأيضاً، سبحانه ليس مالكا لهما ولما بينهما دون «ما» فيهما، إنما العكس هو الصحيح بإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: **﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٥).**

بل حتى سبحانه ليس مالكا لهما وما بينهما وما فيهما دون «من» فيهما، إنما العكس هو الصحيح مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: **﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٦).** أى يشمل البشر بأنواعه الثلاثة، ملكاً وجناً وإنساً على السواء.

فمن عساه يكون ذلك الذى حظى بهذه «الرؤية» تاريخياً، ما لم يكن هو: «إمام للناس» و «خليل الله» على السواء؟

(١-١) ١٨٥/الأعراف، ٧٥/الأنعام، ١٠٧/البقرة، ١٨/المائدة، ٢٨٤/البقرة،

المطلب الثالث

رؤية

الملكوت الإلهي

١٤٧ - تمهيد :

هذه الرؤية بدورها خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً، أى تتمخض عن رؤيتين للملكوت الإلهي. وكلتاها رؤية إمام للناس وخليل لله على السواء، وبالتالي يجب التمييز بين نشأتهما تاريخياً، وذلك فى الفروع التالية:

الفرع الأول

نشأتا

رؤية الملكوت

١٤٨ - الرؤية الأولى تاريخياً:

هى رؤية إبراهيم للملكوت، ولم تكن رؤية للإيمان، إنما كانت رؤية للتيقن أى بلوغ اليقين، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(١).

فأراه سبحانه أن الله ليس الكوكب ولا القمر ولا الشمس، وبصرف النظر عن تباينها حجماً. لأن الله أكبر منها بكثير جداً، ولأنه سبحانه، وإن كان نور السموات والأرض، لكنه لا يأفل على الإطلاق (٧٦- ٧٨/الأنعام). ولأنه سبحانه هو الخالق لها ولغيرها حتى السموات والأرض، وبالتالي فالأولى وجوب التوجه إليه مباشرة، مصداقاً لقوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

^(١) ٧٥/الأنعام، ٧٩/الأنعام.

كما أراه سبحانه كيف يحيى الموتى (٢٦٠/البقرة). وأيضاً أراه سبحانه الملائكة (٦٩-٧٣/هود، ٥١-٦٠/الحجر، ٣١-٣٢/العنكبوت)، الذين جاءوه كأضياف، ولو انشغل عنهم بإكرامهم، وبالتالي كان «أول» من ضيف الضيوف تاريخياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (كان أول من ضيف الضيف إبراهيم) (١).

لكن إبراهيم لم ير ملكوت الله إلا من الأرض، وبالتالي لم يره من السماء. ومن ثم لم ير السماوات سماء بسماء، ولم ير الجنة، ولا النار، ولو ألقى فى نار الدنيا، التى أمرها الله أن تكون برداً وسلاماً عليه، وبالتالي لم تصبه بأى أذى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٢).

ومنذ نزول القرآن، الذى قص - حتى - على بنى إسرائيل أكثر ما كانوا يختلفون فيه (٧٦/النمل)، لم يعد لأحد أن يجادل فى «إسم» والد إبراهيم على الأقل، وذلك بعد أن قطع القرآن والسنة معاً فى هذه المسألة، وعلى أساس أن اسمه يقيناً هو: «آزر»، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ (٣). وقول خاتم الرسل: (يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة، وعلى وجه أزر قفرة وغبرة...) (٤). لكن هناك من يستعذب الإسرائيليات لغاية الآن (٥).

(١) الألبانى: السابق - ص ٨٢٠ رقم ٤٤٥١.

(٢-٣) ٦٨-٦٩/الأنبياء، ٧٤/الأنعام.

(٤) الألبانى: السابق - ص ١٣٥٥ رقم ٨١٥٨.

(٥) انظر مثلاً، محمد عمارة: حول خلاف القرآن للكتاب المقدس فى بعض الأسماء -

مقالة فى المؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية -

السابق - ص ٢٨٥-٢٨٨.

١٤٩ - الرؤية الآخرة تاريخياً:

هى رؤية خاتم الرسل للملكوت، ورؤيته من السماء، وذلك ليلة الإسراء والمعراج (١/الإسراء، ٥-١٨/النجم)، لكى يرى آيات ربه، مصداقاً لقوله تعالى مرة: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾^(١)، وقوله تعالى مرة أخرى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾^(٢).

لذا حتى ملامح بيت المقدس على الأقل، لم يستوعبها خاتم الرسل آنذاك، مصداقاً لقوله فى هذا الشأن: (لما كذبتنى قريش حين أسرى بى، إلى بيت المقدس، قمت فى الحجر، فجلى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه)^(٣).

وقوله أيضاً: (لقد رأيتنى فى الحجر، وقريش تسألنى عن مسراى، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها. فكربت كرباً ما كربت مثله قط. فرفعه الله لى أنظر إليه. ما يسألونى عن شئ إلا أنبأتهم به...)^(٤).

لكن عرج به من سماء إلى سماء، حتى السماء السابعة، مصداقاً لقوله: (ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل ... ففتح لنا. فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه. ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسننها، فأوحى الله لى ما أوحى....)^(٥).

وحتى الجنة والنار رأهما خاتم الرسل، مصداقاً لقوله: (أتيت بالبراق ... فلم نزائل ظهره أنا وجبريل، حتى أتيت بيت المقدس. ففتحت لى أبواب السماء، ورأيت الجنة والنار)^(٦).

^(٢-١) ١/الإسراء، ١٨/النجم.

^(٦-٣) الألبانى: السابق - ص ٩٢٦ رقم ٥٢١٥، ص ٩١٣ رقم ٥١٣٥، ص ٨٧ رقم ١٢٧، ص ٨٨ رقم ١٢٨.

الفرع الثاني

نشأتا

إمام الناس

١٥٠ - أول إمام للناس تاريخياً :

هو إبراهيم، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(١). وهو بهذا أسوة حسنة لهم، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢).

لكن إبراهيم بهذا إمام للناس في الدنيا فحسب، دون الآخرة، ولو أنه أول من يكسى يومئذ، مصداقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (أول من يكسى من الخلائق إبراهيم)^(٣).

ومن ثم لن يكون بمقدوره الاستشفاع للناس يوم القيامة، مصداقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم؟ أنت نبي الله وخليه من أهل الأرض، إشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات، نفسي نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى...)^(٤).

١٥١ - آخر إمام للناس تاريخياً :

هو خاتم الرسل، وبالتالي هو بدوره أسوة حسنة للناس في الدنيا، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن

^(١) ١٢٤ / البقرة، ٤ / الممتحنة.

^(٢) الألباني: السابق - ص ٥٠٥ رقم ٢٥٨٤، ص ٣٠٧ رقم ١٤٦٦.

كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا^(١). وهو بهذا إمام لهم فى الدنيا، شأنه فى ذلك شأن إبراهيم قبله، لكن خاتم الرسل ليس إمامهم فى الدنيا فحسب دون الآخرة، إنما العكس هو الصحيح.

فهو إمام للناس حتى فى الآخرة، أى إمام الاستشفاع لهم يومئذ، مصداقاً لقوله فى هذا الشأن: (خُيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتى الجنة، فاخترت الشفاعة)^(٢).

وهو وحده إمام الاستشفاع يومئذ، مصداقاً لقوله فى هذا الشأن: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر. ويبدى لواء الحمد ولا فخر. وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه، إلا تحت لوائى. وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر)^(٣). وقوله أيضاً: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع)^(٤).

أما عن طلب الناس منه الاستشفاع لهم، وكيفية استئذانه الله فى ذلك، بعد أن رفض آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى أن يتشفعوا للناس، فإنه يقول:

(... فيأتون فيقولون يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. إشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟. ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنتلق، فأتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربى، ثم يفتح الله عليّ، ويلهمنى من محامده، وحسن الثناء عليه، شيئاً لم يفتحه لأحد قبلى، ثم يقال يا محمد إرفع رأسك، سل تعط، واشفع تُشفع.

(١) ٢١ / الأحزاب.

(٢-٣) الألبانى: السابق - ص ٦٢٩ رقم ٣٣٣٥، ص ٣٠٩ رقم ١٤٧٨، ص ٣٠٩ رقم ١٤٦٧.

فأرفع رأسي، فأقول: يارب أمتي أمتي. فيقال: يا محمد ادخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه، من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. والذي نفسى بيده، إن من بين مصرايع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى^(١).

وهكذا فهو وحده إمام الاستشفاع للناس يوم القيامة، الذي لا شفاعة فيه إلا بإذن الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾^(٣). وهذا الإذن السابق، يلزمه بعدئذ قبول الشفاعة كإذن آخر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤).

بل هو حتى إمام صلاة جماعة الأنبياء، مصداقاً لقوله في هذا الشأن: (وَقَدْ رَأَيْتَنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي ، رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَعَةَ ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يُصَلِّي ، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةَ بِنُ مَسْعُودِ النَّقْفِيِّ ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي ، أَشْبَهَهُ النَّاسُ بِهِ صَاحِبِكُمْ يَعْنِي نَفْسَهُ ، فَحَانتِ الصَّلَاةُ ، فَأَمَمْتُهُمْ ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلَاةِ ، قَالَ لِي قَائِلٌ : يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكُ صَاحِبِ النَّارِ ، فَسَلَّمْ عَلَيْهِ ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ)^(٥).

(١) الألباني: السابق - ص ٣٠٧ رقم ١٤٦٦.

(٢-٤) ١٠٩/طه، ٢٣/سبأ، ٤٤/الزمر.

(٥) الألباني: السابق - ص ٩١٣ رقم ٥١٣٥.

الفرع الثالث نشأتا خليل الله

١٥٢ - أول خليل لله تاريخياً :

هو نفسه أول إمام للناس تاريخياً، أى إبراهيم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١). وإبراهيم بهذا أول خليل لله تاريخياً، أى لم يكن قبله ولا معه أحد كخليل لله، لا من الأنبياء والمرسلين، ولا من غيرهم.

ومع ذلك أحاطت به «الإسرائيليات» من كل جانب، ولغاية الآن، سواء من حيث ديانته (٦٧/آل عمران) أو إسم والده (٧٤/الأنعام)، أو إسم ابنه المفدى بذبح عظيم (١٠٧/الصفوات). أو درجة قرابته بشعيب كأول نبي ورسول بُعث عقب موت إبراهيم ولوط مباشرة (٨٥/الأعراف). أو أولوبته فى نظام الختان للذكور والإناث، أو فى نظام الاقتران بأكثر من زوجة معاً... وغير ذلك مما صححه القرآن - حتى - لبنى إسرائيل (٧٦/النمل).

١٥٣ - آخر خليل لله تاريخياً:

هو نفسه آخر إمام للناس تاريخياً، أى خاتم الرسل، مصداقاً لقوله فى هذا الشأن: (لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أختى وصديقى. وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً)^(٢). أى أن الله قد اتخذته هو نفسه كخليل.

(١) ١٢٥/النساء.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٩٣٧ رقم ٥٢٩٨.

وهكذا فخليل الله فى نشأته الأولى والآخرة تاريخياً، هو بخيار الله وحده، أى بمشيئته سبحانه. وهما على نفس الملامح الشكلية، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم) (١)، أى انظروا إليه هو نفسه شكلاً.

بل هما معا يجتمعان حتى فى «تحيات» كل صلاة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (قولوا اللهم صل على محمد النبي الأمي، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم. وبارك على محمد النبي الأمي، كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين، إنك حميد مجيد. والسلام كما علمتم) (٢).

١٥٤ - نشأتا الأمة التشريعية :

نشأتا إمام الناس و خليل الله، لم تتعاصرا مع بعضهما تاريخياً فحسب، إنما أيضاً تعاصرتا مع نشأتا «الأمة التشريعية»، أى «الهيئة التشريعية»، التى اشتهرت تسميتها فى اللغة القانونية مؤخراً بـ «البرلمان»: فأولاً: الأمة التشريعية (البرلمان) فى نشأتها الأولى تاريخياً، هو إبراهيم نفسه، الذى كان فرداً واحداً لكنه كان أمة تشريعية واختصاراً «أمة»، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (٣).

وهذا هو الأصل التاريخى للبرلمان فى الشريعة، وأصله من حيث تكوينه، الذى يقوم على ثلاثة مبادئ: ١- مبدأ البرلمان الرجالي، دون النسائي، ودون المختلط. ٢- مبدأ البرلمان الاصطفائي مصداقاً لقوله تعالى بشأن إبراهيم: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ (٤). والبرلمان الاصطفائي

(١) الألبانى: السابق - ص ٦٥٣ رقم ٣٤٧١. ص ٨١٣ رقم ٤٤١٤.

(٢) (٣-٤) ١٢٠/النحل، ١٣٠/البقرة.

هو البرلمان الانتقائي عضواً بعضو، دون البرلمان المختار انتخابياً. أى دون المختار كله أو بعضه بطريق الانتخاب. ٣- مبدأ البرلمان التابع لله والقانون الإلهي، دون الدولة، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

وثانياً: الأمة التشريعية (البرلمان) فى نشأتها الآخرة تاريخياً، لا تتكون إلا وفق مبادئ البرلمان الإبراهيمي السالف بيانها، ولا تعمل إلا بعد وفاة خاتم الرسل، ولا تعمل إلا فى إطار ثلاثة مبادئ هى: الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

فالقانون بمعناه التأويلي فى الشريعة ثلاث طبقات، أعلاها الشريعة (القرآن)، وأوسطها لائحته التنفيذية (أى السنة)، وأدناها لائحتهما الفرعية (أى القانون الوضعي) (٥٩/النساء). باعتبارها عمل أولى الأمر القانوني.

المطلب الرابع

النفاز

من أقطار المكوت

١٥٥ - تمهيد:

النفاز فعلاً من هذه الأقطار أحدث وجوداً من استنهاض الهمة لتحقيق هذا النفاز، وكلاهما (أى الاستنهاض والنفاز) خلق من خلق الله، وخلق قائم بذاته، أى له استقلاله، وبالتالي تتوزع محتويات المطلب الراهن على الفروع التالية:

^(١) (١٢٠/النحل، ١٠٤/آل عمران).

الفرع الأول استنهاض الهمة للنفاذ

١٥٦ - نوعا النفاذ:

هو الانتقال بغير الطريقتين البرى والبحرى، بين أقطار السموات والأرض، انتقالاً بدنياً أو غير بدنى، أفقياً أو أفقياً ورأسياً، وبالتالي يجب التمييز بين نوعيه:

أولاً: الانتقال أفقياً ورأسياً بين أقطار السموات والأرض، انتقالاً بدنياً، وذلك هو «المعراج» الذى خصه القرآن بسورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٧٠)، أى «سورة المعارج» ومفردها المعراج.

وهذا النفاذ حكر على البشر السماوى وحده (الملائكة)، دون البشر الأرضى بنوعيه جنأ وإنساً، إلا كاستثناء، ولم يتحقق هذا الاستثناء إلا لخاتم الرسل وحده، وذلك ليلة الإسراء والمعراج، وبالتالي خص القرآن هذا الإسراء بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (١٧)، أى «سورة الإسراء».

وهو بهذا ليس عصياً على الإنس فحسب، إنما عصى على الجن بأنواعه، أى عصى حتى على من كانت له منهم أجنحة يطير بها، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأن أنواعه: (الجن ثلاثة أصناف: فصنف لهم أجنحة يطرون بها فى الهواء. وصنف ... وصنف ...) (١).

وثانياً: الانتقال أفقياً بين أقطار السموات والأرض، انتقالاً بدنياً أو غير بدنى، وذلك ليس عصياً على البشر الأرضى جنأ وإنساً، ولولم

(١) الألبانى: السابق - ص ٥٩٧ رقم ٣١١٤.

يخطر على بالهم، فلا هو خطر على بال جن ولا هو خطر على بال إنس، حتى استنهض الله همة البشر الأرضى لتحقيق هذا النفاذ الأفقى.

١٥٧- الحاجة إلى استنهاض الهمة:

الجن والإنس، كلاهما كان فى حاجة إلى استنهاض الهمة للنفاذ الأفقى من أقطار الملكوت، ولو أن حاجة الإنس كانت أكبر نسبياً من حاجة الجن إلى هذا الاستنهاض، وذلك لثلاثة أسباب على الأقل، هى ما يلى:

فأولاً: الإنس هو الخليفة فى الأرض (٣٠/البقرة)، وليس الجن، وبالتالي فإن الإنس ليس خليفة على نفسه فحسب إنما خليفة على نفسه وعلى الجن على السواء، وبالتالي هو المسئول أولاً عن إعمار الأرض. وذلك لكونه خيراً ألف مرة للأرض من الجن، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(ليس شئ خيراً من ألف مثله إلا الإنسان)**(^١).

وثانياً: الإنس بدون أجنحة على الإطلاق، وبالتالي عليه أن ينشغل بتعويض هذا النقص الخلقى الشكلى فيه، حتى لو كان نقصاً خلقياً عن ثلث الجن على الأقل. وذلك بدلاً من انشغال الإنس بالجدل حول الذات الإلهية أو حول آيات الله، حتى لو كان هذا الإنس هو أكثر الخلائق جدلاً بإطلاق مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾**(^٢).

وثالثاً: حتى الجن ذوى الأجنحة، وإن كانت لهم أجنحة يطيرون بها وشأنهم فى ذلك شأن الملائكة، لكنهم مشغولون بالتنصت أو التجسس

(^١) الألبانى: السابق - ص ٩٥١ رقم ٥٣٩٤.

(^٢) ٥٤/الكهف.

على السماء (٨-٩/الجن)، بدلاً من الانشغال بالإنفاذ الأفقى بين أقطار السموات والأرض.

١٥٨- نشأتا استنهاض الهمة للإنفاذ:

هذا الاستنهاض للهمة هو بدوره خلق من خلق الله. وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب علمياً التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك على النحو التالى:

فأولاً: كان أول استنهاض همة للإنفاذ أفقياً من أقطار ملكوت الله، فى ثلاثينيات القرن الأول الميلادى، أى فى عصر المسيح عيسى، وحال حياته. ولو أنه لم يكن أكثر من استنهاض للإنفاذ بدنياً، ولم يكن استنهاض للهمة الجن والإنس، إنما كان استنهاضاً للهمة الإنسان وحده، بل لم يكن - حتى - استنهاضاً للهمة الإنسان عامة، إنما كان استنهاضاً للهمة بنى إسرائيل هوداً ونصارى على الأكثر.

وهكذا كان استنهاض الهمة آنذاك، استنهاضاً للهمة الإنفاذ أفقياً وبدنياً من ملكوت الله، مصداقاً لقوله تعالى إلى عيسى: ﴿وَأذِ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَدْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَدْنِي﴾^(١).

ثم قوله تعالى على لسان عيسى إلى بنى إسرائيل: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢).

وثانياً: كان آخر استنهاض همة للإنفاذ أفقياً من أقطار ملكوت الله، فى مطلع القرن السابع الميلادى، أى فى عصر خاتم الرسل، وحال حياته. ولم يكن استنهاضاً للهمة الإنسان وحده دون الجن، إنما هو استنهاض للهمة الجن والإنس على السواء.

(١) ١١٠/المائدة، ٤٩/آل عمران.

كما لم يكن استنهاضاً لهمة النفاذ بدنياً فحسب، إنما استنهاض همة للنفاذ بدنياً أو غير بدنى من أقطار ملكوت الله، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَبَطَعْتُمْ أَنْ تَتَفَدُّوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُدُوا لَا تَتَفَدُّونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾^(١).

الفرع الثانى

نوعاً

النفاذ من الملكوت

١٥٩ - نوعان حصرياً:

إذن النفاذ أفضياً من أقطار السموات والأرض، إما نفاذ بدنى وإما نفاذ غير بدنى، ولو أن كلاهما بإذن الله (١١٠/المائدة) أو بسلطان من الله (٣٣/الرحمن)، أى كلاهما خلق من خلق الله، وكل منهما خلق قائم بذاته، أى له استقلاله عن الآخر.

١٦٠ - النفاذ بدنياً:

هذا النفاذ بإذن من الله (٤٩/آل عمران)، أى هو خلق من خلقه سبحانه، . وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب علمياً التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك على النحو التالى:

فأولاً: فى نشأته الأولى تاريخياً، كان النفاذ أفضياً وبدنياً من أقطار السموات والأرض، هو النفاذ طيراناً وذلك من خلال «المنطاد» قبل معرفة الطائرة بعدئذ.

(١) ٣٣/الرحمن.

وثانياً: فى نشأته الآخرة تاريخياً، صار النفاذ أفقياً وبدنياً من أقطار السموات والأرض، هو النفاذ طيراناً من خلال «الطائرة» على اختلاف أشكالها وأنواعها وأدوارها حالياً.

وبهذا، فلا ظاهرة المناطيد ولا ظاهرة الطائرات تعتبر «ثورة علمية» على القرآن، ولا حتى «ثورة» بالنسبة إليه على الأقل. فهى على الأكثر، مجرد تحصيل حاصل بالنسبة له على أى الأحوال، وفى كل الأحوال، أى حتى لو كانت هذه الظاهرة أو تلك كخلق من خلق الله، لا تزال من «المجاهيل» فى أدمغة المخاطبين بهذا القرآن لغاية الآن.

١٦١ - النفاذ غير البدنى:

وهو بدوره نفاذ بسلطان من الله (٣٣/الرحمن)، أى هو خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز علمياً بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك على النحو التالى:

أولاً: فى نشأته الأولى تاريخياً، كان النفاذ أفقياً وغير بدنى من أقطار السموات والأرض، هو النفاذ بطريق الاتصالات التقليدية، أى السلكية واللاسلكية، بأنواعها كالتليفون والتلغراف والتلكس والفاكس... إلخ.

ثانياً: فى نشأته الآخرة تاريخياً صار النفاذ أفقياً وغير بدنى من أقطار السموات والأرض، هو النفاذ بطريق الشبكة الإلكترونية العنكبوتية، التى لم يتجاوز عمرها عدد أصابع اليد من العقود، أى لم تظهر إلا فى وقت متأخر للغاية.

وبهذا، فلا ظاهرة الاتصالات التقليدية ولا ظاهرة الاتصالات الإلكترونية تعتبر «ثورة علمية» على القرآن، ولا حتى «ثورة» بالنسبة إليه على الأقل. فهى على الأكثر، مجرد تحصيل حاصل بالنسبة له على أى

الأحوال، وفي كل الأحوال، أى حتى لو كانت ماهية هذه الظاهرة أو تلك كخلق من خلق الله، لا تزال من «المجاهيل» فى أدمغة المخاطبين بهذا القرآن لغاية الآن.

١٦٢- دور الجن فى ظواهر النفاذ :

ظواهر النفاذ أفقياً وبدنياً أو غير بدنى، لم تتحقق واقعياً إلا بعد عصر الإنجيل، وحتى بعد نزول القرآن، وبعده بأكثر من ألف ومائتى سنة، أى فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى، وهى بهذا لم تظهر تاريخياً إلا فى وقت متأخر للغاية، أى منذ قرن ونصف على الأكثر.

أى بعد قرون طوال من نزول سورة الرحمن، التى لم تستهض همة الإنس للنفاذ من أقطار السماوات والأرض، دون همة الجن (٣٣/الرحمن)، الذين كان مردودهم أحسن من نظيره للإنس حال سماعهم سورة الرحمن، وسماعها بترتيل خاتم الرسل حال حياته، مصداقاً لقوله فى هذا الشأن: (لقد قرأتها - يعنى سورة الرحمن - على الجن ليلة الجن. فكانوا أحسن مردوداً منكم. كنت كلما أتيت على قوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان)، قالوا: ولا بشئ من نعمتك ربنا نكذب، فلك الحمد)(١).

فلا يجب بعدئذ أن نغفل عن دور الجن فى تحقيق «ظواهر» النفاذ أفقياً من أقطار السماوات والأرض، خاصة أن هذا الدور الحضارى من جانبهم ليس دورهم الأول تاريخياً، إنما هو دورهم الأخير تاريخياً.

أما دورهم الحضارى الأول تاريخياً، فكان فى القرن العاشر قبل الميلاد، أى فى عصر سليمان، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَمِنَ

(١) الألبانى: السابق - ص ٩١٤ رقم ٥١٣٨.

الْجِنُّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ .. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ
وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴿١﴾. وقوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ..
وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ (٢).

وبدهى أن الجن كالإنس، والإنس كالجن، أى كلاهما لا يعلم شيئاً عن
الغيب (١٤/سبأ)، وكلاهما مخاطب بالقرآن والسنة، حتى لو كان الإنس
غريبين، أو كان الجن قاسطين (١٤/الجن).

الفرع الثالث

طبيعة

النفاذ من الملكوت

١٦٣- دور النفاذ عالمياً :

النفاذ أفقياً من أقطار السموات والأرض، وبصرف النظر عن كونه
نفاذاً بدنياً أو بغير البدن، هو تحصيل حاصل بالنسبة للقرآن. فلا هو
تجاوز القرآن، ولا هو غريب عنه، ولا هو جديد عليه، ولا هو إذن ثورة
عليه، إنما العكس هو الصحيح بإطلاق.

فالأصل أن هذا النفاذ الأفقى هو «ثورة بالقرآن»، «وثورة للقرآن»،
على السواء، وذلك بصرف النظر عن أمرين هما ما يلى: ١- كون هذه
الظاهرة هى ظاهرة مناظيد وطائرات، واتصالات تقليدية، واتصالات
الكثرونية، فيكفى كونها ظاهرة واحدة على أى الأحوال.

٢- كون هذه الظاهرة قد نشأت فى الغرب قبل الشرق، فيكفى كونها
ظاهرة عالمية على أى الأحوال. أما تأخر ظهورها فى الشرق عنه فى
الغرب، فإنه نتيجة اعتياد هذا الشرق على قراءة القرآن شكلياً، دون فهمه
موضوعياً، أى دون فهم موضوعه تأويلياً، وتأويلياً بالحق
(٣٣/الفرقان).

(٢-١) (١٢-١٣/سبأ، ٣٦-٣٧/ص~).

١٦٤ - غاية النفاذ :

هذا النفاذ باعتباره خلقاً من خلق الله، فإنه يثير التساؤل الذى تطرحه الجن على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾^(١).

لكن هذا النفاذ شر أم رشد نسبة إلى استذكار القرآن، أم نقيضه بحسب الأحوال، وعملاً بقاعدة: الشئ بالشئ يُعرف، حتى لو كان نقيضه على الأقل، أى الشئ يُعرف حتى بنقيضه. ونقيض هذا الاستذكار هو «هجر القرآن»، وذلك أمر متوقع سلفاً، ومُقنن قرآناً، مصداقاً لقوله تعالى على لسان الرسول: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(٢).

ومأل هذا الهجر خاصة لا يقل عن «استكلاب» يصيب الهاجرين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾^(٣).

ولا نظير لهذا الاستكلاب تاريخياً سوى «الاستحمار»، الذى أصاب هاجرى التوراة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾^(٤).

(١-٤) ١٠/الجن، ٣٠/الفرقان، ١٧٥-١٧٦/الأعراف، ٥/الجمعة.

وكلاهما (الكلب والحمار) مثال على ما يمكنه رؤية الشيطان رؤى العين، ويتهلل لرؤياه فرحاً وطرباً، ويُرحب بقدمه نهيقاً أو نباحاً بحسب الأحوال، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنهما: (إذا سمعتم نباح الكلاب، ونهيق الحمير بالليل، فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنهم يرين ما لا ترون)(^١).

١٦٥ - ماذا أراد الله بهذا النفاذ؟

إن الله، لا يريد بمن في الأرض رشداً بخلقه لهم النفاذ من الأقطار، إلا إذا استخدموا هذا النفاذ في استنكار القرآن، و لم يستخدموه مطلقاً في هجر القرآن. أو بالأحرى إذا استخدموا هذا النفاذ في «إحياء» استنكار القرآن، وبالتالي إحياء مقومات خير أمة أخرجت للناس.

أى إحياء «القسط» الذى تقوم عليه شئون الكون كافة (١٨/آل عمران)، أى إحياء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (والذى نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم)(^٢).

وكذا إحياء التعارف بين الشعوب أكثر مما كان بين القبائل من قبل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(^٣). وإحياء تعاونها

(^١) الألبانى: السابق - ص ١٦٨ رقم ٦٢٠، ص ١١٨٩ رقم ٧٠٧٠.

(^٢) ١٣/الحجرات.

على البر والتقوى دون الإثم والعدوان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى
الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١).

وإحياء اعتصامها بالقرآن وعدم التفرق حوله، مصداقاً لقوله تعالى:
﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢). وإحياء غاية القرآن، التي
هى إخراج الناس من الظلمات، وإخراجهم إلى النور، أى إخراجهم إلى
الصراط المستقيم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ
النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^(٣).

فالناس فى حاجة ماسة حالياً إلى هذا الإحياء، بعد أن نسوا حتى أن
الشيطان هو العدو المبين للإنسان (٥٣/الإسراء).

^(١) ٢/المائدة، ١٠٣/آل عمران، ١/إبراهيم.

المبحث الخامس
جغرافية
معالم الأرض

مقدمة المبحث

١٦٦ - الأراضين المباركة:

وهو خلق قائم بذاته، ولاحق تاريخياً على خلق الأرض في يومين. فبعد أن خلق الله الأرض، خلق الأراضين المباركة في اليومين التاليين مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَبَارِكْ فِيهَا﴾^(١). وهذه الأراضين واردة عدداً وحصرًا، وتضم مركز الأرض (أى عاصمتها) وأعلاها وأدناها.

فمنها الأعلى والأدنى نسبة إلى السطح المستوى للسماء الدنيا، بعد أن رفعها الله وفقاً للميزان الذى وضعه سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾^(٢). ثم وضع سبحانه الأرض بعدئذ نسبة إلى سطح هذا السماء بعداً وقرباً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾^(٣). فأدناها أبعد عن السماء، من أعلاها الذى هو أقرب للسماء، حتى من مركزها أى عاصمتها.

ومن ثم تتوزع محتويات المبحث الراهن على ما يلى:

المطلب الأول: عاصمة الأرض.

المطلب الثانى: أعلى الأرض.

المطلب الثالث: أدنى الأرض.

المطلب الرابع: تاريخ الأحقاف.

المطلب الأول

عاصمة الأرض

١٦٧ - تمهيد:

عاصمة الأرض هى «موطن» آدم الأول وزوجه، وأقدم بلد حرام، وأصل القرى تاريخياً، ولغتها منذ آدم لغاية الآن وإلى ما لا نهاية هى: العربية، وذلك على التفصيل التالى:

(٣-١) ١٠/فصلت، ٧/الرحمن، ١٠/الرحمن.

الفرع الأول

موطن

آدم الأول

١٦٨- أول سكن الإنس تاريخياً:

الملائكة والجن أسبق في الوجود تاريخياً من الإنس، الذى هو إذن أحدث وجوداً منهما، وآخر البشر وجوداً من الوجهة التاريخية. بل هو حتى آخر الخلق عامة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (خلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة. وفى آخر الخلق. فى آخر ساعة من ساعات الجمعة. فيما بين العصر والليل)(^١).

وكان أول سكن الإنس تاريخياً، هو سكن آدم وزوجه فى الجنة، بأمر من الله (٣٥/البقرة، ١٩/الأعراف)، لكن هذه الجنة لم تكن سكناً دائماً لآدم وزوجه، إنما كانت مجرد سكن مؤقت، أى مجرد مكان إقامتهما، أو بالأحرى مجرد مكان ضيافة على الأكثر، وبالتالي لم تلبث هذه الإقامة أو الضيافة أن انتهت زمنياً، وعندئذ أهبطاً إلى الأرض بأمر من الله (٣٦/البقرة، ٢٤/الأعراف، ١٢٣/طه).

ومن الرعونة البالغة للغاية للعاية بعدئذ، تصور أن هذه الجنة موجودة فى الأرض، بينما هى مُعرفة بـ «أل» حيثما وردت (٣٥/البقرة، ١٩/الأعراف، ١١٧/طه)، أى هى الجنة الموجودة فى السماء قولاً واحداً.

وقد أهبطاً إلى الأرض باعتبارها السكن الدائم للإنس، أى مستقره، ولو لم تكن مستقراً للإنس إلا طوال أجلها على الأكثر، أى مستقراً للإنس إلى حين (٣٦/البقرة، ٢٤/الأعراف) على أى الأحوال. أو بالأحرى هى مستقره حتى تزول هذه الأرض فى آخر الزمان.

(^١) الألبانى: السابق - ص ٦١٥ رقم ٣٢٣٥.

١٦٩ - أول سكن الإنس في الأرض:

هذا المكان، ليس مكاناً في الأرض قديماً فحسب، إنما هو أيضاً المكان الذى سكنه أول وأقدم إنسان تاريخياً، أى هو المكان الذى سكنه آدم وزوجه عقب إهباطهما مباشرة إلى الأرض، وبالتالي فهذا المكان هو أول وأقدم مكان سكنه الإنس في الأرض.

فقبل ذلك تاريخياً، لم يكن فى الأرض أى إنس على الإطلاق، ولو لم تكن الأرض خالية من البشر الأرضى الآخر، أى كان هناك الجن الذين هم أسبق فى الوجود تاريخياً من الإنس، وأسبق منه فى سكنى الأرض، وذلك هو عصر الجن فى الأرض، الذى هو عصر «الجاهلية الأولى» (٣٣/الأحزاب). وهو عصر الفساد فى الأرض وسفك الدماء (٣٠/البقرة) وتبرج الجنيات (٣٣/الأحزاب)، وتعري الجن رجالاً ونساءً، ومن ثم الإباحية العلنية.

وإجمالاً، كان عصر الجاهلية الأولى هو عصر انتفاء الحياء بإطلاق، وبالتالي كان كلام النبوة الأولى بعد ذلك حول ضرورة الحياء للإنس، وللإنس رجالاً ونساءً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (آخر ما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت) (١). وذلك على اعتبار أن الحياء والإيمان قرناً معاً ودائماً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (الحياء والإيمان قرناً جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر) (٢).

١٧٠ - سكن آدم فى عاصمة الأرض :

أول سكن آدم وزوجه فى الأرض، لم يكن هو المكان الذى قبضت منه قبضة التراب التى خلق الله منها آدم. لأن آدم لم يُخلق فى المكان الذى قبضت منه قبضة التراب، ولم يُخلق من التراب وحده دون الماء،

(٢-١) الألبانى: السابق - ص ٦٣ رقم ٢، ص ٦٠٩ رقم ٣٢٠٠.

إنما خلق من الطين، ولم يتوطن في الأرض فور خلقه، ولم يتوطن في الأرض إلا بعد أن أهبط إليها هو وزوجه.

بل إن هذا السكن، لم يكن - حتى - مكان سكن آدم وزوجه بصفة مؤقتة، إنما هو موطنه على وجه الدوام، أي طوال عمره كاملاً على الأقل، ولو طال عمره ألف سنة إلا أربعة عقود نزل عنها لابنه داود. وهو بهذا أول موطن له في الأرض، وفي أول بلد تاريخياً وأقدم بلد بإطلاق، والتي هي إذن بمثابة الأصل التاريخي للمدن، أو بالأحرى هي: «أم القرى» (٩٢/الأنعام، ٧/الشورى).

علماً بأن آدم الأول لم يتوطن في أم القرى وقتذاك، إلا بصفته أول خليفة في الأرض بإطلاق (٣٠/البقرة)، وبالتالي فهو لم يتوطن فيها إلا بصفتها عاصمة الأرض آنذاك. وهو بهذا صار خليفة الأرض بإطلاق، ويتوطن عاصمتها بإطلاق.

ومن الرعونة البالغة للغاية بعدئذ، تصور أن الخلافة في الأرض وقتئذ كانت «مشتركة» بين الإنس والبشر الأرضي الآخر (٥٠/الكهف)، أو كانت «أسرية» أي لآدم وزوجه مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح أن يسجد بشر لبشر، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها. والذي نفسى بيده، لو أن من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقريح والصدديد، ثم أقبلت تلحسه، ما أدت حقه) (١).

١٧١ - أم القرى :

هذه العاصمة في نشأتها الأولى تاريخياً، هي «بكة» بلغة آدم العربية «غير المبينة» (٣١/البقرة). وبصفتها عاصمة الأرض آنذاك، فقد

(١) الألباني: السابق - ص ١٢٧٧ رقم ٧٧٢٥.

حظت بأول بيت حجري وضع للناس وقتذاك (٩٦/آل عمران)، أى حال حياة آدم، وبالتالي فإن هذا البيت هو «البيت العتيق» (٢٩/الحج، ٣٣/الحج)، أى أول وأقدم البيوت الحجرية فى الأرض بإطلاق، فلم يكن قبله ولا معه أى بيت حجري آخر، ولا آدم هو الذى بناه.

وهذه العاصمة فى نشأتها الآخرة تاريخياً، هى «مكة» بلغة إسماعيل العربية المبينة (٢٤/الفتح). وقد حظت آنذاك بإعادة بناء جدران البيت العتيق على يد إبراهيم وإسماعيل، وأصبح بيتاً لله، ومن ثم حظى بتطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود، توطئة لى يؤذن إبراهيم فى الناس بالحج إليه وبالصلاة فيه لأول مرة تاريخياً.

وهكذا فأم القرى على امتداد آلاف السنين، لا تغيرت صفتها كعاصمة للأرض بإطلاق، ولا تغيرت لغتها عن اللغة العربية، ولو شهدت هذه اللغة نشأتين تاريخياً، وذلك لكونها خلقاً من خلق الله.

الفرع الثانى البلد الحرام

١٧٢- أم القرى أقدم بلد حرام :

بكة ثم مكة باعتبارها عاصمة الأرض، فهى البلد الحرام، مصداقاً لقوله تعالى على لسان خاتم الرسل: «إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ»^(١).

وهى بلد حرام من قبل خلق آدم، بل هى - حتى - بلد حرام منذ خلق السموات والأرض وإلى ما لا نهاية، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض. فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة...)^(٢).

(١) ٩١/النحل.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٣٦١ رقم ١٧٥١.

ومنذ حرم الله بكة أو مكة، لم يحلها لأحد قط إلا خاتم الرسل، ولم يحلها له إلا كاستثناء، وبالتالي لم يحلها له إلا بصفة مؤقتة ولمدة ضيقة زمانياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسول الله والمؤمنين. ألا فإنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي. ألا وإنها حلت لي ساعة من نهار. ألا وإنها من ساعتى هذه حرام. لا يختلى شوكها، ولا يُعضد شجرها، ولا يلتقط ساقطتها إلا لمنشد....)(^١). وبهذا الاستثناء جاء نصر الله والفتح (١-٣/النصر).

على أن بكة ثم مكة هي البلد الحرام فى نشأته الأولى تاريخياً. وبالتالي فهى أقدم بلد حرام تاريخياً، ولو أنها ليست البلد الحرام وحدها، إنما هناك بلد حرام آخر.

فالبلد الحرام فى نشأته الآخرة تاريخياً، هى «طابة» أو «يثرب المدينة» واختصاراً «المدينة» مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (إن الله تعالى سمي المدينة طابة)(^٢)، وقوله أيضاً: (إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لها. وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها فى مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة)(^٣). وقد ترتب على ذلك ما يلى:

فأولاً: هجرة الرسول من مكة إلى المدينة، هى هجرة من بلد حرام إلى بلد حرام، ولو أن الرسول لم يخف أمر ارتباطه شخصياً بمكة، مصداقاً لقوله بشأنها: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلىّ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت)(^٤).

وثانياً: القرآن لم ينزل إلا فى بلد حرام، حتى لو نزل جزء منه فى مكة طوال ثلاثة عشر عاماً، ونزل جزء منه فى المدينة طوال عشر سنين، أى أن نزوله «خلق» له نشأتان تاريخياً.

(^١) الألبانى: السابق - ص ٣٦٠ رقم ١٧٤٥، ص ٣٦٥ رقم ١٧٧٥، ص ٣١٨ رقم ١٥٢٣، ص ١١٩٢ رقم ٧٠٨٩.

وثالثاً: سيكون البلد الحرام عصياً على المسيح الدجال فى آخر الزمان، سواء البلد الحرام فى نشأته الأولى تاريخياً أى مكة، أو البلد الحرام فى نشأته الآخرة تاريخياً أى المدينة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (بجئ الدجال، فىطأ الأرض إلا مكة والمدينة، فىأتى المدينة فىجد بكل نقب من أنقابها صفوفاً من الملائكة) (١).

والدجال هو «الشيطان» فى نشأته الآخرة تاريخياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة، أمر، أكبر من الدجال) (٢). وقوله: (ما بعث الله من نبى إلا أنذر أمته الدجال. أنذره نوح والنبىون من بعده، وأنه يخرج فىكم. فما خفى عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس بأعور. وأنه أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية) (٣).

١٧٣ - لغة أم القرى:

لم يتعاقب على عاصمة الأرض منذ عصر آدم لغاية عصر إسماعيل وحتى الآن، إلا لغة عربية تلو لغة عربية، وكلتاها تقوم على نفس الحروف الأبجدية العربية، أى على ثمانية وعشرين حرفاً عربياً، وبالتالي فهما خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً، ويجب التمييز بين نشأته، وذلك كما يلى:

فأولاً: هذه اللغة فى نشأتها الأولى تاريخياً، هى لغة آدم الأول، الذى هو أول من تلقاها مباشرة من ربه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (٤). وهى بهذا أول لغة إنسان عربية، ولو كانت «العربية غير المبينة».

(٣-١) الألبانى: السابق ص ١٣٣٢ رقم ٨٠٢٨، ص ٩٧٨ رقم ٥٥٨٨، ص ٩٧٧

رقم ٥٥٧٧.

(٤) ٣١/ البقرة.

لكن هذه اللغة ذاتها لم تلبث أن أصبحت «العربية الجامعة»، أى لغة الإنس ولغة الملائكة على السواء، وذلك بعد أن امتحن الله الملائكة فيها ولم يعرفوا شيئاً عنها، فكلّف آدم أن يعلمهم إياها، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^(١).

وثانياً: هذه اللغة فى نشأتها الآخرة تاريخياً، هى لغة إسماعيل، الذى هو أول من تلقى العربية المبينة من ربه مباشرة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (أول من فتق لسانه بالعربية المبينة، إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة)^(٢). وهى بهذا العربية الخاتمة، أى العربية التى بها استنفدت اللغة العربية نشأتها تاريخياً.

وكلتاها لغة إنسان عربية، وتقوم على حروف عربية ضعف تلك التى قامت عليها لغة الصاد العربية، أى لغة الملائكة، التى كانت موجودة قبل خلق آدم الأول، وقبل أن تستوفى اللغة الملائكية نشأتها تاريخياً. ولم تأت «الهمزة» إلا مع لغة إسماعيل.

لكن مؤلفات «النحو اللغوى» منذ على بن أبى طالب يتبعه أبو الأسود الدؤلى، لا تزال تلك المؤلفات ترمح خلف مفهومها للغة، وبالتالى تتجاهل تماماً مفهوم اللغة تأويلياً بالحق (٣٣/الفرقان)، حيث اللغة كلها أسماء وأسماء فحسب والأسماء كلها (٣١/البقرة). فلا فيها إذن «أفعال» التى هى بطبعها ليست كلاماً على الإطلاق، ولا فيها حتى «حروف» التى هى بطبعها أجزاء فى كلام على الأكثر.

(١) ٣١-٣٣/البقرة.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٥٠٤ رقم ٢٥٨١.

الفرع الثالث البلد الطيب

١٧٤- الحول بأم القرى :

أم القرى، وإن كانت عاصمة الأرض كافة، وبالتالي عاصمة عواصم الأرض، لكنها قرية من قرى الأرض على أى الأحوال، أى مجرد بلد من بلاد الدنيا.

لكن هذا البلد لم يكن بلد إبراهيم، الذى لم يكن يحل بهذا البلد إلا بصفة مؤقتة، وبالتالي كانت أم القرى مجرد بلد بالنسبة له، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾^(١). وقوله تعالى على لسانه مرة أخرى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا...﴾^(٢).

بل إن أم القرى لم تكن - حتى - «بلدًا» قبل مجئ إبراهيم وإسماعيل إليها أول مرة تاريخياً، إنما كانت مجرد «واد» غير ذى زرع عند البيت العتيق (٣٧/إبراهيم)، أى مجرد أرض ميتاً، حتى أحيها الله بعدئذ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾^(٤). وقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾^(٥).

أما خاتم الرسل، فكان يحل بهذا البلد بصفة دائمة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(٦). وبذا فإن أم القرى

(١-٦) ١٢٦/البقرة، ٣٥/إبراهيم، ١١/الزخرف، ١١/ق، ٥٨/الأعراف، ١-٢/البلد.

هى قرية خاتم الرسل، ولو أخرجته بعدئذ مهاجراً إلى المدينة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَايِن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتُكَ﴾^(١). وقول خاتم الرسل: (ما أطيبك من بلد وأحبك إلى. ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك)^(٢).

ومن ثم، كان عليه أن يُنذر أهلها أولاً، أى ينذر عشيرته عامة، والأقربين منهم خاصة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٣). أى كان عليه أن يُنذر قريشاً، لكى يعبدوا رب هذا البيت الحرام، والذي ألف بينهم فى قبيلة واحدة لم تلبث أن ألفت بدورها رحلة الشتاء والصيف، والذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (١-٤/قريش)، وذلك بناء على دعاء إبراهيم قديماً. وقد خص القرآن هذه القبيلة بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (١٠٦)، أى «سورة قريش».

١٧٥ - النبى المكى :

أم القرى هى بكة ومكة، التى شهدت نشأتى النبى المكى تاريخياً، فهو خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات) ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت): وذلك كما يلى:

(١) ١٣/محمد..

(٢) الألبانى: السابق - ص ٩٧١ رقم ٥٥٣٦.

(٣) ٢١٤/الشعراء.

فأولاً: النبي المكي في نشأته الأولى تاريخياً، هو: إسماعيل، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (١).

وقد جاء مكة طفلاً رضيعاً محمولاً على صدر أمه هاجر المصرية، وصحبة والده إبراهيم، الذي لم يلبث أن تركهما في واد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام، وعاد من حيث أتى داعياً الله أن يرزقهم وأن يؤانسهم في وحدتهم في هذا الواد بأناس (٣٧/إبراهيم). ولما نفذت الماء منهما، سعت أمه أشواطاً بين الصفا والمروة، بحثاً عنها، ولكن لم تجد إلا ما تفجر منها تحت أقدام الرضيع، أي ماء عين زمزم، التي فجرها أيوب من قبل لأول مرة تاريخياً (٤٢/ص~).

وإسماعيل الإبن البكر لإبراهيم وهاجر، لم يكن حليماً (١٠١/الصافات) كأبيه إبراهيم (٧٥/هود) فحسب، إنما كان أيضاً بمثابة تعويض لأبيه عن فجيعة في أبيه آزر، وبالتالي كان إسماعيل طوعاً لأبيه حتى في تنفيذ رؤياه عن ضرورة ذبحه، وقد شرعا بالفعل في تنفيذها لولا أن الله فداه بذبح عظيم (١٠٢-١٠٨/الصافات).

وقد عاون إسماعيل والده، ليس فقط في بناء جدران البيت العتيق على قواعد إدريس، إنما أيضاً في تطهير هذا البيت للطائفين والقائمين والركع السجود. وقد ظل إسماعيل بمكة حتى توفى بها.

١٧٦- وثانياً: النبي المكي في نشأته الآخرة تاريخياً، هو: خاتم الرسل، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ

(١) ٥٤/مريم.

وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ^(١). بل حتى لم يكن لوالديه ولداً سواه،
أى كان وحيداً والديه.

وقد ولد بمكة يتيم الأب، الذى لم تلبث الأم أن لحقت به،
وبالتالى أصبح يتيم الأب والأم على السواء، فاصطنعه الله لنفسه وعلى
عينه، أى وجده يتيماً فأواه، ووجده ضالاً فهداه، ووجده عائلاً فأغناه
(٦-٨/الضحى)، بل حتى وعده بأن يعطيه حتى يرضى (٥/الضحى)،
فأعطاه بالفعل الكوثر (١-٣/الكوثر)، ووضع عنه وزره الذى أنقض ظهره
ورفع له ذكره وشرح له صدره (١-٤/الشرح)، وفتح له فتحاً مبيناً
(١/الفتح) ... إلخ.

وهو من ذرية إسماعيل، مصداقاً لقوله: (إن الله تعالى اصطفى
كنانة من ولد إسماعيل. واصطفى قريشاً من كنانة. واصطفى من قريش
بنى هاشم. واصطفانى من بنى هاشم)^(٢). وهو بهذا من ذرية إبراهيم،
ولو لم يرد ذكره صراحة فى قائمة ذرارى نوح وإبراهيم (٨٣-٨٦/الأنعام)،
بل هو حتى الأقرب من إبراهيم من الوجهة الشكلية، وذلك على نحو ما
تقدم بيانه.

وقد ولد فى عام الفيل، وبعث فى سن الأربعين، شأنه فى ذلك شأن
يوسف (٢٢/يوسف) وموسى (١٤/القصص). وتوفى عن ثلاثة وستين
عاماً، قضى العشر الأخيرة منها فى المدينة، التى دفن بها، وقبره بها لغاية

(١) ٤٠/الأحزاب.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٣٥٣ رقم ١٧١٧.

الآن. وقد خصه القرآن بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هي السورة رقم (٤٧)، أى «سورة محمد».

١٧٧ - انتقاء أم القرى لبعثة الرسول :

إذن القرآن كرسالة أخيرة إلى أهل الأرض، لم ينزل فى أم القرى عشوائياً، إنما العكس هو الصحيح بإطلاق، أى نزل فيها انتقائياً، وبالتالي كانت مكة منتقاة كموطن «أولى» لانطلاق بعثة خاتم الرسل ولو لفترة لم تتجاوز ثلاث عشرة سنة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١). فمكة كانت منتقاه لثلاثة أسباب، هى ما يلى:

فأولاً: الأصل أن اللسان العربى هو لسان الإنس عامة منذ آدم (٣١/البقرة)، وقبل أن يوجد اللسان الأعجمى، الذى لم يوجد بعدئذ إلا بزمان طويل، ولم يوجد إلا كاستثناء على أى الأحوال.

وهذا اللسان العربى هو لسان الرسول ولسان قومه فى مكة على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾^(٢). وقول خاتم الرسل: (لم يبعث الله تعالى نبياً إلا بلغة قومه)^(٣). وهو فى نفس الوقت لسان القرآن كرسالة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٤).

وبهذا، فلا القرآن نزل بلسان أعجمى على قوم لسانهم عربى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾^(٥). ولا هو نزل بلسان عربى على قوم لسانهم أعجمى، مصداقاً

^(١) ١٢٤/الأنعام، ٤/إبراهيم.

^(٢) الألبانى: السابق - ص ٩٢٥ رقم ٥١٩٧.

^(٣-٤) ٢/يوسف، ٤٤/ فصلت.

لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ. فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

١٧٨- وثانياً: الأصل أن بكة أو مكة هي عاصمة الأرض عامة منذ آدم الأول (٩٦/آل عمران)، وقبل أن توجد القبائل والشعوب والدول، والعواصم، التي لم توجد بعدئذ إلا بزمان طويل، ولم توجد إلا كاستثناء على أى الأحوال.

والأصل أن القرآن رسالة إلى البشر الأرضى عامة، فلا هى إذن تقتصر على الإنس دون الجن، ولا على الإنس فى أم القرى دون غيرها، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(٢). وقوله تعالى مرة أخرى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(٣). وقول خاتم الرسل: (فضلت على الأنبياء بخمس: بعثت إلى الناس كافة و.....)^(٤).

١٧٩- وثالثاً: النبى المكى، وإن استوفى نشأته الأولى تاريخياً فى عصر إسماعيل، إنما لم يكن بعد قد استوفى نشأته الآخرة قبل نزول القرآن. ومن ثم كان لابد أن يستوفى النبى المكى نشأته الآخرة قبل قيام الساعة على القرى كافة حتى أم القرى، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾^(٥).

^(١) ١٩٨-١٩٩/الشعراء، ٧/الشورى، ٩٢/الأنعام.

^(٢) الألبانى: السابق - ص ٧٧٧ رقم ٤٢٢١.

^(٣) ٥٩/القصص.

بهذا لم يُبعث خاتم الرسل إلى مكة فحسب، ولو أنه رسولها في نشأته الآخرة تاريخياً، أى لم يُبعث إليها بصفته خاتم رسلها تاريخياً فحسب، إنما بُعث إليها وإلى غيرها بصفته خاتم الرسل عامة (٤٠/الأحزاب)، أى لا رسول بعده في الأرض عامة.

إذن اللسان الأصلي لغوياً، ليس هو اللسان الأعجمي، إنما هو اللسان العربي، الذى ليس النظام الأصلي لغوياً في الدنيا فحسب، إنما أيضاً في الجنة، مصداقاً لقوله خاتم الرسل: (ليس في الجنة شئ مما في الدنيا إلا الأسماء)^(١)، التى علمها الله لآدم (٣١/البقرة)، قبل أن يعلمها لإسماعيل، وذلك بعد أن علم الملائكة لغة الصاد العربية.

الفرع الرابع معالم عاصمة الأرض

١٨٠- خير أرض الله :

عاصمة الأرض، ليست فقط من الأراضين المباركة الواردة عدداً وحصراً فى القرآن، إنما هى أيضاً خير أرض الله ومن ثم أحبها إلى خاتم الرسل. ذلك على نحو ما تقدم بيانه. بل هى حتى موجودة منذ خلق السموات والأرض، أى من قبل خلق الإنسان، وبالتالي تعددت وتباينت مسمياتها تبعاً لتعاقب اللغات العربية تاريخياً:

١- فهى «طسم» باللغة العربية الفاتحة، وبالتالي تكرر هذا الإسم مرتين: مرة فى موضوع الآية الأولى من سورة الشعراء، ومرة أخرى فى موضوع الآية الأولى من سورة القصص. وشأنه فى ذلك شأن أسماء: طه، يس، صاد، قاف، ولو ورد ذكرها مرة كعناوين لسورها، ومرة أخرى كمواضيع للآيات الأولى فى تلك السور.

(١) الألبانى: السابق ص ٩٥٣ رقم ٥٤١٠.

٢- وبعدئذٍ صارت عاصمة الأرض هي «بكة» (٩٦/آل عمران) باللغة العربية الجامعة، أي بعد خلق آدم وزوجه وإهباطهما إليها، وسكناهما بها طوال حياتهما، حتى ماتا ودفنا بها. ثم أصبحت عاصمة الأرض مؤخراً هي «مكة» (٢٤/الفتح) باللغة العربية الخاتمة.

١٨١- بها خير ماء الأرض:

وعاصمة الأرض باعتبارها خير أرض الله، فإن بها خير ماء على وجه الأرض بإطلاق، وبالتالي كانت من هذا الماء الغرفة اللازمة لخلق الطين، الذي منه بدء خلق آدم الأول (٧/السجدة).

وأنذاك كان هذا الماء هو ماء «كهيعص» باللغة العربية الفاتحة التي كانت موجودة قبل خلق الإنسان. ثم صارت ماء «مريم» باللغة العربية الجامعة. وذلك بعد خلق آدم وزوجه وإهباطهما إلى عاصمة الأرض، واتخاذهما من هذا الماء مُغتسلاً وشراباً لهما طوال حياتهما بها، بل حتى كان منه ماء غسلهما بعد موتهما.

كما كان منه بعدئذٍ مُغتسل أيوب وشرابه البارد في عصره (٤٢/ص)، وظلت هي «مريم» حتى بعد أن ردمت وأحياها أيوب بركضها برجله. لكنها أصبحت مؤخراً ماء «زمزم» باللغة العربية الخاتمة، بعد أن ركضها جبريل بعقبه زمن طفولة إسماعيل.

١٨٢- واد عرفة :

أما «طس» الذي هو موضوع الآية الأولى من سورة النمل، فإنه يخص «واد عرفة»، أي إسمه باللغة العربية الفاتحة، وباعتباره ضاحية من عاصمة الأرض، أي من «طسم» بنفس اللغة.

ففي هذا الواد وفي يوم عرفة، عرف الناس واحداً بواحد ربهم لأول مرة تاريخياً، وأخذ منهم سبحانه الميثاق على ذلك (١٧٢/الأعراف)،

وبالتالى صار إحياء هذه المناسبة دورياً وسنوياً على الأقل، فريضة على من استطاع إليها سبيلاً، هي فريضة الحج (٩٧/آل عمران).

والحج جنباً إلى جنب الصلاة فى الكعبة، أى فى المسجد الحرام حيث الصلاة فيه بمائة ألف صلاة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (صلاة فى مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام. وصلاة فى المسجد الحرام، أفضل من صلاة فى مسجدي هذا بمائة صلاة)^(١).

وهذا الحج مناسبة لرحم الشيطان، وباعتبار هذا «الرجم» خلقاً من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً، ويجب التمييز بينهما وذلك على نحو ما تقدم بيانه. وكذا باعتبار هذا الشيطان خلقاً من خلق الله.

وهو فى نشأته الأولى تاريخياً «إبليس» (٣٤/البقرة، ١١/الأعراف، ٣١/الحجر، ٦١/الإسراء)، وشهرته - حتى - لدى الجن هى «السفيه» (٤/الجن). أما فى نشأته الآخرة تاريخياً، فهو «المسيخ» وشهرته «الدجال»، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لأنا أعلم بما مع الدجال من الدجال ... وإن الدجال ممسوح العين اليسرى. عليها طفرة غليظة مكتوب بين عينيه كافر. يقرؤه كل مؤمن، كاتب أو غير كاتب)^(٢).

١٨٣ - الخلاصة :

من الرعونة البالغة للغاية بعدئذ، تصور أن القرآن لم ينزل إلا بلغة عربية واحدة. فهذا التصور يفضى حتماً إلى التجهيل بما يلى على الأقل:

١- ماهية «طسم» و «طس» و «كهيعص»؟ ٢- ما الفارق بين «بكة» و «مكة»؟ ٣- ما الفارق بين «مريم» و «زمزم»؟.

(١) الألبانى: السابق - ص ٧١٤ رقم ٣٨٤١، الألبانى: السابق - ص ٩٠١ رقم

المطلب الثاني أعلى الأرض

١٨٤ - تمهيد :

عاصمة الأرض لا هي أعلى الأرض، ولا هي أدنى الأرض (٣/الروم) ولو كانت كلها ثلاث أراضين مباركة، أى ثلاثة أماكن مباركة موجودة فى الأرض.

لذا، فإن الانتقال من عاصمة الأرض إلى أعلى الأرض، هو انتقال من المكان المبارك فى جزيرة العرب إلى المكان المبارك فى مصر، ولو لم تكن كل جزيرة العرب مباركة، ولا كل مصر مباركة.

الفرع الأول

ما هو أعلى الأرض؟

١٨٥ - أولاً: أحد الرواسى :

لا يزال «أعلى الأرض» غامضاً ومبهماً ومجهولاً لغاية الآن، ولو أنه بالضرورة جبل من جبال الأرض، أى أحد الرواسى (٣٢/النازعات) التى ألقاها الله بها (١٩/الحجر، ٧/ق)، وبالتالي فهو خلق من خلق الله.

وهذا الخلق له بالضرورة نشأتان تاريخياً، شأنه فى ذلك شأن أى خلق بإطلاق (٤٩/الذاريات). ويجب التمييز علمياً بين نشأته (٢٠/العنكبوت). فهذا الجبل فى نشأته الأولى تاريخياً، مجرد كئيبان (١٤/المزمل)، وأصبح فى نشأته الآخرة تاريخياً وتداً (٧/النبا) مغروساً منه فى الأرض أضعاف أضعاف الظاهر منه على سطح الأرض.

١٨٦ - ثانياً: أعلى جبل فى الأرض :

أعلى الأرض، ليس مجرد جبل من جبالها، ولا هو - حتى - من أعلى جبالها، بل هو أعلى جبل فيها بإطلاق، وبالتالي أعلى من أعلى جبل فيها. ومن ثم له خصوصيته - حتى - من حيث مسماه اصطلاحياً، وذلك كما يلي:

فأولاً: مسماه فى نشأته الأولى تاريخياً، هو: جبل قاف، الذى اتخذه القرآن عنواناً لسورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٥٠)، أى «سورة ق»، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن أعلى قمة فى الأرض هو جبل قاف) (١)**.

كما جعله القرآن موضوعاً لأول اصطلاح فى أول آية من تلك السورة، مصداقاً لقوله تعالى: **(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (٢)**. فهو جبل قاف بلغة الملائكة قبل خلق آدم، أى باللغة العربية «الفاتحة»، تاريخياً، حيث «ق» ليس مجرد حرف أبجدى، ولا حتى لفظ لغوى كما يتصور البعض لغاية الآن (٣)، إنما هو اصطلاح موضوعه «إسم»، هو إسم جبل فى الأرض، وإسمه باعتباره أعلى الأرض بإطلاق.

وهو بهذا كلفظ «ص» على النحو السالف بيانه، أى ليس مجرد حرف أبجدى، ولا مجرد لفظ لغوى، إنما هو اصطلاح، موضوعه إسم، وإسم لغة عربية، هى لغة الصاد، وبالتالي اتخذه القرآن عنواناً لسورة قرآنية

(١) الثعالبي: عرائس المجالس.

(٢) ١/ق.

(٣) انظر مثلاً على جمعه: جبل قاف المحيط بالأرض كلها - مقالة منشورة فى المؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - السابق - ص ٤٦٠.

قائمة بذاتها، كما اتخذه موضوعاً لأول اصطلاح فى أول آية من تلك
السورة.

وثانياً: مسماه فى نشأته الآخرة تاريخياً، هو: جبل الطور، الذى
جعله القرآن عنواناً لسورة قرآنية قائمة بذاتها هى السورة رقم (٥٢)، أى
سورة «الطور»، والتالية ترتيباً لسورة قاف. بل إن القرآن جعل هذا الطور
موضوعاً لأية قرآنية قائمة بذاتها، هى الآية الأولى من تلك السورة،
مصدقاً لقوله تعالى: **﴿وَالطُّورِ﴾**(١).

وهو بهذا «جبل الطور» بلغة الضاد العربية، التى هى اللغة العربية
بعد خلق آدم، أى لغة الإنسان العربية، وبالتالي يجب التمييز بعدئذ بين
نشأتى هذا المسمى فى ظل لغة الضاد العربية، وذلك كما يلى:

١- فهو جبل: **(طُورِ سِينِينَ)**(٢) بلغة آدم العربية غير المبينة، التى
لم تلبث أن أصبحت العربية الجامعة، أى لغة الإنس والملائكة معاً (٣١-
٣٣/البقرة)، وبهذا لم يعد أعلى الأرض هو «جبل قاف» كما كان قبل خلق
لغة آدم، أى كما كان فى ظل لغة الصاد العربية، إنما أصبح «طور
سينين» بعد خلق لغة آدم، وطور سينين بالنسبة للإنس وبالنسبة للملائكة
على السواء، أى طور سينين فى ظل اللغة العربية الجامعة.

٢- ثم هو جبل: **(طُورِ سِينَاء)**(٣) بلغة إسماعيل العربية المبينة،
والتي هى العربية الخاتمة تاريخياً، وبالتالي لم يعد أعلى الأرض هو «طور
سينين» كما كان قبل خلق إسماعيل، إنما أصبح «طور سيناء» بعد خلق
لغة إسماعيل.

(١) ١/ الطور، ٢/ التين، ٢/ المؤمنون.

وهكذا تعاقبت اللغات العربية الثلاث تباعاً، أى الفاتحة فالجامعة فالخاتمة، على أعلى الأرض باعتباره جزءاً لا يتجزأ من مصر من قبل خلق آدم، ولو لم يعرف المصريون بعد أى شئ عن «مصر» حال حياة آدم على الأقل، أى حال حياته فى الأرض، وذلك رغم وجود آدم شخصياً فى «آثار» مصر لغاية الآن.

١٨٧ - ثالثاً: جبل مبارك :

أعلى الأرض، ليس فقط أعلى جبل فى الأرض بإطلاق، إنما هو أيضاً جبل واقع فى «مغارب» مصر، بل هو حتى جبل «مبارك» فى مصر، التى أورثها الله سبحانه بعد غرق فرعون، للمصريين المستضعفين آنذاك، وأورثهم إياها بمشارقتها وبمغاربها المباركة على السواء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَأُورِثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾^(١).

ويترتب على ذلك ما يلى: ١- جبل قاف أو طور سنين أو طور سيناء أو الطور اختصاراً أو أعلى الأرض، هو وحده الجبل المبارك فى الأرض بإطلاق.

٢- وهذا الجبل، ليس مباركاً، منذ خلق آدم فحسب، إنما هو مبارك من قبل خلق آدم، وقبله بكثير، أى منذ خلق الله السموات والأرض.

٣- وهو ليس مباركاً، إلا للأدوار المباركة التى أداها تباعاً فى التاريخ الإنسانى منذ خلق آدم، أى أداها فى حياة آدم ونوح وموسى

(١) ١٣٧/الأعراف.

وعيسى وغيرهم، وبالتالي يجب أن نتتبع دوره المبارك منذ آدم، ولا تختزله في دوره بالنسبة لموسى وقومه فحسب، كما يذهب بنو إسرائيل عادة.

الفرع الثانى

طوى والجودى

١٨٨ - دور جبل قاف:

أعلى الأرض في لغة الصاد العربية قبل خلق آدم، هو: جبل قاف المبارك، بواديه «المقدس» أى المبارك فى ذاته، كما هو الواد المبارك دوره منذ أول أدواره تاريخياً، أى منذ «طوى» تاريخياً، وبالتالي هو إجمالاً: **«الْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى»**(١).

وهو الواد طوى تاريخياً، أى الواد الذى زويت فيه الأرض جميعاً قبل خلق آدم. مثلما ستطوى يوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **«وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**(٢). وكما ستطوى السماء يوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **«وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ»**(٣). فيوم القيامة، يوم تطوى الأرض و**«يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ»**(٤).

وحتى قبل يوم القيامة، زوى الله الأرض لخاتم الرسل، مصداقاً لقوله فى هذا الشأن: **(إن الله زوى لى الأرض، فرأيت مشارقها ومغاريها، وإن ملك أمتى سيبلغ ما زوى لى منها ...)**(٥).

وهو الواد طوى تاريخياً، بمعنى الواد الذى زويت فيه الأرض قبل خلق آدم، وبمناسبة خلقه، أى لكى تؤخذ منها «جميعاً» قبضة التراب اللازمة لخلق آدم آنذاك، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(إن**

(١-٤) ١٢/ طه، ٦٧/ الزمر، ٦٧/ الزمر، ١٠٤/ الأنبياء.

(٥) الألبانى: السابق - ص ٣٦٤ رقم ١٧٧٣.

الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض. فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك. والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب، وبين ذلك^(١).

ويترتب على ذلك ما يلي من الوجهة السلبية على الأقل: ١- لم يكن لموسى أو لغيره أن يخوض بنعليه بعدئذ في هذا الواد، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾^(٢). فهو ليس الواد المقدس فحسب، إنما هو أيضاً الواد طوى الذى أخذت منه قبضة التراب التى خلق منها الإنسان الأول تاريخياً، وكل ولده من بعده، ولداً بولد إلى يوم القيامة (٣/البلد)، والذين كرمهم الله (٧٠/الإسراء).

٢- لم يكن لإدريس وذى الكفل أن يقيما تمثالاً لرأس آدم، إلا فى مصر من ناحية، وفى مشارقها من ناحية أخرى، دون مغاربها حيث يوجد الواد طوى، الذى أخذت منه قبضة تراب خلق الله آدم منها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾^(٣).

إذ لو كان هذا التمثال قد أقيم فى مغارب مصر حيث يوجد الواد المقدس، لما كان هناك ما يمنع المصريين - على الأقل - من التعامل معه وقتئذ كتمثال مقدس، على غرار ما يحدث حالياً مع تمثال بوذا مثلاً.

وعلى أى الأحوال، فى ظل غموض لفظ «طوى» على الأقل، ولغاية الآن^(٤)، لا يزال المصريون كغيرهم يستبعدون أن يكون تمثال رأس الإنسان

(١) الألبانى: السابق - ص ٣٦٢ رقم ١٧٥٩.

(٢-٣) ١١-١٢/طه، ٦٧/غافر.

(٤) انظر مثلاً، على جمعة: الواد طوى - مقالة فى المؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - السابق - ص ٤٥٧ - ٤٥٨.

الضخم الموجود بالجيزة، هو تمثال لرأس آدم، وبالتالي لا يزال الغموض والإبهام والتجهيل يكتنف هذا التمثال، فلا يُعرف صاحبه ولا صانعه ولا تاريخ صنعه ولا يُعرف عنه أى شئ على الإطلاق^(١).

١٨٩ - دور جبل طور سينين:

ما المحطة الثانية تاريخياً التي تستوقفنا بالضرورة فى أعلى الأرض، وذلك بعد مكان قبضة التراب التي منها خلق الله آدم الأول؟ فهل هو المكان الذي صُنعت فيه سفينة نوح قبل الطوفان، أم المكان الذي رست هذه السفينة فيه بعد الطوفان، علماً بأن كلاهما مكان تاريخي لا يزال غامضاً ومبهماً ومجهولاً من الوجهة الجغرافية لغاية الآن؟ الحقيقة أن أعلى الأرض لم يعد هو جبل قاف بعد خلق آدم وتلقيه لغته العربية الجامعة من ربه مباشرة (٣١/البقرة)، إنما أصبح هذا الجبل بحسب دوره المبارك بعدئذ، أى دوره المبارك بعد حياة آدم، وحتى بعد طوفان نوح، هو: «جبل الجودي» وذلك بلغة آدم العربية: فأولاً: هو الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح فور انقضاء الطوفان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْنَوْتُ عَلَى الْجُودِيِّ﴾^(٢). وثانياً: هو الجودي أى المنزل «المبارك» الذى «جاد» به الله على نوح، بناء على دعائه ربه أن ينزله هو وسفينته منزلاً مباركاً، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾^(٣).

(١) انظر بالتفصيل، أحمد حشيش: أبو الهول ولغته في القانون - دار النهضة العربية، ٢٠١٨.

(٢-٣) ٤٤/هود، ٢٩/المؤمنون .

فقد استجاب الله إذن لدعاء نوح، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾^(١).

وثالثاً: طور سينين باعتباره أعلى من أعلى جبل في الأرض بإطلاق، هو خير منزل ترسو فيه تلك السفينة، خاصة أنها كانت تجرى في موج عال علو جبال الأرض عدا طور سينين عندئذ، مصداقاً لقوله تعالى بشأن ملاحظتها خاصة: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾^(٢).

ففيما عدا جبل طور سينين باعتباره أعلى الأرض بإطلاق، لم تكن كافة جبال الأرض معصومة من الطوفان وقتئذ، مصداقاً لقوله تعالى على لسان نوح في جهره بهذه الحقيقة لإبنيه وقتذاك: ﴿قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ...﴾^(٣).

١٩٠ - أهمية الجودي علمياً:

أولاً: طور سينين باعتباره أعلى الأرض، يُغنيهاً كثيراً جداً عن البحث بعدئذ «خارج مصر»، عن الجودي الذي استوت عليه سفينة نوح بعد الطوفان، ولو لم يُغنيها عن ضرورة البحث علمياً عن المكان الذي صنعت فيه هذه السفينة قبل الطوفان، والبحث عنه خارج مصر جغرافياً.

وثانياً: لا يجب أن يكون «اصطلاح» الجودي غامضاً أو مبهماً أو مجهولاً في مصر على الأقل، ولا أن يستبعد أحد في مصر بعدئذ كون نوح أول من وطأت قدماه مصر من الأنبياء والمرسلين، حتى ولو لم تطأ قدماه في مصر سوى مغاربها المباركة فحسب، وذلك بعد أن وطأت أقدام إدريس

(٣-١) /٤٨ هود، /٤٢ هود، /٤٣ هود.

وذى الكفل مشارق مصر فى نهاية القرن الأول من الثلث الأخير من عمر آدم.

أى أن إبراهيم - على أى الأحوال - لم يكن أول من وطأت قدماه مشارق أو مغارب مصر من الأنبياء والمرسلين، ولو أن إدريس أو ذو الكفل أو نوح أو إبراهيم لم يكن «النبى المصرى» تاريخياً، إنما العكس هو الصحيح قرآنياً.

١٩١ - النبى الإسرائيلى المصرى:

تعاقب مجئ الأنبياء والمرسلين تبعاً إلى مصر منذ حياة آدم الأول فى الأرض، ولو لم تطأ قدماه مصر على الإطلاق، وذلك على نحو ما سنعرضه من بعد، أما «النبى الإسرائيلى المصرى»، فهو خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات) ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك على النحو التالى:

فأولاً: النبى الإسرائيلى المصرى فى نشأته الأولى تاريخياً، هو: يوسف، الذى أتى مصر حدثاً ورفيقاً، وتربى فيها معزولاً عن والديه وأخوته، وبعث فيها نبياً ورسولاً وهو فى سن الأربعين، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** (١).

وقد خصه القرآن بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم

(١٢)، أى «سورة يوسف».

وثانياً: النبى الإسرائيلى المصرى فى نشأته الآخرة تاريخياً، هو: موسى، الذى ولد بمصر، وهاجر منها شاباً أعزباً، وعاد إليها بعد عشر

(١) ٢٢/يوسف.

سنين متزوجاً ، وُبُعِثَ فيها نبياً ورسولاً وهو فى سن الأربعين، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

وقد خصه القرآن هو وباقى «آل» أبيه، بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٣)، أى «سورة آل عمران».

١٩٢ - أكان فرعون مصرياً؟

آنذاك كان بنو إسرائيل فى مصر منشقين إلى شيعتين متعاديتين، هما: قوم موسى (١٥/القصص) وقوم فرعون (٥١/الزخرف) الذى كان يستخف بهم فأطاعوه (٥٤/الزخرف)، وذلك جنباً إلى جنب شيعة المصريين أى القوم الذين كانوا يستضعفون وأورثم الله بعدئذ أرض مصر بمشارقتها ومغاربها المباركة (١٣٧/الأعراف).

بهذا ففرعون لم يفرق أهل مصر إلى شيعتين فحسب، إنما فرقهم أكثر من شيعتين على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا...﴾^(٢).

وهكذا كان فرعون ملكاً على مصر، لكنه لم يكن ملكاً مصرياً، إنما كان ملكاً إسرائيلياً، بل كان حتى ثانى ملك إسرائيلى على مصر، بينما أول ملك إسرائيلى على مصر تاريخياً هو يوسف (٥٦/يوسف) بعد أن كان وزيراً على خزائن أرض مصر (٥٥/يوسف).

ولا يوجد هناك أى اختلاف فى «رتم» أسماء: فرعون وهارون وقارون وابن نون .. إلخ، فكلها أسماء إسرائيلية آنذاك. وحتى الشخص الذى قتله

^(٢-١) (١٤/القصص، ٤/القصص).

موسى قبل بعثته، لم يكن مصرياً، إنما كان من عدوه أى كان من قوم فرعون (١٥/القصص، ١٩/القصص).

الفرع الثالث

جانب الطور الأيمن

١٩٣ - طور سيناء:

لم يعد أعلى الأرض هو طور سينين، بعد أن تلقى إسماعيل من ربه مباشرة، اللغة العربية الخاتمة، إنما أصبح جبل طور سيناء، الذى أدى جانبه الأيمن (٣٠/القصص) أى الغربى (٤٤/القصص) دوراً مُتعددًا ومتبايناً، أى أن دوره لم يقتصر على موسى وحده كما يتوهم الكثيرون لغاية الآن.

١٩٤ - البقعة المباركة من الشجرة:

فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وحال رجوع موسى من «مدين» التى هاجر إليها عشر سنين، كلمه الله فى البقعة المباركة من الشجرة، مصداقاً لقوله تعالى مرة: ﴿... نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

وقوله تعالى مرة أخرى: ﴿... نُودِي يَا مُوسَى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

وكان ذلك قبل بعثة خاتم الرسل تاريخياً، وقبلها بألفى سنة تقريباً، وبالتالي لم يشهد خاتم الرسل دور الجانب الغربى للطور وقتذاك، مصداقاً

(١) ٣٠/القصص، ١١-١٣/طه، ١٠/الشعراء.

لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(١). فهو لم يشهد دور الطور، لا دوره بالنسبة لموسى، ولا دوره بالنسبة لقوم موسى:

١- فقد واعد سبحانه قوم موسى فى جانب الطور الأيمن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾^(٢).

بل حتى رفع سبحانه جبل الطور فوقهم مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾^(٣). ورفع سبحانه فوقهم كأنه ظللة عليهم ولو ظنوا أنه واقع بهم مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٤).

٢- لكن لا يعجبهم أى شئ، حتى المن والسلوى الذى أنزله الله إليهم كأكل طيب من السماء (٨٠/طه)، وبالتالي طلبوا أن يُستبدل به مما تثبت الأرض من طعام. فأمرهم موسى على الفور أن يهبطوا من أعلى الأرض فى مصر إلى أدنى مصر، حيث يجدون طلبهم من الطعام الأرضى.

وذلك مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثَبِّتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبِ مِّنَ اللَّهِ﴾^(٥).

(١) ٤٤/ القصص، ٨٠/طه، ٦٣/البقرة، ١٧١/الأعراف، ٦١/البقرة.

١٩٥ - الربوة ذات القرار والمعين :

موسى كعيسى، وعيسى كموسى، من حيث موطن ميلادهما على الأقل، أى كلاهما من «مواليد» مصر، ولو كان بينهما خمسة عشر قرناً من الوجهة التاريخية، وكان موسى من مواليد مشارق مصر، بينما عيسى من مواليد مغاربيها المباركة.

فالبقعة المباركة من الشجرة، أى الواد المقدس طوى، هى: الربوة ذات القرار والمعين، التى آوى الله فيها مريم الحامل بابنها منذ حملته حتى وضعته، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾^(١).

وذلك بعد أن تقبل الله مريم بقبول حسن وأنبثها نباتاً حسناً، وكفلها زكريا طوال وجودها فى المحراب (٣٧/آل عمران) تركع وتسجد مع الراكعين، حتى خرجت منه بعدئذ، وابتعدت عن أهلها مكاناً شرق بيت المقدس، وبالتالي احتجبت عنهم تماماً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا...﴾^(٢).

بل حتى ابتعدت عنهم وعن موطنها مكاناً شرقياً وقصياً عن بيت المقدس، وذلك منذ حملت بابنها، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾^(٣).

وفى هذا المكان الشرقى القصى عن بيت المقدس، جاءها المخاض إلى جذع تلك الشجرة الموجودة فى البقعة المباركة منذ عصر موسى،

^(١) ٥٠/المؤمنون، ١٦-١٧/مريم، ٢٢/مريم.

وبالتالى ناداها ابنها وهو فى مهده لكى تهز هذه النخلة وتأكل مما يتساقط من تمرها، وأن تشرب من الماء المعين الموجود، وتقر عيناً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ... فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهَرِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ...﴾^(١).

وبعدها حملته وعادت أدراجها إلى وطنهما الأصلي وقومهما، ولو لم تلبث مريم أن عادت بابنها صغيراً إلى مصر مرة أخرى، خوفاً على حياته فى موطنهما الأصلي آنذاك.

١٩٦- دور أعلى الأرض فى نشأتى الإنسان :

وهكذا شاء الله أن يؤدى أعلى الأرض، أى قاف أو الطور، دوراً فى نشأتى الإنسان تاريخياً، فهذا الإنسان خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت):

١- فالإنسان فى نشأته الأولى تاريخياً هو «آدم الأول»، وذلك على نحو ما تقدم بيانه. ٢- والإنسان فى نشأته الآخرة تاريخياً هو «عيسى»، وذلك على نحو ما تقدم بيانه، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢).

بل هما ليسا مختلفين - حتى - من حيث دور «الروح القدس» فى نشأتهما تاريخياً: ١- إذ كان للروح القدس دوراً فى نشأة الإنسان لأول مرة

(١) (٢٣-٢٦/مريم، ٥٩/آل عمران).

تاريخياً، أى فى نشأة آدم، مصداقاً لقوله تعالى إلى الملائكة فى هذا الشأن: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(١). وقوله تعالى مرة أخرى، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٢).

٢- وهو نفس الدور فى نشأة الإنسان الآخرة تاريخياً، أى فى نشأة عيسى، مصداقاً لقوله تعالى مرة: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾^(٣). وقوله تعالى مرة أخرى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾^(٤).

ولم يجرؤ أحد على الإطلاق أن يزعم أن آدم الأول بمثابة إله أو ابن إله على الأقل، رغم أن الله أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا أجمعون (٣٤/البقرة، ٣٠/الحجر، ٧٣/ص~)، دون أن يأمرهم سبحانه مطلقاً بالسجود لعيسى، وبالتالي لم يسجدوا له على الإطلاق، ولو أنهم قد حملوا إلى أمه فى المحراب البشارة به قبل أن تحمل فيه (٤٥/آل عمران)، مثلما حملوا قبلها البشارة بيحيى إلى أبيه زكريا فى نفس المحراب (٣٩/آل عمران).

١٩٧- الروح القدس:

هو جبريل، أى «الملك» الذى يعرج مع غيره من الملائكة إلى الله ذى المعارج، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿مَنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ. تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾^(٥). ويقول خاتم الرسل عنه: (إنما ذلك جبريل. ما رأيته فى الصورة التى خلق منها غير هاتين المرتين. رأيته

(٥-١) ٢٩/الحجر، ٧٢/ص~، ١٢/التحریم، ٩١/الأنبياء. ٣-٤/المعارج.

منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض^(١). وقوله أيضاً: (رأيت جبريل له ستمائة جناح)^(٢).

كما يقول بشأنه: (أحياناً يأتيني - يعنى الوحي - فى مثل صلصلة الجرس، وهو على أشده على، فينفصم عنى وقد وعيت ما قال. وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً، فيكلمنى فأعنى ما يقول)^(٣). وقوله كذلك: (أشبه من رأيت بجبريل دحية الكلبي)^(٤).

فلا محل بعدئذ للزعم بأن هذا الملك أحد ثلاثة أقانيم إلهية، ولا أن الله واحد من ثلاثة (٧٣/المائدة)، ولا أن له سبحانه ولد أو والد أو صاحبة، وسبحان الله عما يصفون.

ولا محل - حتى - للزعم بأن مريم قد وضعت ابنها عيسى فى مكان غير مبارك، أو فى مكان غرب بيت المقدس، أو خارج الواد المقدس طوى^(٥)، أو أنها قد وضعت ناسوتاً من جانب ولا هوتاً من جانب آخر (١١٦/المائدة)، حتى لو كان الله قد جعله مباركاً مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارِكًا﴾^(٦). فشأنه فى ذلك شأن إبراهيم وإسحق على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهما: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾^(٧).

^(١) الألبانى: السابق - ص ٤٦٦ رقم ٢٣٦٧، ص ٦٥٢ رقم ٣٤٦٢، ص ١٠٢ رقم ٢١٣، ص ٢٢٩ رقم ٩٨٧.

^(٥) قارن العكس، على جمعه: مريم تلد فى البرية ووليدها يكلمها من تحتها - مقالة منشورة فى المؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - السابق - ص ٤٧٦-٤٧٨، محمد متولى الشعراوى: قصص الأنبياء والمرسلين - ط ٢ - مكتبة التراث الإسلامى - ٢٠٠١، ص ٥١٢-٥١٣.

^(٦-٧) ٣١/ مريم، ١١٣/ الصافات.

وهذه المزاعم شأنها - حتى - شأن الزعم بقتل أو صلب عيسى (١٥٧/النساء)، وهي مجرد خيال على الأكثر، وخیال يتبارى فيه بنو إسرائيل في ظل الإنجيل على الأقل.

الفرع الرابع

سيناء

١٩٨ - قصة الخضر :

هذه القصة، ليست جزءاً من القصص القرآني فحسب، إنما هي أيضاً جزء من قصة سيناء في عصر موسى ونزول التوراة، بل هي حتى قصة «العلم» science الذي نزل على استقلال عن التوراة آنذاك. ونزل لأول مرة تاريخياً وقتذاك، ونزل على «الخضر» الذي لم يكن نبياً أو رسولاً أو ملكاً، ولم يُقنن القرآن اسمه إنما السنة قننته، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: (إنما سُمي الخضر خضراً، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز تحته خضراء)^(١).

والخضر بهذا، ليس مصرياً سيناوياً فحسب، إنما هو أيضاً واحد من «أهل الذكر» الموجودين في القرآن وليسوا خارجه على الإطلاق، لكي يتسنى للناس سؤالهم عما لا يعلمونه من هذا الذكر (٤٣/النحل، ٧/الأنبياء)، بل يجب على الناس سؤالهم في هذا الشأن.

فهم أوائل من تلقوا العلوم sciences تباعاً ومباشرة من ربهم، أي هم «أولوا العلم» الذين شهدوا بعد الملائكة التي شهدت بعد الله، بألوهيته ووحدانيته وقيامه بثئون القسط عامة، وفي الكون بأسره، مصداقاً لقوله

(١) الألباني: السابق - ص ٤٦٦ رقم ٢٣٦٤.

تعالى فى هذا الشأن: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ...﴾^(١).

وهم بهذا، ليسوا أوائل الناس فى تلقى العلوم من ربهم فحسب، إنما هم أيضاً أوائل من يخشونه سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾^(٢).

وهم إذن أوائل الناس فى الأمرين معاً، وبالتالي أوائل المقربين منه سبحانه، فى جنات النعيم، ولو كان أوائلهم تاريخياً أكثر من أواخرهم عددياً، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى. وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(٣).

لذا فهم ليسوا موجودين فى القرآن، إلا باعتبارهم أهله، أى أهل القرآن، أو بالأحرى أهل الله وخاصته، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنهم: (إن لله تعالى أهلين من الناس: أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته)^(٤).

١٩٩ - تتلمذ موسى على يد الخضر :

حتى موسى، وحتى بعد أن نزلت عليه التوراة على استقلال، رحل صحبة فتاه يوشع بن نون، قاصداً مكان الخضر لكى يتعلم على يديه «علم التأويل بالحق» فى نشأته الأولى تاريخياً آنذاك (٦٥ و ٧٨ و ٨٢/الكهف).

فرحلا من «القرية حاضرة البحر» آنذاك (١٦٣/الأعراف)، أى قرية الحيتان شمال البحر الأحمر، ورحلا صحبة حوت كدليل لطريقهما إلى الخضر عند ملتقى شعبي البحر الأحمر وهما خليج العقبة وخليج السويس

^(١) ١٨/ آل عمران، ٢٨/فاطر، ١٠-١٤/الواقعة.

^(٤) الألبانى: السابق - ص ٤٣٢ رقم ٢١٦٥.

حالياً، أى عند الصخرة الموجودة فى مكانها لغاية الآن، وموجودة فى «رأس محمد» حالياً، لكى يتتلمذ على يديه موسى فيما سماه وقتذاك «علم الرشد» (٦٠-٦٦/الكهف).

٢٠٠- مدى تشعب قصة الخضر :

موضوع هذه القصة تأويلياً، لا يقتصر على قصة «علم التأويل بالحق» فى نشأته الأولى تاريخياً فحسب، إنما يطال أيضاً قصة «حدود مصر» جغرافياً سواء حدودها جنوباً أو حدودها شرقاً، بل يطال حتى مسائل أخرى كثيرة لا تزال من المجاهيل لغاية الآن، وذلك كما يلى:

فأولاً: يثور حالياً التساؤل عن آخر اليايس المصرى جنوباً منذ آلاف السنين لغاية الآن، وذلك بعد تهاوى «فكرة» ملك مصر والسودان منذ خمسينيات القرن الماضى؟

لكن قصة الخضر استغرقت من شمالها إلى جنوبها، الآيات من ٦٠ إلى ٨٢ من سورة الكهف، أى استغرقت ٢٣ آية عدداً وحسراً، ويقدر خطوط العرض التى ينتهى عندها اليايس المصرى، أى ينتهى عند خط عرض ٢٣ جنوباً.

واليايس المصرى بهذا يضم مثلث حلايب وشلاتين، الذى يقع فوق هذا الخط، وهو يضمه منذ آلاف السنين لغاية الآن، أى أن هذا المثلث يتبع اليايس المصرى جنوباً، وبصرف النظر عن مزاعم السودانين بشأنه حالياً، سواء مزاعمهم عن أحقيتهم له، أو مزاعمهم عن مستنداتهم فى أحقيته.

وثانياً: ثار التساؤل من مدة وجيزة، عن آخر اليايس السيناوى المصرى شرقاً منذ آلاف السنين لغاية الآن، وذلك بصرف النظر عن أى

توافق سعودي/مصرى فى خمسينيات القرن الماضى بشأن جزيرتى تيران
وصنافير؟

لكن قصة الخضر استهلت بست آيات (٦٠-٦٥/الكهف)، تتعلق
بالتقاء موسى وفتاه بالخضر عند «آخر نقطة» فى اليابس السيناوى
المصرى، أى «الصخرة» الموجودة منذ آلاف السنين لغاية الآن فى «رأس
محمد» حالياً.

وبهذا يقصر اليابس المصرى عن جزيرتى تيران وصنافير فى البحر
الأحمر، وذلك منذ آلاف السنين لغاية الآن، أى هما لم تكونا يوماً تابعتين
لليابس المصرى.

أما ما قضى به القضاء الإدارى بشأن تبعية الجزيرتين لليابس
المصرى^(١)، فإنه ليس قضاء على الإطلاق، إنما هو مجرد «فتوى
قضائية» على الأكثر، أى فتوى على أى الأحوال، حتى لو صدرت فى
شكل حكم قضائى وبناء على إجراءات الدعوى القضائية، لأن هذه الدعوى
بطبعها هى «دعوى استقهامية» أصلاً، وبالتالي تتجاوز ولاية القضاء، الذى
لا يختص بإصدار الفتاوى، وكان عليه إذن أن يقضى فيها بعدم جواز
نظرها موضوعياً، وبصرف النظر عن تعلقها أو عدم تعلقها بأعمال
السيادة.

(١) حكم محكمة القضاء الإدارى (دائرة أولى) - جلسة ٢١/٦٥/٢٠١٦ - فى
الدعويين ٤٣٧٠٩ و ٤٣٨٦٦ لسنة ٧٠ق. وكذا حكم المحكمة الإدارية العليا
(دائرة أولى - فحص الطعون) - جلسة ١٦/١/٢٠١٧ - فى الطعن ٧٤٢٣٦
لسنة ٦٢ق.

فمسألة مدى تبعية الجزيرتين لمصر أو لغيرها بحسب الأحوال، ليست مسألة قانونية، إنما هي مسألة جغرافية/تاريخية، وبالتالي فالدعوى المتعلقة بها ليست دعوى قضائية، إنما هي مجرد «دعوى استفهامية» أى موضوعها مجرد طلب فتوى ولو كان مرفوعاً - خطأ - بإجراءات الدعوى القضائية، فلا يهدف إلا إلى استصدار فتوى فى شكل حكم قضائى، وبالتالي لا يجوز للقضاء نظرها موضوعياً.

وثالثاً: مجاهيل قصة الخضر، لا تقتصر على المسألتين المصريتين السابقتين فحسب، إنما تطال أيضاً مسائل مصرية أخرى، كما يلى: ١- من أى مرفأً مصرى على البحر ركب الخضر وموسى السفينة؟ ٢- ما هى القرية المصرية التى أبت أن تضيف الخضر وموسى (٧٧/الكهف)؟.

٣- ومن هو الملك المصرى الذى أتى بعد غرق فرعون، وكان يأخذ كل سفينة غصباً عن أصحابها (٧٩/الكهف)؟. ٤- ماذا فعل الغلام بالضبط حتى أثار خشية والديه والخضر من أن يرهقهما طغياناً وكفراً (٨٠/الكهف)؟.

٥- متى استوفى علم التأويل بالحق نشأته الآخرة تاريخياً، بعد أن استوفى نشأته الأولى تاريخياً على يد الخضر فى مصر فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد (٦٥ و ٧٨ و ٨٢/الكهف)؟

ورابعاً: بل إن قصة الخضر لم تسلم - حتى من «الإسرائيليات لغاية الآن، ولدرجة الزعم بأنه شخصياً لم يمت منذ منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد^(١). والزعم بأن قصته من «العجائب الغيبية» التى يقف أمامها

(١) انظر مثلاً، ابن كثير: السابق - ص ٣١٠.

العقل البشرى حائراً^(١). والزمع بأنه شخصياً لم يترك خلفه أى شرع أو علم على الإطلاق^(٢). ... إلى آخر التخرصات الفارغة التى تناقلها القدامى والمحدثون بشأنه.

الفرع الخامس

الحرابة فى سيناء

٢٠١ - نظاما الحرابة :

لا يجوز مطلقاً الخلط بين نظام الحرب من ناحية، وبين نظامى الحرابة من ناحية أخرى، وكليهما نظام جنائى يُواجه اعتداءً داخلياً على الدولة، ولو اعتداء بصورة غير مباشرة:

أولاً: نظام الحرابة القبلىة أو الطائفية داخل الدولة، وليس ضدها مباشرة، إنما ضدها بصورة غير مباشرة. وعلى الدولة إذن أن تتدخل بين المتقاتلين لتحتويهما صلحاً على الأقل، ولو لم يكونا أكثر من قبيلتين أو طائفتين.

بل حتى عليها أن تقاوم الطرف الباغى منهما، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن هذه الحرابة: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٣).

^(١) انظر مثلاً، محمد متولى الشعراوى: السابق - ص ٤٢٣ و ص ٤٢٦ على التوالى.

^(٢) ٩ / الحجرات.

وهو نظام جنائي داخلي استثنائي، يواجه بقايا القبلية، حتى بعد نشأة الدولة باعتبارها فرع الشعب الذي توحدت فيه القبائل، وحتى بعد أن آمن هذا الشعب. وهذه البقايا القبلية لا تتجاهل فقط وجود الدولة، إنما تتجاهل أيضاً الإيمان، ولو لم تتجاهلها إلا نسبياً.

ثانياً: نظام الحرابية القبلية داخل الدولة، وضدها في نفس الوقت، وذلك هو نظام الحرابية بمعناه الدقيق. وهو بدوره نظام جنائي داخلي استثنائي، لكنه يواجه بقايا القبلية التي تتجاهل وجود الدولة والإيمان بصفة مطلقة. ولذا فإن هذا النظام ينظم جريمة الحرابية والجزاء عليها، باعتبارها حرابية ضد الله ورسوله، أي جريمة ضدتهما مباشرة.

وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَّحِيمٌ﴾ (١).

على أن رد الفعل العام ضد هذه الحرابية أو تلك، لا هو «حرابية» مثلها، ولا هو «حرب» بالمعنى الدقيق، إنما هو رد فعل عام واستثنائي، وبالتالي تولته الدولة - حتى - في أول دولة عربية تكونت بعد وفاة الرسول، أي في عصر أبي بكر، ولو اشتهرت تسميته تجوزاً بـ «حرب» أو «حروب» الردة، لكنه ليس حرباً، وبالتالي فالأصل أن تتولاها الشرطة، ما لم تبلغ الحرابية حد الإرهاب إعداداً واستعداداً ودواماً وانتشاراً، وعندئذ تحتاج الشرطة إلى معاونة الجيش كما هو حاصل في سيناء حالياً.

(١) ٣٣-٣٤/المائدة

والحرايبون فى سيناء حالياً، مصريون أو أجانب، يرتزقون من الحراية، التى يتخذونها حرفة أو مهنة، أى هم مأجورون أصلاً ويتذرعون بكونهم أوصياء فى الأرض على شريعة الله أو دينه. وشأنهم فى ذلك شأن أئمتهم من قبل، وشأن الأئمة كافة، حتى ولو لم يُرد عليهم قولهم فى الدنيا. ومآلهم معروف سلفاً، وحكمهم حكم نظرائهم فى بنى إسرائيل قبل نزول القرآن (٦٥/البقرة، ١٦٦/الأعراف)، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (ستكون أئمة من بعدى، يقولون فلا يرد عليهم قولهم، يتقاحمون فى النار كما تقاحم القردة)^(١).

٢٠٢ - نظام الحرب:

الحرب أياً كانت بمثابة استثناء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾^(٢). وهذا الاستثناء المكروه أصلاً، لم يتقرر جوازه بعدئذ، إلا لما فيه من خير، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٤).

لذا لم يتقرر جواز هذا الاستثناء، إلا كجزاء، وليس جزاء على كفر الكافرين، إنما كجزاء على اعتدائهم حربياً، أى مبادأتهم بالحرب أو التهديد به من جانبهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ قَاتَلْتُمُ فَافْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^(٥).

وهكذا فالضرورة الملجئة للحرب هى حالة الدفاع الشرعى ضد حرب بدأت بالفعل أو حرب وشيكة الوقوع، وبالتالي إذا انتفت ضرورة الحرب،

(١) الألبانى: السابق - ص ٦٧٦ رقم ٣٦١٥.

(٢) ٢١٦/البقرة، ٢١٦/البقرة، ١٩/النساء، ١٩١/البقرة.

أو تجاوزت الحرب حدود الدفاع الشرعى، فإن هذه الحرب تتمخض عن مجرد «اعتداء» منهى عنه أصلاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾^(١).

والحرب كدفاع شرعى ضد حرب، ليست منوطة بالأفراد فرداً بفرد، إنما منوطة بالشعب كافة باعتبارها أصل دولته، وبالتالي فهي منوطة بالدولة بعدئذ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾^(٢).

فهي منوطة إذن بالدولة التى يجب أن تكون مستعدة دائماً لمواجهة أى حرب عليها، لكيلا تفاجأ يوماً بهذه الحرب حال الشروع فيها أو حتى حال التهديد بها على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مِمَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(٣).

لكن على قدر استعدادها لمواجهة أى حرب من خارجها، بقدر ما يجب أن تكون مستعدة - فى نفس الوقت - للصلح بشأن وأد هذه الحرب، سواء قبل وقوعها أو حتى فى أثناءها أو بعد وقوعها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٤).

فهذا الاستعداد أو ذلك، أى كلاهما من سبل الوقاية من الحرب، والوقاية دائماً خير من العلاج، لما يترتب على الحروب من أضرار جسيمة ووخيمة على طرفيها أو على أطرافها بحسب الأحوال.

(١) ١٩٠/ البقرة، ٣٦/التوبة، ٦٠/الأنفال، ٦١/الأنفال.

وأهم سبل استعداد الدولة، ليس فقط وجود القوة المسلحة، إنما أيضاً تنظيم هذه القوة لكي تقاتل في سبيل الله، وبالتالي فإن خير تسمية لجهة تنظيمها هي «وزارة الجهادية» أو «وزارة الدفاع الشرعى عن الدولة» واختصاراً «وزارة الدفاع».

إنما الأفضل حالياً في مصر، تسميتها «وزارة الجهادية»، باعتبار أن الجهاد في سبيل الله واجب مقدس من ناحية، ولكيلا يتطرق إلى أحد تصور أن هذا الجهاد منوط بالأفراد فرداً بفرد من ناحية أخرى، فهذا الجهاد منوط بالشعب كافة وباعتباره أصل الدولة، وبالتالي فإن هذا الواجب المقدس منوط بالدولة ومُنظم بالقانون بمعناه التأويلي، أى بمعناه الذى يضم القرآن ولائحته التنفيذية (أى السنة) ولائحتها الفرعية أى القانون الوضعى (٥٩/ النساء).

الفرع السادس

مغارب مصر

٢٠٣- ما مدى حرمتها ؟

يُعد الطور هو إذن المغارب التى بارك الله فيها فى مصر (١٣٧/الأعراف)، منذ خلق سبحانه السموات والأرض (١٠/فصلت)، أى قبل خلق الإنسان.

فقد بارك سبحانه فى الطور، سواء قبل تسميته الطور، أو بعدها، وسواء من أعلاه حيث الجودى أو من جانبه الأيمن أو واديه المقدس، وبالتالي سيظل مباركاً إلى يوم القيامة، أى مباركاً إلى آخر الزمان. وهذا مدعاة للتساؤل الآتى: ما مدى حرمة إذن، ولو فى مواجهه بأجوج ومأجوج على الأقل، أو حتى فى مواجهة بنى إسرائيل على أقل الأقل؟

٢٠٤ - فى مواجهة بنى إسرائيل :

شهد منتصف القرن الخامس عشر فى مصر انقضاء عصر بنى إسرائيل بها، سواء انقضاء «ملكى» بنى إسرائيل بمصر وهما تبعاً: يوسف ثم فرعون الذى مات غرقاً، أو انقضاء سنوات تيه قوم موسى فى سيناء وقدرها أربعون سنة آنذاك (٢٦/المائدة).

وانقضاء هذه السنوات بعد وفاة موسى وأخيه ودفنهما فى سيناء لغاية الآن، قد واكبه خروجهم منها نهائياً على يد يوشع بن نون، الذى عاونه الله على خروجه بهم منها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (ما حُبست الشمس على بشر قط، إلا على يوشع بن نون، ليالى سار إلى بيت المقدس) (١).

٢٠٥ - فى مواجهة يأجوج ومأجوج :

وفى آخر الزمان، الطور هو «الملجأ» الذى سيلجأ إليه المسيح عيسى والناس، من شر يأجوج ومأجوج بعد خروجهم عقب مقتل المسيح الدجال، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (غير الدجال أخوفنى عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فأمرؤ حجيح نفسه، والله خليفتى على كل مسلم ... إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يميناً، وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا

(فبينما هو كذلك، إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق، ... فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتى عيسى قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة.

(١) الألبانى: السابق - ص ٩٨٢ رقم ٥٦١٢.

(فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إنى أخرجت عبداً لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادى إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون. فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء. ثم يسرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، وهو جبل ببيت المقدس فيقولون لقد قتلنا من فى الأرض، هلم فلننقل من فى السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً. ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم. فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة...)(١).

٢٠٦ - الحرب فى سيناء مؤخراً:

سيناء حيث توجد أعلى الأرض، شهدت مؤخراً حرباً عسكرية عام ١٩٦٧، حينما غلبت مصر ثم انتصرت بعدئذ فى بضع سنين، أى فى عام ١٩٧٣.

ولا نظير مطلقاً لهذه الحرب الحديثة، إلا تلك التى كانت قديماً فى أدنى الأرض، حال حياة خاتم الرسل، حينما غلب الروم ثم انتصروا بعدئذ فى بضع سنين (١-٤/الروم). فما هو إذن أدنى الأرض؟

المطلب الثالث

أدنى الأرض

٢٠٧ - تشعب موضوعه :

القرآن، قنن أعلى الأرض تفصيلاً وذلك على النحو السالف بيانه، دون أن يُقننه إجمالاً أى لم يحظ أعلى الأرض باصطلاح خاص به فى

(١) الألبانى: السابق - ص ٧٦٤ رقم ٤١٦٦.

القرآن. أما أدنى الأرض فقط حظى بتقنين له إجمالاً أى حظى باصطلاح خاص به فى القرآن (٣/الروم)، وجنباً إلى جنب تقنينه تفصيلاً وذلك على نحو ما سنعرضه من بعد.

لكن معرفة أعلى الأرض مُقدمة - تأويلياً - على معرفة أدنى الأرض. فلو لم نعرف أعلى الأرض من قبل، ما عرفنا بعدئذ ماهية أدنى الأرض، ولو أن قصة أدنى الأرض هى قصة مُتشعبة: ١- فلو لم نعرف أدنى الأرض حالياً، ما عرفنا أدنى الأرض قديماً. ٢- ولو لم نعرف أدنى الأرض قديماً وحالياً، ما عرفنا بعدئذ ماهية الحريين اللتين كتبهما الله على بنى إسرائيل فى أدنى الأرض (٤-٨/الإسراء).

٣- ولو لم نعرف أدنى الأرض قديماً، ما عرفنا إذن من أين بدأ فوران التنور، وطوفان نوح.

وعلى أى الأحوال، أدنى الأرض شأنه شأن أعلى الأرض، أى هو خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٩٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

الفرع الأول

القدس

٢٠٨- أدنى الأرض فى نشأته الآخرة:

المغرب المباركة فى سيناء على نحو ما تقدم بيانه، تقع فى مصر، ولا تقع إلا فى مصر، فلا هى تقع خارج مصر، ولا هى - حتى - تقع فى دولة جوار مصر، ولو كانت فلسطين حالياً.

فهذه المغرب المباركة هى إذن مغرب مصر، ومغرب مصر وحدها دون غيرها، وبالتالي ليست مغرباً بالنسبة لفلسطين مثلاً، ولا بالنسبة لبيت المقدس على الأقل. إنما العكس هو الصحيح بإطلاق. أى هى مشارق مباركة بالنسبة لبيت المقدس.

علماً بأن بيت المقدس، ليس مباركاً في ذاته، إنما المبارك هو «ما حوله» فحسب، وما حوله على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **﴿الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾**^(١).

والمبارك حول بيت المقدس، لا هو موجود في شرقه فحسب، ولا هو موجود في غربه فحسب، إنما موجود في شرقه وغربه على السواء، ولو لم يكونا على مسافة واحدة منه، أى حتى لو كان المبارك شرقه أبعد عنه كثيراً من المبارك غربه، الذى هو إذن أكثر قرباً من بيت المقدس، وذلك كما يلي:

فأولاً: المبارك شرق بيت المقدس، هى المغارب المباركة فى مصر، أى أعلى الأرض، وبالتالي انتبذت مريم من أهلها مكاناً شرقياً بالنسبة لبيت المقدس (١٦/مريم)، حتى حملت بابنها بعدئذ فانتبذت به مكاناً شرقياً وقصياً عن بيت المقدس (٢٢/مريم)، أى فى الحالين ابتعدت إلى أعلى الأرض فى مصر، وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

وثانياً: المبارك غرب بيت المقدس، هى حالياً: «القدس»، باعتبارها أدنى الأرض، ولو لم تكن أدنى الأرض فى نشأته الأولى تاريخياً، إنما هى أدنى الأرض فى نشأته الآخرة تاريخياً، وذلك منذ عصر موسى فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

علماً بأن أدنى الأرض مبارك من قبل موسى، ومن قبله بزمان طويل للغاية، إن لم يكن منذ خلق الله السموات والأرض.

٢٠٩ - القدس اصطلاحياً :

القدس اصطلاحياً هى اختصار اصطلاح «الأرض المقدسة»، التى أمر الله موسى وقومه بأن يدخلوها، لكن قومه عصوا هذا الأمر الإلهى

(١) ١/الإسراء.

وقتذاك، أى امتنعوا عمداً عن دخول هذه الأرض المقدسة، خوفاً ورعباً ممن كانوا بها آنذاك.

وذلك مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ... يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾^(١).

بل حتى كرروا عصيانهم لهذا الأمر الإلهى ذاته، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم مرة أخرى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ... قَالَ فَإِنَّهَا مُحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢).

وعلى أى الأحوال، قبل منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، كان أدنى الأرض مباركاً، ولكنه لم يكن قدساً بعد، ولم يصبح قدساً إلا بعد ذلك التاريخ، وحال حياة موسى. وحتى بعد أن أصبح قدساً، لم يدخله قوم موسى، وبالتالي لم يدخله موسى على الإطلاق، بل حتى لم يشهد موسى دخول قومه القدس على الإطلاق، لا هو ولا هارون حتى ماتا.

ورغم أنها كانت أرضاً مقدسة أى مباركة، وقت أن حملت مريم بإبنتها عيسى، لكن مريم لم تلجأ إليها قط، فلا هى احتجبت فيها من أهلها، ولا هى وضعت فيها إبنتها، وذلك لكونه أدنى الأرض على أى الأحوال، وليس أعلاها.

ومن باب أولى، مريم لم تضع إبنتها فى أى مكان آخر بفلسطين، لا فى بيت لحم، ولا فى غيره على الإطلاق، وبصرف النظر عما فى الكتاب

(١) ٢٠ و ٢١ و ٢٢/المائدة، ٢٤ و ٢٦/المائدة.

المقدس (٧٦/النمل). وقد رأينا من قبل أن مريم لم تضع ابنها إلا في أعلى الأرض، وفي ربوة ذات قرار ومعين، أى في الواد المقدس طوى.

٢١٠ - حرباً بنى إسرائيل في القدس :

هذه الحرب بدورها خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، مصداقاً لقوله تعالى في شأنهما: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾^(١). ويجب إذن التمييز بين نشأتى هذا الخلق (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: هذه الحرب فى نشأتها الأولى تاريخياً، هى الحرب التى تمخضت عن انهزام الروم حال حياة خاتم الرسل، ولم يكن المسلمون طرفاً فيها، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾^(٢).

وكان انهزامهم مؤقتاً، لم يتجاوز بضع سنين، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(٣).

ففى بضع سنين، جعلهم الله بأمره من قبل ومن بعد ينتصرون، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾^(٤).

وكان المسلمون متعاطفين مع الروم كأهل كتاب، ضد الفرس كمجوس وعبدة نار آنذاك، ولو لم يلبث خاتم الرسل أن حذر أمته من سنن الطرفين معاً، مصداقاً لقوله: (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى أخذ القرون قبلها

^(١) ٤/الإسراء، ٥/الإسراء، ٢-٥/الروم، ٤-٦/الإسراء.

شبراً بشبر، وذراعاً بذراع. قيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ قال: ومن الناس، إلا أولئك؟^(١).

وثانياً: هذه الحرب فى نشأتها الآخرة تاريخياً، لم يأت ميعادها بعد، ولو أن ميعادها آت لا محالة، وهى حرباً بين بنى إسرائيل من جانب وبين المسلمين من جانب آخر، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا. عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عَلَيْنَا...﴾^(٢).

وقول خاتم الرسل: (لا تقوم الساعة حتى يقتل المسلمون اليهود. فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر. فيقول الحجر أو الشجر، يا مسلم يا عبد الله: هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله، إلا الفرقد، فإنه من شجر اليهود)^(٣).

الفرع الثانى

مدين

٢١١ - أدنى الأرض فى نشأته الأولى:

تسمية أدنى الأرض بـ «القدس» هى تسمية حديثة للغاية، وبالتالي لم تكن موجودة حتى حال حياة خاتم الرسل، إنما كان المعروف آنذاك، «اصطلاح» الأرض المقدسة، سواء فى القرآن (٢١/المائدة) أو فى السنة مصداقاً لقول خاتم الرسل: (رأيت الليلة رجلين ، أتياى، فأخذا بيدي، فأخرجانى إلى الأرض المقدسة...)^(٤).

أما أدنى الأرض، فإنه أسبق فى الوجود تاريخياً من تسميته «القدس»، ومن حرب الروم حال حياة خاتم الرسل (١-٤/الروم)، ومن

(١) الألبانى: السابق - ص ١٢٣٥ رقم ٧٤٠٨.

(٢) ٧-٨/الإسراء.

(٣-٤) الألبانى: السابق - ص ١٢٣٨ رقم ٧٤٢٧، ص ٦٥٠ رقم ٣٤٦٢.

تسميته «الأرض المقدسة» حال حياة موسى فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد (٢١/المائدة).

فأدنى الأرض، لم يُصبح - حتى - الأرض المقدسة، إلا فى نشأته الآخرة تاريخياً، وذلك بعد أن كان فى نشأته الأولى تاريخياً هو: «مدين». وقد هاجر إليها موسى، شاباً أعزباً وخائفاً وفاراً من ملاً فرعون أن يقتلوه (٢٠-٢١/القصص). مصداقاً لقوله تعالى بشأن وجهة موسى فى هجرته من مصر وقتذاك: ﴿تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾^(١).

بل إن هجرة موسى من مصر لم تتجاوز مدين، التى كانت إذن نهاية رحلة هجرته آنذاك، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾^(٢).

ومدة بقائه فى مدين بلغت عقداً من الزمان، أى كانت عشر سنين قضاها فى مدين، وبدأها بتزوج واحدة من ابنتى «الشيخ الكبير» الذى تبناه منذ وطأت قدماه مدين، وذلك بعد أن استمع هذا الشيخ إلى قصته، وبعد عصر شعيب بزمان طويل للغاية.

وبعد عشر سنين فى مدين، سار موسى بأهله عائداً إلى مصر، حتى بلغ جانب الطور الأيمن، أى أعلى الأرض فى مصر، حيث بُعث نبياً ورسولاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿فَلَبِثْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ. وَأَصْنَعَنَّكَ لِنَفْسِي﴾^(٣).

إذن موسى، لا هو بدأ بعثته فى مدين، ولا هو أتم بعثته فى الأرض المقدسة التى امتنع قومه عن الدخول إليها، ولا هو حتى أول من هاجر إلى مدين كأرض مباركة، بل سبقه إلى ذلك تاريخياً إبراهيم ولوط، ولو لم يهاجرا إليها إلا بعد بعثتهما وصيرورتهما من الأنبياء والمرسلين. بينما هاجر موسى إليها قبل بعثته بعشر سنين.

(٣-١) ٢٢/القصص، ٢٣/القصص، ٤٠-٤١/طه.

٢١٢ - هجرة إبراهيم ولوط إلى مدين:

إبراهيم هو أول من هاجر إلى مدين من الأنبياء والمرسلين، ولو لم يُهاجر إليها منفرداً، إنما هاجر إليها بصحبة لوط الذى آمن له، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

وكانا بهذا أول من هاجر إلى مدين كأرض مباركة، من الأنبياء والمرسلين، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهما: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢).

وبعد أن استقر إبراهيم فى مهجره الجديد، لم يلبث أن رحل إلى مصر تصحبه زوجته سارة، ولم يرجعا وحدهما، أى لم يرجعا إلا بصحبة هاجر المصرية، التى دخل بها إبراهيم فى مدين بعدئذ، وأنجبت له ابنه البكر إسماعيل، الذى رحل طفلاً رضيعاً على صدر أمه ويصحبهما والده إلى مكة، حيث استقر بها إسماعيل حتى توفى بها وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

وبعد أربع عشرة سنة من ميلاد إسماعيل، تلقى مباشرة من ربه اللغة العربية «الخاتمة» و «المبينة» وذلك على نحو ما تقدم بيانه. بينما أنجبت سارة وقتذاك لإبراهيم ابنها البكر إسحاق، فى مدين أيضاً، التى استقر فيها حتى مات.

فلم يمنع من إنجاب إسحاق، لا هرم أمه ولا عقمها ولا شيخوخة أبيه، بل إن البشارة به من جانب الملائكة، كانت مقترنة بإعلانهم عن مهمتهم وقتذاك، وهى إيقاع العقاب الإلهى على قوم لوط، بسبب نقشى اللواط، وارتداد نادى المنكر على الأقل، أى كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

وكلاهما بُعث نبياً ورسولاً، ولو لم يبعثا فى مكان واحد، ولا فى زمان واحد من حياة أبيهما إبراهيم، ولا محل بعدئذ للخلط بينهما أو بين أعمالهما، ولا حتى فى شأن الفداء الإلهى بالذبح العظيم (٧٦/النمل).

(١) ٢٦/ العنكبوت، ٧١/ الأنبياء.

٢١٣- من الذى بُعث بعد إبراهيم ولوط؟

هاجر إبراهيم ولوط إلى الأرض المباركة، ولو اختص إبراهيم بمدين، بينما اختص لوط بإحدى ضواحيها مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿وَأَنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾^(١). فهى لم تكن تبعد كثيراً عن مدين، بل كان الطريق إليهما واحداً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَأِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾^(٢). وهذه الضاحية فى بداية نشأتها تاريخياً، وحتى فى عصر لوط، هى: «المؤتفكة» مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾^(٣)، أو «المؤتفكات» مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾^(٤). أما فى نشأتها الآخرة تاريخياً بعد عصر إبراهيم ولوط، فهى: «الأيكة»، وأهلها هم «أصحاب الأيكة».

ولم يُبعث بعد إبراهيم ولوط «مباشرة» إلا شعيب، الذى لم يُبعث إلى مدين دون الأيكة، ولا إلى الأيكة دون مدين، إنما بُعث إليهما معاً، مصداقاً لقوله تعالى بشأن بعثة شعيب إلى مدين: ﴿وَأَلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾^(٥). وقوله تعالى بشأن بعثة شعيب إلى المؤتفكة بعد أن صارت «الأيكة»: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٦).

بل حتى بُعث شعيب إليهما، ولم يكن قد مضى وقت طويل على ما وقع بقوم لوط، أى أهل المؤتفكة أو المؤتفكات، مصداقاً لقوله تعالى على لسان شعيب إلى أهل مدين أو أهل الأيكة أو إليهما معاً: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾^(٧).

إذن شعيب هو الذى خلف مباشرة إبراهيم ولوط، نبياً ورسولاً فى مدين والأيكة على السواء، وتمحورت دعوته آنذاك على محورين، هما: أن يتركوا

(١) ٧٦/ الحجر، ٧٩/ الحجر، ٥٣/ النجم، ٧٠/ التوبة، ٨٤/ هود، ١٧٦-

١٧٧/ الشعراء، ٨٩/ هود.

ما كان يعبد آباؤهم ويعبدوا الله وحده، وأن يكفوا عن الغش فى تعاملاتهم المالية، أى فى المكيال والميزان، ولو أن ذلك كان أمراً مُستغرباً ومستتكفاً من أهل مدين وأصحاب الأيكة على السواء، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتَّركَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾^(١).

أُيعقل بعدئذ أن هذا النبى والرسول، ليس هو إسحاق عينه؟ أو يُعقل أنه قد عاش فى مدين، حتى جاءها موسى مهاجراً، وقابله شيخاً كبيراً، وتزوج إحدى ابنتيه؟. فليرحمنا الله من تفشى الإسرائيليات فى ظل القرآن.

٢١٤ - شعيب هو إسحاق :

تلقى إبراهيم وسارة بشارة من السماء بإسحاق (٥٣/الحجر، ٢٨/الذاريات)، ومن بعد إسحق يعقوب (٧١/هـ). وكلاهما ليس له إسماً عربياً واحداً، إنما له إسمان فى القرآن. وذلك على اعتبار أنه حتى «الاسم» خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته، وفى ضوء تلقى إسماعيل العربية الخاتمة ووجودها جنباً إلى جنب العربية الجامعة (٣١-٣٣/البقرة)، وبالتالى وجود ظاهرة الإسمين:

فأولاً: إسحاق بلغة آدم العربية الجامعة، هو شعيب بلغة إسماعيل الخاتمة والمبينة، وقد أفاض القرآن فى بيان ما قام به شعيب وذلك فى الآيات ٨٥-٩٣ من سورة الأعراف، ومن ٨٤-٩٥ من سورة هود، ومن ١٧٦-١٩١ من سورة الشعراء وكذا ٧٨ و ٧٩ من سورة الحجر، بينما

(١) ٨٧/هود

يخلو هذا القرآن من بيان أى عمل فى سبيل الله قام به إسحاق، رغم أنه نبي ورسول.

كما أن إسرائيل بلغة آدم العربية الجامعة، هو يعقوب بلغة إسماعيل العربية الجامعة، وبالتالي لم يرد ذكر إسرائيل فى القرآن إلا فى ٩٣/آل عمران، و ٥٨/مريم.

وأيضاً إيل ياسين بلغة آدم العربية الجامعة، هو إسماعيل باللغة العربية الخاتمة والمبينة، وبالتالي لم يرد ذكر «إيل ياسين» إلا فى ١٣٠/الصافات.

وثانياً: حتى قائمة ذرية نوح وإبراهيم فى الآيات ٨٤ - ٨٦ من سورة الأنعام، بها إسحاق دون شعيب، وبها يعقوب دون إسرائيل، وبها إسماعيل دون إيل ياسين.

وثالثاً: شعيب هو إذن إسحاق، وإسحاق هو شعيب، الذى خلف مباشرة إبراهيم ولوط، وخلفهما نبياً ورسولاً فى مدين والأيكة على السواء، وذلك بصرف النظر عما فى الكتاب المقدس على الأقل (٧٦/النمل)، وعما فى شروح القرآن وقصصه، تلك الشروح التى تتعامل مع إسحاق على استقلال وتتعامل مع شعيب على استقلال، وكأنهما ليسا شخصاً واحداً، ولا نبياً ورسولاً واحداً، حتى لو كان له إسمين فى القرآن، أى حتى لو كان شأنه شأن ابنه على الأقل من الوجهة الإسمية على أقل الأقل.

لكن شعيب أو إسحاق من الأنبياء والمرسلين، الذين لم تطأ أقدامهم مصر على الإطلاق، وذلك خلافاً لابنه على الأقل، أى خلافاً ليعقوب أو إسرائيل الذى حضر إلى مصر فى زمن يوسف، وظل بها حتى توفى فيها (١٣٣/البقرة).

الفرع الثالث

مدين

وطوفان نوح

٢١٥ - بداية الطوفان :

مدين باعتبارها أدنى الأرض، لم تكن مباركة منذ هاجر إليها إبراهيم ولوط فحسب، إنما هي مباركة من قبل ذلك تاريخياً، ومباركة حتى في عصر نوح، حيث كان لأدنى الأرض دوره المبارك في الطوفان ومنذ بدايته.

فالعلامة على بداية الطوفان كانت فوران التنور بأمر الله، تلك البداية التي تقتضى من نوح أن يُجهز السفينة للإبحار، أى يُحملها بالبضائع والركاب، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْتَكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾^(١).

أما فوران التنور، فإنه يبدأ من أدنى الأرض قبل الأعلى فالأعلى من الأرض، أى يبدأ من مدين باعتبارها أدنى الأرض، ويبدأ منها قبل غيرها من الأرض، ففيها عيون الماء الجوفى قريبة من سطح الأرض، وأقرب كثيراً من نظائرها في أى أرض أخرى، ولو لم تكن «أعلى الأرض». وهذه العيون مجتمعة هي تنور إجمالاً. أما تفصيلاً، فهي تتانير، وكل تنور بمثابة مخزن ماء جوفى، أى بيت على بناء التنور، الذى أعلاه ضيق وأسفله واسع، قياساً على قول خاتم الرسل: (رَأَيْتَ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ ... فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ... فَاَنْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، فَإِذَا بَيْتٌ مَبْنَى عَلَى بِنَاءِ التَّنُّورِ، أَعْلَاهُ ضَيْقٌ، وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ.....)^(٢).

(١) ٢٧/المؤمنون.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٦٥١ رقم ٣٤٦٢.

٢١٦ - اكتمال الطوفان :

لكن طوفان نوح لم يكن وليد تفجر عيون الماء الجوفى فى مدين فحسب، ولا فى مدين وفى غيرها من الأرض، إنما كان وليد التقاء هذا الماء الجوفى فى الأرض بالماء المنهمر من أبواب السماء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾**(١).

وهكذا اكتمل الطوفان، أى طغى الماء، وبالتالي حمل الله السفينة ومن بها من أسلافنا، الذين لولاهم ما كان خلفاؤهم موجودين جيلاً بعد جيل لغاية الآن، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **﴿لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾**(٢). وقلنا آنفاً، أنها لم ترسو إلا على أعلى الأرض بإطلاق، أى الجودى، الذى هو جبل الطور.

٢١٧ - نشأتا الطوفان تاريخياً :

وهكذا فالطوفان بدوره خلق من خلق الله، وهذا الخلق له بالضرورة نشأتان تاريخياً، (٤٩/الذاريات)، ويجب إذن التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: الطوفان فى نشأته الأولى تاريخياً، هو طوفان نوح على نحو ما تقدم بيانه، ومصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ... فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾**(٣).

وثانياً: الطوفان فى نشأته الآخرة تاريخياً، هو الطوفان الذى شهدته مصر فى عصر فرعون، أى فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد،

(١-٣) ١١-١٢/القمر، ١١/الحاقة، ١٤/العنكبوت.

مصدقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُتَسَحَّرَ بِهَا بِمَا فَمَّا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ (١).

والطوفان في الحالتين هو أحد جنود الله، التي لا يعلمها سواه سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (٢). لكن طوفان نوح كان الأشد والأقوى، لأن قومه كانوا الأظلم والأطغى، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ (٣).

٢١٨ - معالم أخرى:

على أن معالم أدنى الأرض، لا تقتصر على فيضان التنور في عصر نوح، إنما تطل معالم أخرى، منها ما يلي:

أولاً: تصنيع الحديد لأول مرة تاريخياً في القرن العاشر قبل الميلاد، على يد داود عليه السلام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ (٤). وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ﴾ (٥).

وثانياً: تصنيع النحاس لأول مرة تاريخياً في القرن العاشر قبل الميلاد، على يد سليمان عليه السلام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ (٦).

وبعدئذ صنع ذو القرنين سبيكة الحديد والنحاس معاً، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (٧).

(٧-١) ١٣٢-١٣٣ / الأعراف، ٣١ / المدثر، ٥٢ / النجم، ١٠-١١ / سبأ، ٨٠ / الأنبياء،

١٢ / سبأ، ٩٦ / الكهف.

المطلب الرابع الأحقاف

٢١٩ - عنوان سورة:

عاصمة الأرض وأعلى الأرض وأدنى الأرض، هي «أراضين» مباركة، وباركها الله في اليومين التاليين، بعد يومى خلق الأرض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ... فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾^(١).

لذا وردت تلك الأراضين المباركة عدداً وحسراً في القرآن. ومن ثم، فلا تقبل الإنقاص منها ولا الإضافة إليها، لا بطريق القياس ولا بطريق الاجتهاد. وبالتالي ليس منها مثلاً «قم» الإيرانية و «كربلاء» العراقية وبصرف النظر عن قداستهما الزائفة لدى الشيعة.

بل ليس منها - حتى - «الأحقاف»، التي هي موضوع اصطلاح قرآنى، فضلاً عن كونها عنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هي السورة رقم (٤٦)، أى «سورة الأحقاف». وعلى أى الأحوال، فإن شأنها شأن عاصمة الأرض وأعلاها وأدناها، أى هي خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً، ويجب التمييز بين نشأته.

الفرع الأول

الأحقاف

قبل الطوفان

٢٢٠ - الأحقاف الأولى تاريخياً:

الأحقاف قبل طوفان نوح، هي الأحقاف فى نشأتها الأولى تاريخياً، والتي شهدت ميلاد نوح ذاته، وحياته التى طالت ألفاً إلا خمسين عاماً (١٤/العنكبوت)، أى أقل مما عاشه آدم الأول بعشر سنين. وهذا التناقص

(١) ٩-١٠/فصلت

فى عمر الإنسان واكبه جريان تاريخه عشرة قرون، أى عشرة عصور تباعاً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون) (١). علماً بأن الإنسان بعد آدم الأول، لا يتناقص عمراً فحسب، إنما أيضاً يتناقص بدنياً.

٢٢١ - بعثة نوح :

كما شهدت هذه الأحقاف بعثة نوح إلى قومه (٥٩/الأعراف، ٢٥/هود)، ولو لم يؤمن به منهم إلا القليل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٢). بل إن قومه قد اعتبروا هذا القليل بمثابة «الأراذل» على الأكثر، وعلى ما يبدو منهم لأول وهلة، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (٣). وقوله تعالى: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٤).

فلم تؤمن به، حتى زوجته، التى شأنها فى ذلك شأن زوجة لوط بعدئذ. فكلتاها لم تؤمن برسالة زوجها، وبالتالى انضمت إلى أعدائه الكافرين، ومن ثم خانته، مصداقاً لقوله تعالى بشأن مآلهما: ﴿... فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (٥).

وأيضاً لم يؤمن به، حتى ابنه، المفتون بجننتيه وثمرهما ونهرهما وماله وبنيه، والمتباهى بهم على أخيه المؤمن أيوب (٣٢-٤٤/الكهف)، وبالتالى لم يُغن نوح عنه من الله شيئاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٦).

(١) مشار إليه فى ابن كثير: السابق - ص ٥١.

(٢-٦) (٤٠/هود، ١١١/الشعراء، ٢٧/هود، ١٠/التحریم، ٤٦/هود.

٢٢٢ - نشأة السفينة الأولى :

وأيضاً شهدت هذه الأحقاف نشأة «السفينة» لأول مرة تاريخياً، وهى لم تكن قبل ذلك معروفة لأحد على الإطلاق، فلا كانت معروفة لنوح، أو لغيره من قومه، ولا معروفة لأى قوم آخر غير قومه، وبالتالي لم يكن نوح يعرف شيئاً عن كيفية صناعة هذه السفينة، حتى تلقى هذا العلم مباشرة من ربه، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾ (١). وقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾ (٢).

لذا لم تكن هذه السفينة بدائية الصنع، إنما كانت كاملة هندسياً، سواء من حيث محورها الطولى وعوارضها المقوسة المتعامدة عليه، أو من حيث الألواح الطويلة المتوازية مع المحور والتي تكسو تلك العوارض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ (٣).

وكانت مهياًة للملاحة، حتى الملاحة فى الموج العالى علو جبال الأرض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (٤). إذ لم يكن معصوماً من الطوفان آنذاك سوى جبل الطور باعتباره أعلى الأرض بإطلاق، وبالتالي صار بمثابة ميناء الوصول لهذه السفينة، أى الجودى الذى رست عليه فى آخر رحلتها (٤٤/هود).

بل كانت - حتى - مهياًة لحمل البضائع وحمل الركاب على السواء (٤٠/هود)، فدورها لم يكن نقل حمولتها من مكان غير مبارك (الأحقاف) إلى مكان مبارك (الطور) فحسب، إنما كان أيضاً نقل هذه

(١-٤) ٢٧/المؤمنون، ٣٧/هود، ١٣/القمر، ٤٢/هود.

الحمولة كاملة، أى بأمان من الغرق حتى فى الطوفان، وبالتالى كانت هذه السفينة وستظل إلى مالا نهاية بمثابة «آية» مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(١).

٢٢٣- دور نوح :

تمخض دور نوح عن إخراج بعض قومه من الظلمات إلى نور ربهم، ونقل هذا البعض من مكان غير مبارك هو الأحقاف إلى مكان مبارك هو أعلى الأرض بإطلاق، وذلك بإذن الله، الذى خصه سبحانه بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها هى السورة رقم (٧١)، أى «سورة نوح».

الفرع الثانى

الأحقاف بعد الطوفان

٢٢٤- الأحقاف الآخرة تاريخياً:

الأحقاف بعد الطوفان، هى الأحقاف فى نشأتها الآخرة تاريخياً، وهى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢). أى الأحقاف فى عصر «عاد الأولى» تاريخياً (٢٠/النجم).

فبعد رسو السفينة فى أعلى الأرض، وهبوط ركابها منها، حتى إبنى نوح، لم يعد أحدهما إلى موطن نوح قبل الطوفان وهو أيوب الذى بُعث نبياً ورسولاً بعدئذ وذلك على نحو ما تقدم بيانه، بينما عاد الآخر وهو «إرم» إلى

^(١) ١٥/القمر، ٧-٨/الفجر.

موطن نوح قبل الطوفان، أى عاد إلى الأحقاف وذلك هو «عاد» الذى لم يُبعث نبياً ورسولاً.

ومنه نشأ قوم عاد فى الأحقاف بعدئذ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾^(١). ونشأ هذا القوم باعتباره قرناً آخرًا بعد قوم نوح، مصداقاً لقوله تعالى بعد قصة نوح مباشرة: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾^(٢). وقوم عاد بهذا خلفاء قوم نوح فى الأحقاف، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿... إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً...﴾^(٣).

٢٢٥- بعثة هود :

كان الرسول إلى قوم عاد من ربهم هو: «هود»، الذى كان واحداً من نفس القوم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَالى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾^(٤). وكان هو أول وآخر النذر إليهم، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾^(٥). لأنهم كذبوا رسولهم، فأهلكهم الله، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾^(٦).

٢٢٦- دور هود :

تمخض دور هود عن إخراج البعض من قومه من الظلمات إلى نور ربهم، وبالتالي خصه القرآن بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (١١)، أى «سورة هود»، التى يقول خاتم الرسل بشأنها: (شيببتي هود

^(١) ٢١/الأحقاف، ٣١/المؤمنون، ٦٩/الأعراف، ٦٥/الأعراف، ٢١/الأحقاف، ٥٠/النجم.

وأخواتها قبل المشيب) (١). ويقول أيضاً: (شيبتني هود وأخواتها من
المفصل) (٢).

الفرع الثالث

الأحقاف بعد عاد

٢٢٧ - عاد الآخرة تاريخياً:

الذي خلق عاد الأولى تاريخياً في الأحقاف من قبل، قادر سبحانه
على أن يخلق عاداً الآخرة تاريخياً من بعد، ولو يخلقها سبحانه من هود
والذين آمنوا معه من عاد الأولى تاريخياً، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم مرة:
﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُم مِّنْ
عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٣). وقوله تعالى بشأنهم مرة أخرى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٤).

٢٢٨ - قوم ثمود:

عاد الآخرة تاريخياً هم «قوم ثمود»، الذين خلفوا عاد الأولى في
الأحقاف، وبوأهم الله في أرضها سهولاً وجبالاً وقصوراً وبيوتاً، مصداقاً لقوله
تعالى بشأنهم: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَا فِي الْأَرْضِ
تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا
تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٥). لكنهم لم يلبثوا أن غفلوا عن ذكر الله وعاثوا
في الأرض مفسدين.

(١) الألباني: السابق - ص ٦٩٢ رقم ٣٧٢١، ص ٦٩٢ رقم ٣٧٢٢.

(٢) (٥٨/هود، ٧٢/الأعراف، ٧٤/الأعراف).

٢٢٩ - بعثة صالح :

كان الرسول إلى قوم ثمود من ربهم هو: «صالح»، الذي كان واحداً منهم، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَالِي ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾^(١). وقد فاجأهم بما أتاهم به بعد بعثته، ولم يكونوا قد توقعوه منه قبل بعثته على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾^(٢).

بل إنهم طلبوا آية - حتى - عليه هو نفسه كرسول، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣). فكانت «الناقة» هي هذه الآية، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٤). وقوله تعالى في شأن ماهيتها: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٥).

لكن هؤلاء، لا هم آمنوا، ولا هم سكتوا، إنما شرعوا - حتى - في قتل صالح وأهله وتفوقوا على خطة القتل، مصداقاً لقوله تعالى في شأن هذه الخطة: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٦).

ولما فسدت هذه المؤامرة، قتلوا الناقة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَّكْدُوبٍ﴾^(٧). وبعد هذه المهلة، دمرهم الله، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَا هُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بَيِّنَاتٌ لِّمَنْ ظَلَمُوا

(١) ٦١/هود، ٦٢/هود، ١٥٤/الشعراء، ١٥٥/الشعراء، ٧٣/الأعراف، ٤٨-

٥٠/النمل، ٦٥/هود.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»^(١). أما الذى قتل الناقة، فهو أشقى الناس بإطلاق مصداقاً لقول خاتم الرسل: (ألا أحدثكم بأشقى الناس؟ رجلين: أحيمر ثمود الذى عقر الناقة و)^(٢).

٢٣٠ - أصحاب الحجر:

وقوم ثمود أو عاد الآخرة تاريخياً، هم «أصحاب الحجر» مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجْرِ الْمُرْسَلِينَ. وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾^(٣).

والحجر هى ديار ثمود، الذين جابوا الصخر بالواد، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾^(٤). وهذا الواد هو «واد القرى»، الذى مر به خاتم الرسل والناس فى طريقهم إلى غزوة تبوك، فأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت الناقة تتردد عليها، دون البئر الأخرى التى كانت شرباً لقوم ثمود. وقول خاتم الرسل: (شر ماء على وجه الأرض ماء بواى برهوت، بقبة حضر موت كرجل الجراد من الهوام، تصبح تتدفق وتمسى لا بلال لها)^(٥).

٢٣١ - الحجر :

الحجر، ليس مجرد اصطلاح فى القرآن فحسب، إنما هو أيضاً عنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (١٥)، أى «سورة الحجر».

الفرع الرابع

بعد ثمود الأولى

٢٣٢ - ثمود الآخرة تاريخياً:

الذى خلق ثمود الأولى تاريخياً من قبل، قادر سبحانه على أن يخلق ثمود الآخرة تاريخياً من بعد، ولو يخلقها سبحانه من صالح والذين آمنوا معه من ثمود الأولى، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم مرة: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا

(١) ٥١-٥٢/النمل.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٥٠٥ رقم ٢٥٨٩.

(٣) ٨٠-٨٢/الحجر، ٩/الفجر.

(٤) الألبانى: السابق - ص ٦٢٧ رقم ٣٣٢٢.

صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ. وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَن لَّمْ
يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْضًا لَّتَمُودَ^(١). وقوله تعالى بشأنهم
مرة أخرى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(٢).
٢٣٣ - قوم تبع:

وتمود الآخرة تاريخياً هم «قوم تبع»، الذين تعاقب عليهم ثلاثة رسل،
حتى أصبحوا مثلاً في هذا الشأن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا
أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ. إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا
فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾^(٣).

وقد جرى بينهم وبين رسلهم الحوار التالي مصداقاً لقوله تعالى في
شأنه: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
تَكْذِبُونَ. قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ.
قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالُوا
طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾^(٤).
٢٣٤ - تبع :

ليس مؤكداً أن تبع كان نبياً أو رسولاً، مصداقاً لقول خاتم الرسل
بشأنه: (ما أدري أتبع أنبياء كان أم لا) (٥)؟. لكن المؤكد أن تبع قد آمن
وقتذاك، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى
قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ. وَمَا
لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ

(١) ٦٦-٦٨/هود، ٥٣/النمل، ١٣-١٤/يس، ١٥-١٩/يس.

(٢) الألباني: السابق - ص ٩٦٩ رقم ٥٥٢٤.

الرَّحْمَنُ بَضْرًا لَا تُعْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ. إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿١﴾. وقول خاتم الرسل بشأنه: (لا تسبوا تُبَعًّا، فإنه كان قد أسلم) (٢).

وهو بهذا من أهل الجنة، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٣). وقول خاتم الرسل بشأنه مرة: (إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود) (٤). وقوله بشأنه مرة أخرى: (إن ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة) (٥).

أما هلاك قومه، فلا كان في حاجة إلى جند من السماء، ولا كان يلزمه تنزيل هذا الجند، إنما يكفيه مجرد صيحة، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ. إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَاذَا هُمْ خَامِدُونَ. يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦).

٢٣٥ - سبأ :

وقد اختص تُبَعُّ بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، التي هي السورة رقم (٣٤)، أي «سورة سبأ».

(١) ٢٠-٢٥/يس.

(٢) الألباني: السابق - ص ١٢٢٣ رقم ٧٣١٩.

(٣) ٢٦-٢٧/يس.

(٤-٥) مشار إليهما لدى محمد متولى الشعراوى: السابق - ص ٢٩٩ و ص ٣٠٠

على التوالي.

(٦) ٢٨-٣٠/يس.

الفرع الخامس بعد قوم تبع

٢٣٦ - أصحاب الرس :

قوم تبع شأنهم شأن أى خلق من خلق الله، أى له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات). ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت). ففى نشأتهم الآخرة تاريخياً، هم «أصحاب الرس».

وكان الرسول من ربهم إليهم هو: «اليسع». الذى كذبوه، وبالتالي كذبوا بآيات الله، فأهلكهم سبحانه، شأنهم فى ذلك شأن عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا لَهُمُ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا. وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾^(١).

ولم يعد باقياً من آثارهم المادية الباقية لغاية الآن، سوى «الرس»، أى البئر، التى هى معطلة، وجنباً إلى جنب القصر الذى كان مشيداً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾^(٢).

٢٣٧ - أصحاب الأخدود :

قرون كثيرة تلك التى انقضت فيما بين قوم نوح حتى أصحاب الرس على الأقل (٣٧-٣٨/الفرقان)، الذين هم بدورهم خلق من خلق الله، وهذا الخلق له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت).

وهم فى نشأتهم الآخرة تاريخياً «أصحاب الأخدود»، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا

^(١) (٣٧-٣٨/الفرقان، ٤٥/الحج).

فَعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»^(١).

وقول خاتم الرسل بشأنهم: (كان ملك فيمن كان قبلكم ... فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتى الملك، فقيل له: أرايت ما كنت تحذر؟. قد والله نزل بك حذر، قد آمن الناس. فأمر بالأخدود بأفواه السكك، فحُذت، وأضرم النيران. وقال: من لم يرجع عن دينه فاقموه فيها. ففعلوا. حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها. فتقاعست أن تقع فيها. فقال لها الغلام: يا أمه أصبري فإنك على حق)^(٢).

٢٣٨ - أصحاب الفيل:

وكذا أصحاب الأخدود بدورهم، أى خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات). ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت). وهم فى نشأتهم الآخرة تاريخياً «أصحاب الفيل»، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾^(٣).
وقول خاتم الرسل: (إن الله حبس عن مكة الفيل)^(٤).

وهو الفيل الذى استقوى به أصحابه، وشرعوا فى انتهاك حرمة مكة، التى هى أول عاصمة للأرض تاريخياً، وعاصمة دائماً أى قديماً وحالياً وإلى ما لا نهاية، وبالتالي أهلكتهم الله، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن:

(١) ٩-٤/البروج.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٨٢٤ رقم ٤٤٦١.

(٣) ٢-١/الفيل

(٤) الألبانى: السابق - ص ٣٦٠ رقم ١٧٤٥.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ. تَزْمِيهِمْ بِحِجَابِ رِجَالٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾^(١).

وقد خص القرآن هذا الفيل بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، وهي السورة رقم (١٠٥)، أي «سورة الفيل». ففي نفس هذا العام، وبعد هذا الشروع في انتهاك حرمة مكة بأشهر معدودة، ولد خاتم الرسل.

ولا يجب أن يفهم من ذلك أن تهديد حرمة مكة والبيت العتيق هو أمر مُستبعد بعدئذ. لأن العكس هو الصحيح، أي أن هذا التهديد أمر متوقع، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لا تنتهي الناس عن غزو هذا البيت، حتى يغزو جيش، حتى إذا كانوا بالبيداء، أو بببداء من الأرض، خسف بأولهم وآخرهم، ولم ينج أوسطهم. قيل: فإن كان فيهم من يكره؟ قال: يبعثهم الله على ما في أنفسهم)^(٢).

بل غير مُستبعد - حتى - عبادة اللات والعزى، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى. ثم يبعث الله رجلاً طيبه، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان. فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم)^(٣).
٢٣٩ - خلاصة:

إذن على القارئ ملاحظة أن الحديث عن «جغرافية معالم الأرض»، قد انتهى بالكلام عن عاصمة الأرض كما بدأ بالكلام عن عاصمة الأرض. وضم الكلام عن أعلى الأرض والكلام عن أدنى الأرض، وكذا الكلام عن «الأحفاف» و «الحجر».

(١) ٣-٥/ الفيل،

(٢-٣) الألباني: السابق - ص ١٢٤٣ رقم ٧٤٦٥، ص ١٢٧١ رقم ٧٦٨٣.

المبحث السادس
جغرافية
العصر الحجري

مقدمة المبحث

٢٤٠ - كيف ومتى بدء العمران فى الأرض ؟

خلق الله الإنسان من الأرض (٥٥/طه)، وجعله خليفة فيها (٣٠/البقرة)، لكى يعمرها مادياً (٦١/هود)، ولو تعميراً حجرياً على الأقل، وبالتالي كان العمران الحجرى Stone age هو أول العمران تاريخياً.

لكن لم يحدث هذا العمران على يد آدم الأول، ولا شارك فيه، إنما حدث حال حياته على أى الأحوال، ولو لم يحدث إلا فى القرن الأول من الثلث الأخير من عمره، أى لم يحدث إلا فى مرحلة متأخرة من عمره، وعلى يد ولدين من أولاده آنذاك، وكلاهما نبي ورسول.

وبدهى أنهما لم يشهدا عصر «الشجرة الخبيثة» الذى مر به آدم وزوجه فى الجنة، ولا هذه الشجرة وحدها الخبيثة التى تفتن الإنسان بعدئذ، وبالتالي تتوزع محتويات المبحث الراهن على مطلبين: الأول: فى المنشآت الحجرية الأولى. والثانى: فى الشجرة الخبيثة.

المطلب الأول

أول

منشآت حجرية

٢٤١ - تمهيد:

أول وأقدم منشآت حجرية أقامها الإنسان فى الأرض، مرتبطة بوجوده فى هذه الأرض منذ أهبط إليها قديماً، ولا تزال موجودة فى الأرض لغاية الآن، ولو أن صانعها لا يزال مجهولاً وغامضاً ومبهماً منذ آلاف السنين، وبالتالي فإن محتويات المطلب الراهن تتوزع على الفروع التالية:

الفرع الأول: أول بيت للناس.

الفرع الثانى: ثانى بيت للناس.

الفرع الثالث: تمثال رأس أول إنسان.

الفرع الرابع: مسجد أصحاب الكهف.

الفرع الأول أول بيت للناس

٢٤٢ - متى بدأ العصر الحجري؟

لم يبدأ العصر الحجري تاريخياً، إلا بعد أن انصرم ثلثى عمر آدم الأول فى الأرض التى أهبط إليها. علماً بأن عمره كاملاً، لم يبلغ يوماً واحداً بحساب اليوم عند الله، أى لم يبلغ ألف سنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(١). ومن ثم، لن يبلغ عمر أحد بعده ألف سنة على الإطلاق، حتى لو كان المشرك الذى يتمنى أن يُعمر هذه الألف سنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(٢).

وعلى أى الأحوال، طوال عمر آدم الأول فى الأرض، لا كان هناك أى عصر جليدى Ice age، ولا كان الإنسان يعيش فى الكهوف، ولا بدأ العصر الحجري إلا فى الثلث الأخير من عمر آدم، ولا هو نفسه أقام أى منشآت حجرية وقتذاك، لا هو ولا الملائكة.

٢٤٣ - أين بدأ العصر الحجري؟

العصر الحجري بمعناه العلمى، لم يبدأ جغرافياً إلا فى عاصمة الأرض أى بكة وقتذاك، ولم يبدأ نوعياً إلا بالحجر الأسود الذى هو أول معرفة الإنس بالحجر stone، ومعرفتهم بدوره ودورهم فى إعمار الأرض.

فهذا الحجر، ليس من حجارة الجنة فحسب، إنما هو أيضاً أسبق تاريخياً فى الإعمار الأرضى من حجارة الأرض، بل هو - حتى - أسبق تاريخياً فى النزول إلى الأرض من حجارة النار، أى «حجارة من سجيل».

(١) ٤٧/ الحج، ٩٦/ البقرة.

علماً بأن هذه الحجارة من سجيل هي بدورها خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلي: ١- فهي فى نشأتها الأولى تاريخياً، حجارة من سجيل نزلت على قوم لوط فى المؤتفكة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّتَّصُودٍ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾^(٢). ٢- وهى فى نشأتها الآخرة تاريخياً، حجارة من سجيل نزلت على أصحاب الفيل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾^(٣).

بهذا تساوى اللواط والشروع فى هدم الكعبة، من حيث العقوبة الجنائية وهى الإعدام، أى القتل مصداقاً لقول خاتم الرسل: (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)^(٤). وهى نفس عقوبة القتل. ولا تنفيذ لهذه العقوبة القضائية إلا بالسيف، وبصرف النظر عن سببها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (عقوبة هذه الأمة بالسيف)^(٥). فلا يجوز إذن تنفيذها صعقاً بالكهرباء أو حقناً بالسم أو شنقاً بالحبل، أو رمياً بالرصاص (النار)، أو حرقاً بالنار، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إنى كنت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً بالنار، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن أخذتموهما فاقتلوهما)^(٦). وقوله: (إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار)^(٧).

^(٣-١) ٨٢/هود، ٧٤/الحجر، ٣-٤/الفيل.

^(٧-٤) الألبانى: السابق - ص ١١٢١ رقم ٦٥٨١، ص ٧٤٣ رقم ٤٠١٧، ص ٤٨٥

رقم ٢٤٧٣، ص ٤٧٦ رقم ٢٤٢٣.

٢٤٤ - أول معرفة الإنس بالحجر :

لم يعرف الإنس الحجر، قبل معرفته الحجر الأسود، الذى هو من حجارة الجنة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (الحجر الأسود من حجارة الجنة)^(١). وهو بدوره خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت): فهو فى نشأته الأولى تاريخياً، كان أكثر بياضاً من الثلج، ثم فى نشأته الآخرة تاريخياً أصبح أسوداً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (كان الحجر الأسود أشد بياضاً من الثلج، حتى سودته خطايا بنى آدم)^(٢).

بل هو - حتى - خلق ناطق، وناطق فى الدنيا، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إنى أعرف حجراً بمكة، كان يُسلم علىّ قبل أن أبعث)^(٣). كما هو ناطق فى الآخرة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن لهذا الحجر لساناً وشفقتين يشهد لمن استلمه يوم القيامة بحق)^(٤). لكن أول من عرف هذا الحجر ببكة قديماً هو إدريس. مثلما كان داود فى أدنى الأرض بعد ذلك بآلاف السنين هو أول من عرف «الحديد»، الذى بدوره أنزل من السماء (٢٥/ الحديد).

٢٤٥ - قبل بعثة إدريس :

فى مطلع القرن الأول من الثلث الأخير من عمر آدم (٦٤٠-٧٤٠ سنة)، ولد إدريس، الذى «أدرك من حياة آدم ثلثمائة سنة وثمان سنين»^(٥) تقريباً.

وحتى بعثة إدريس، لم تكن الناس تعرف شيئاً عن البيوت الحجرية، أى كانوا يعيشون فى بيوت من جلود الأنعام، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا

(١) الألبانى: السابق - ص ٤٢٠ رقم ٢٠٩٠، ص ٦٠٦ رقم ٣١٧٥، ص ٤٨٨ رقم ٢٤٨٧، ص ٨٢٠ رقم ٤٤٤٩.

(٥) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء - ١٩٨٥ - مكتبة دار التراث - ص ٣٨.

الشأن: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾^(١). إذن لم تكن الكهوف بيوتاً لهم، ولا كانوا يبيتون فى العراء، ولا كانوا عرايا (٨١/طه).

٢٤٦ - بعد بعثة إدريس :

بوأ الله لهذا الرسول مكان أول بيت «حجرى» يضعه للناس. وبوأه له بالحجر الأسود من الجنة، ولو لم يقتصر دوره على أن يُحدد لإدريس مكان هذا البيت، إنما لكى يبين له ماهية الحجر أصلاً الذى سيقطع مثله من الجبال، لكى يبنى إذن أول بيت.

ويسر الله إدريس لبناء هذا البيت، وبالتالي كان أول من تلقى مباشرة من ربه «علم الكتابة»، ولو لم تكن أكثر من كتابة على الرمل آنذاك، مصداقاً لقول خاتم الرسل عندما سئل عن أول من خط الرمل: (كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك)^(٢).

ومن ثم، حدد إدريس مكان الأساس على الرمل، قبل أن يحفره، ووضع فيه القواعد بعد أن حفره، أى وضعها تحت سطح الأرض، قبل أن يبنى عليها الجدران، وذلك لكى تقوم الناس بعدئذ ببناء بيوتهم من الحجارة بدلاً من جلود الأنعام، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾^(٣).

فقد حدث ذلك فى «طسم» بالعربية الفاتحة، بعد أن أصبحت «بكة» بلغة آدم العربية، وقبل أن تُصبح بعدئذ «مكة» بلغة إسماعيل

(١) ٨٠/النحل.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٨٢٤ رقم ٤٤٦٢.

(٣) ٩٦/آل عمران.

العربية ، وبالتالي شرع الناس فى بناء بيوتهم من الحجاره المنحوتة من الجبال، واعتادوا على ذلك تباعاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾^(١).

٢٤٧- بعد عصر إدريس ونوح :

لما جاء طوفان نوح هدم جدران البيت الذى بناه إدريس من قبل، ولو لم يهدم سوى جدرانه، دون قواعدہ الموجودة تحت سطح الأرض، وبالتالي بوأ الله لإبراهيم بعدئذ مكان هذا البيت، وبوأه له بنفس الحجر الأسود، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾^(٢)..

وبنى إبراهيم بمعاونة ابنه إسماعيل جدران البيت على نفس قواعدہ التى بناها إدريس من قبل، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾^(٣). وهكذا كما عاون ذو الكفل إدريس من قبل فى بناء هذا البيت لأول مرة تاريخياً، عاون إسماعيل إبراهيم فى بنائه بعدئذ لأخر مرة تاريخياً، وبالتالي استحقوا الذكر معاً فى القرآن، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٤).

٢٤٨- إدريس وإبراهيم :

إذن لم يكن لآدم ولا لنوح أى دور فى بناء هذا البيت، لا فى بنائه أول مرة تاريخياً، ولا فى بنائه آخر مرة تاريخياً، ولو أن هذا الخلق قد

^(١) ١٤٩ / الشعراء، ٢٦ / الحج، ١٢٧ / البقرة، ٨٥-٨٦ / الأنبياء.

استوفى نشأته تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بينهما على النحو السالف بيانه (٢٠/العنكبوت).

وليس معنى هذا بالبداهة، أن الملائكة هي التي قامت ببناء هذا البيت لأول مرة تاريخياً، حتى لو كانت الملائكة هي التي نزلت بالحجر الأسود من الجنة إلى الأرض لأول مرة تاريخياً، وذلك هو كل دورها في هذا الشأن.

فهذا البيت هو بناء أقامه إدريس في عصره ثم إبراهيم في عصره، وكلاهما استحق الذكر في القرآن، والذكر على استقلال، وعلى قدم المساواة لما قاما به نحو هذا البيت الذي هو أصل البيوت الحجرية تاريخياً، أي هو «البيت العتيق» (٢٩/الحج، ٣٣/الحج)، وذلك مصداقاً لقوله تعالى بشأن إدريس: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(١). وقوله تعالى بشأن إبراهيم: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٢).

٢٤٩ - الكعبة :

وقد شهد البيت العتيق في نشأته الآخرة تاريخياً، تطوراً ملحوظاً في دوره، لدرجة أنه لم يعد مجرد «بيت للناس» ولو كان مباركاً في ذاته (٩٦/آل عمران)، وإنما أصبح «بيتاً لله» وحده، الذي عهد عندئذ إلى إبراهيم وإلى ابنه إسماعيل بتطهيره وقتنئذ للحج وللصلاة معاً، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(٣).

^(١) (٥٦/مريم، ٤١/مريم، ١٢٥/البقرة).

وبهذا أصبح البيت العتيق بيتاً لله وحده. أما بالنسبة للناس، فهو مثابة لهم وأمناً، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَأَذِّبْنَا بِنَبِيِّكُمْ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (١). ومن ثم أصبح - حتى - بيتاً حراماً، وللناس قياماً، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ (٢).

وكان إبراهيم أول من أذن في الناس بالحج تاريخياً، وبناء على أمر ربه، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٣). ولو أن إبراهيم أول من أقام الصلاة آنذاك وفي نفس الوقت وفي نفس المكان، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (٤).

٢٥٠ - المسجد الحرام :

حتى الكعبة باعتبارها البيت الحرام، أصبحت «المسجد الحرام» وذلك بعد بعثة خاتم الرسل، وبالتالي تكرر كثيراً استخدام هذا الاصطلاح الأخير في القرآن كما هو الشأن في (١٤٤ و ١٤٩ و ١٥٠ و ١٩١ و ١٩٦ و ٢١٧ من سورة البقرة، وفي ٢/ المائدة، ٣٤/ الأنفال، ٧ و ١٩ و ٢٨ من سورة التوبة، ١/ الإسراء، ٢٥/ الحج، ٢٥ و ٢٧ من سورة الفتح).

وانقطاع الحج إلى هذا البيت انقطاعاً كاملاً، بمثابة علامة من علامات اقتراب الساعة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لا تقوم الساعة حتى لا يُحج البيت) (٥)، كما كان الحال في الفترة بين نشأته تاريخياً.

(١) ١٢٥/ البقرة، ٩٧/ المائدة، ٢٧/ الحج، ٩٧/ آل عمران.

(٥) الألباني: السابق - ص ١٢٣٧ رقم ٧٤١٩.

٢٥١- دور الحجر الأسود :

لا يجوز مطلقاً النظر إلى الحجر الأسود بمعزل عن البيت العتيق، فقد تلازما معاً منذ قديم، وكانا لازمين لبعضهما حتى الان وإلى ما لا نهاية. فهذا الحجر stone صاحب البيت العتيق منذ نشأته لأول مرة تاريخياً على يد إدريس، وفي نشأته الآخرة تاريخياً على يد إبراهيم، وحتى الآن وإلى ما لا نهاية، وأدى هذا الحجر عدة أدوار متباينة، كما يلي:

فأولاً: بوأ هذا الحجر لإدريس ثم لإبراهيم مكان أول بيت وضع للناس في الأرض، وقبلها عرف منه إدريس الكيفية التي يكون عليها الحجر، خاصة الحجر الذي يبني به.

وثانياً: لا يزال الطواف حول الكعبة يبدأ من هذا الحجر، ولا يبدأ الطواف إلا بالسلام عليه على الأقل، ولو بالإشارة إليه على أقل الأقل، ويستمر الطواف تباعاً سبع مرات.

وثالثاً: هو ليس من حجارة الأرض أصلاً، وبالتالي فلا أقل من تقبيله تبركاً بالجنة على الأقل، أو تمنياً لها على أقل الأقل. فهو من حجارة الجنة، ولو أنه حجر على أي الأحوال، وبالتالي فلا ضير مطلقاً من تقبيله على الأقل، ولو تقبيله كما فعل خاتم الرسل على أقل الأقل.

وعلى أي الأحوال، كان نزول هذا الحجر من الجنة إيذاناً بالإعمار الحجري في الأرض، ذلك الإعمار الحجري الذي أوله البيت العتيق. فهو أول بيت وضع للناس في الأرض، وبالتالي كان هذا الحجر وذاك البيت بداية العصر الحجري وتاريخياً ونوعياً على السواء، وكانت هذه البداية في عاصمة الأرض جغرافياً، أي في «بكة» آنذاك.

وهكذا فالعصر الحجري، لا هو مجهول البداية تاريخياً، ولا بدايته غامضة الموضوع نوعياً، ولا موضوعها مُبهم أو قابل للاختلاط بالكهوف

أو صيد الحيوانات الضارية، ولا هذا العصر يقتصر على بدايته وحدها،
ولا بدايته تقتصر على البيت العتيق وحده.

الفرع الثانى

ثانى

بيت للناس

٢٥٢ - البيت الثانى تاريخياً وعالمياً:

لم تكن بكة موطناً لأول بيت للناس حال حياة آدم الأول، إلا لكونها
عاصمة للأرض بإطلاق، وبالتالي فهى ليست أقدم عاصمة فى الأرض
تاريخياً فحسب، إنما هى أيضاً الأصل التاريخى لعواصم الأرض حتى
يوم القيامة، أى أم القرى بإطلاق.

أما البيت الثانى حال حياة آدم الأول، فهو «البيت الأقصى». أى
البعيد عن «بكة» من ناحية، وخارج حتى إطار جزيرة العرب من ناحية
أخرى، ولو أن شأنه شأن البيت العتيق باعتباره بيتاً عالمياً للناس، كما أن
كلاهما خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)،
ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

٢٥٣ - نشأة أولى للبيت الأقصى:

بعد بناء البيت العتيق ببكة لأول مرة تاريخياً، رحل إدريس وذو
الكفل إلى «مدين» بلغة آدم العربية والتي أصبحت «الأرض المقدسة»
بلغة إسماعيل بعدئذ.

وخارج مدين، وجنباً إلى جنبها، أقاما بيتاً آخراً للناس، كان بمثابة
أول بيت حجرى فى هذه البقعة النائية عن بكة، والخارجة عن الجزيرة
العربية، ولو أنه ثانى بيت حجرى تاريخياً وعالمياً.

وأقيم هذا البناء بدوره حال حياة آدم الأول، أى فى القرن الأول من الثالث الأخير من عمر آدم، بل حتى بعد أربعين سنة على الأكثر من نشأة البيت العتيق فى نفس القرن، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (أول مسجد وضع فى الأرض، المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى، وبينهما أربعون سنة....)(١).

ولا يزال الغموض والإبهام والتجهيل يكتنف «علاقة» إدريس وذى الكفل والبيت العتيق والبيت الأقصى، حتى الآن، وبالتالي لم يعد أحد يعرف شيئاً عن أمرين: ١- من هو صانع أول بيتين حجريين للناس، أى البيت العتيق والبيت الأقصى، ومتى أقامهما تاريخياً؟. ٢- من هو إدريس ومن هو ذو الكفل، ومتى كانا موجودين تاريخياً، وماذا كان دورهما فى الأرض وقتذاك؟

أى أن هذه العلاقة بين الرجلين وبين البيتين لا تزال من «المجاهيل» فى أدمغة المخاطبين بالقرآن، الذى صحح - حتى - لبنى إسرائيل أكثر ما كانوا يخطئون فيه تاريخياً (٧٦/النمل). فلا آدم، ولا من سواه من الأنبياء والمرسلين أحد أقام هذين البيتين لأول مرة تاريخياً، عدا إدريس وذو الكفل.

٢٥٤- نشأة آخرة للبيت الأقصى:

لم تفلت جدران هذا البيت بدورها من طوفان نوح، والذى هدمها، ولو ظلت مهدمة حتى عصر سليمان بن داود فى القرن العاشر قبل الميلاد، أى بعد عصور إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود.

(١) الألبانى: السابق - ص ٥٠٤ رقم ٢٥٧٩.

وكما أقام إبراهيم جدران الكعبة لثاني مرة تاريخياً بعد أن هدمها الطوفان، وأقامها على نفس قواعد إدريس من قبل، فإن سليمان أقام بعدئذ جدران البيت الأقصى لثاني مرة تاريخياً وأقامها على نفس قواعد إدريس من قبل، مصداقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (إن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس، سأل الله عز وجل خلافاً ثلاثة: سأل الله حكماً يصادف حكمة، فأوتيه. وسأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأوتيه. وسأل الله حين فرغ من بناء المسجد أن وأرجو أن يكون قد أعطى الثالثة) (١).

وعبثاً يبحث الإسرائيليون تحت هذا المسجد عن كنوز دفنها سليمان، الذي لم يدفن شيئاً، إنما أقام جدران المسجد على نفس قواعد إدريس من قبل، وبالتالي لم يجدوا شيئاً مما يبحثون عنه رغم طول مدة الحفر لغاية الآن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢).

٢٥٥ - مدى اختلاف البيت الأقصى عن البيت العتيق:

المسجد الأقصى ليس مباركاً في ذاته، وذلك لسببين: ١- فهو يقع خارج الأرض المباركة أو الأرض المقدسة وذلك من ناحية. ٢- وهو يخلو من أي حجر من حجارة الجنة، وذلك من ناحية أخرى. وهو بهذا يختلف عن البيت العتيق الذي هو مبارك في ذاته ومنذ نشأته لأول مرة تاريخياً، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ (٣).

(١) الألباني: السابق - ص ٤٢٠ رقم ٢٠٩٠.

(٢-٣) ٧٨/ البقرة، ٩٦/ آل عمران.

وهكذا لم يكن بيت المقدس مباركاً على الإطلاق، أى لم يكن مباركاً فى نشأته الأولى تاريخياً، ولا مباركاً فى نشأته الآخرة تاريخياً، إنما المبارك هو «ما حوله» فحسب، وما حوله على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾^(١)، ولو لم يلتفت أحد إلى هذه الحقيقة بعد، ولا إلى ما يترتب عليها من آثار كما يلي:

أولاً: لم يستجب الله للمسألة الثالثة التى سألتها سليمان من ربه بعد أن فرغ من بناء بيت المقدس لآخر مرة تاريخياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنها: (إن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس، سأل الله عز وجل خلالاً ثلاثة: وسأل الله حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه، أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ... وأرجو أن يكون قد أعطى الثالثة)^(٢).

وثانياً: الصلاة فى بيت المقدس، لا هى بمائة ألف صلاة كالكعبة، ولا هى - حتى - بألف صلاة كالمسجد النبوى بالمدينة، إنما هى مجرد صلاة كأى صلاة فى مسجد من المساجد التى هى لله، ولو كان بيت المقدس أحد ثلاثة مساجد تشد الرحال إليها، دون غيرها على الإطلاق، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى)^(٣).

وثالثاً: القبلة الحق فى الأرض، ليست ناحية بيت المقدس، فلا هو قبلة للحج، ولا هو قبلة للصلاة، وبالتالي لم يكن قبلة صلاة المسلمين إلا كاستثناء مؤقت لم يتجاوز العمل به سنة ونصف على الأكثر، أى لم يكن

(١) ١/ الإسراء.

(٢-٣) الألبانى: السابق - ص ٤٢٠ رقم ٢٠٩٠، ص ١٢٢٥ رقم ٧٣٣٢.

مقرراً آنذاك كقاعدة عامة أو دائمة زمانياً (١٤٣ و ١٤٥ و ١٤٢/البقرة). لأن القبلة تجاه المسجد الحرام هي القبلة الحق في الأرض (١٤٤ و ١٤٩/البقرة)، فهي قبلة للحج وقبلة للصلاة على السواء.

٢٥٦ - أهمية البيت الأقصى :

أولاً: وجوده جغرافياً فيما بين أدنى الأرض وأعلى الأرض، وهما المبارك حوله، أى المبارك حوله غرباً وهو أدنى الأرض، والمبارك حوله شرقاً وهو أعلى الأرض، وذلك على نحو ما تقدم بيانه بشأنهما.

وثانياً: سيظل بيت المقدس أحد المنشآت الحجرية الأولى، تاريخياً، وعالمياً، والموجودة لغاية الآن وإلى ما لا نهاية، ولو لم يكن هذا المسجد مباركاً، ولا مقدساً على الإطلاق. ولا الصلاة فيه أكثر من صلاة عادية، كأى صلاة فى أى مسجد آخر.

وثالثاً: هذا المسجد ينتظر «وعد» الحرب الآخرة تاريخياً فى أدنى الأرض، مصداقاً لقوله تعالى إلى بنى إسرائيل: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتَّبِرًا﴾^(١).

فهي حربهم مع المسلمين، الذين دخلوا هذا المسجد أول مرة تاريخياً فى عصر الخليفة عمر، ولو لم يعد المسلمون يزهدون الدنيا أو يحبون الموت، وتلك هي نقطة ضعفهم أمام أعدائهم مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قيل: يا رسول الله فمن قلة يومئذ؟. قال: لا. ولكنكم

(١) ٧/الإسراء.

غشاء كغشاء السيل، يجعل الوهن فى قلوبكم، ويُنزع الرعب من قلوب
عدوكم، لحبكم الدنيا وكرهيتكم الموت(١).

وعلى أى الأحوال، يستعجل الإسرائيليون تلك الحرب وذلك بكثرة
كذبهم فى شأن أحقيتهم للقدس وللمسجد الأقصى، ولو أن لهذه الحرب
ميعاد مُعين عند الله، ولم يأت ميعادها بعد.

٢٥٧- دار الإسلام بالشام :

إن إعادة بناء بيت المقدس بعد الطوفان، لم تكن من شأن إبراهيم
أو لوط أو إسحق (شعيب) أو يعقوب (إسرائيل)، ولا من شأن موسى
وهارون اللذين ماتا ودفنا فى سيناء، ولا حتى من شأن يوشع بن نون
الذى دخل بقوم موسى وهارون إلى بيت المقدس لأول مرة تاريخياً، رغم
أن الشمس قد حُبست له مصداقاً لقول خاتم الرسل: (ما حُبست الشمس
على بشر قط، إلا على يوشع بن نون، ليالى سار إلى بيت
المقدس)(٢).

ولم يحبسها الله إلا بدعاء يوشع آنذاك، لسبب يتعلق بغنائم الحرب،
والتي لم تكن تحل لأحد قط، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لم تحل الغنائم
لأحد سود الرؤوس من قبلكم. كانت تجمع وتنزل نار من السماء
فتأكلها)(٣).

فقد رفضت هذه النار أن تأكل غنائمه وقتذاك، مصداقاً لقول خاتم
الرسل: (غزا نبى من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعنى منكم رجل ملك

(٣-١) الألبانى: السابق - ص ١٣٤٣ رقم ٨٠٨٢، ص ٩٨٢ رقم ٥٦١٢، ص ٩٢٢

بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها، ولما بين بها. ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينظر ولادها. فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريباً من ذلك. فقال للشمس، إنك مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا. فحبست حتى فتح الله عليه.

(فجمع الغنائم، فجاءت النار لتأكلها، فلم تطعمها. فقال: إن فيكم غلواً، فليباعني من كل قبيلة رجل. فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول. فلتباعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده. فقال: فيكم الغلول. فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها...)(^١).

وبعدئذ خص القرآن «الغنائم» بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هي السورة رقم (٨)، أى «سورة الأنفال»، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا)(^٢).

بل إن إعادة بناء بيت المقدس، لم تكن - حتى - من شأن الأنبياء المتعاقبين بعد يوشع بن نون حتى داود والد سليمان، إنما كانت من شأن سليمان وحده مؤخراً، وذلك لا يعنى بالبداهة صيرورة هذا البيت ميراثاً إسرائيلياً، رغم أنه موجود منذ عصر آدم، وموجود فى الشام الذى هو عقر دار الإسلام مؤخراً مصداقاً لقول خاتم الرسل: (عقر دار الإسلام بالشام)(^٣).

(^١) الألبانى: السابق - ص ٧٦٢ رقم ٤١٥٣، ص ٧٦٢ رقم ٤١٥٣، ص ٧٤٣

الفرع الثالث

تمثال

رأس الإنسان الأول

٢٥٨ - من صانعه ؟

لا يزال الغموض والإبهام والتجهيل يكتنف «العلاقة» بين إدريس وذى الكفل من من ناحية، وبين البيت العتيق والبيت الأقصى والتمثال الموجود بالجيزة لرأس الإنسان من ناحية أخرى. ومن ثم، فلا أحد من المخاطبين بالقرآن يعرف شيئاً عن «صانع» تلك المنشآت الحجرية تباعاً.

بينما الحقيقة أنه بعد إنشاء البيت العتيق ثم البيت الأقصى لأول مرة تاريخياً، رحل إدريس وذو الكفل إلى «مصر»، التى لم تكن قد وطأتها أقدام أحد من قبل، وبالتالي كانا أول من وطأت أقدامهما مصر فى نهاية القرن الأول من الثلث الأخير من عمر آدم الأول، أى حال حياته.

وفى مصر، أقاما لها هذا التمثال الضخم الموجود بالجيزة لرأس الإنسان، كما أقاما بها حتى نهاية عمرهما، وبالتالي انقطعت أخبارهما عن وطنهما الأصلي بكة، ولو أصبحا - فى نفس الوقت - أصل المصريين تاريخياً، وبالتالي لم ينصفهما المؤرخون بعد، لا المؤرخون فى وطنهم الأصلي، ولا المؤرخون - حتى - فى وطنهم المختار أى مصر.

ومن ثم فلا أحد يعرف - حتى - من هو صانع هذا التمثال على الأقل؟ وفى نفس الوقت، لا أحد يعرف لماذا استحق إدريس - مثلاً - مكانه

العلی فی السماء بعد وفاته مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾^(١). وقول خاتم الرسل بشأنه: (لما عُرج بي رأيت إدریس فی السماء الرابعة)^(٢)؟.

وأيضاً، لا أحد يعرف ما هية أول لغة مصرية تلك التي استقدمها إدریس وذو الكفل من وطنهما الأصلي بكة، وحال حياة آدم الذي تلقى من ربه مباشرة لغة الإنسان العربية (٣١/البقرة)؟ في حين أن إجابات تلك الأسئلة موجودة في القرآن، الذي نزل تبياناً لكل شيء بإطلاق (٨٩/النحل)، ولم يُفِط في بيان أى شيء على الإطلاق (٣٨/الأنعام). والذي جاء هو والسنة إلى مصر عام ٢٠هـ/٦٤٢م، أى أتياها في وقت مُبكر للغاية، وذلك قبل أن ينقضى عقد واحد على وفاة الرسول عام ١١هـ/٦٣٢م، وحتى قبل أن ينقضى عصر صاحبيه بوفاة الخليفة عمر عام ٢٣هـ/٦٤٤م.

٢٥٩ - من هو «أبو الهول»؟

آدم الأول، هو أول إنسان تاريخياً، وبالتالي أبو الإنسان، أى والد ولده ولداً بولد إلى يوم القيامة، بل هو - حتى - أبو الإنسان الذي خُلِق في كبد، وبالتالي فهو أبو الكبد أو «أبو الهول»، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(٣).

ولا يزال آدم الأول في كبده أو هوله لغاية الآن، ولو في كبد أو هول على حال بنيه من أهل النار على الأقل، وذلك على نحو ما وجده

(١) ٥٧/مريم.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٩٢٦ رقم ٥٢١٢.

(٣) ٣-٤/البلد.

عليه خاتم الرسل فى ليلة المعراج، مصداقاً لقوله فى هذا الشأن : (قلت يا جبريل من هذا؟. قال هذا آدم. وهذه الأسود عن يمينه وعن شماله نسم بنيه. فأهل اليمين أهل الجنة، والأسود التى عن شماله أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى)(١).

ولأن تمثال رأس الإنسان بالجيزة هو تمثال رأس آدم الأول، الذى هو أبو الهول، فإن صانع التمثال لم ينقش إسمه على قاعدة تمثال رأسه، لا إسم كنيته أى أبو الهول، ولا إسمه الحقيقى أى آدم. فلا هو فى حاجة إلى التعريف به، ولا وارد - حتى - أن يُخطئ أولاده فى التعرف عليه، مهما طال بهم الزمان.

وعبثاً يبحث الباحثون جيلاً بعد جيل عن هوية الإنسان صاحب التمثال الضخم بالجيزة، وبالتالى لم يجدوا حتى الآن سوى الغموض والإبهام والتجهيل فى هذا الشأن(٢). لأنهم يبحثون بمعزل عن القرآن والسنة، ومعزل إذن عن «الإنسان» فى هذا القرآن، الذى خص الإنسان بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٧٦)، أى «سورة الإنسان».

٢٦٠ - كيف هى «رأس آدم»؟

الرأس فى تمثال الجيزة، هى رأس آدم الأول، ورأسه على حقيقتها حجماً وشعراً على الأقل. فأولاً: هى رأسه بحجمها على الحقيقة، أى بحجمها الذى يتناسب مع طول قامته، وبمراعاة أنه أطول إنسان قامه

(١) الألبانى: السابق - ص ٧٧٣ رقم ٤١٩٩.

(٢) انظر بالتفصيل، سليم حسن: أبو الهول (بالإنجليزية) - ترجمة جمال الدين سالم

- مكتبة الأسرة ١٩٩٩ - ص ٧٤-٩٨.

بإطلاق، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: (خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذراعاً ... فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن)(١).

فهى إذن رأس إنسان، بطول ٣٣ متراً (٦٠ ذراع × ٥٥ سم)، أى بطول عمارة ارتفاعها أحد عشر طابقاً، وبالتالي فهى بحجم رأسه الحقيقى، ولو لم يسبق أن حاول أحد تقدير طول صاحب الرأس فى تمثال الجيزة، إلا العراقى المشهور «عبد اللطيف البغدادى».

لكنه قدر هذا الطول بمعزل تام عن آدم الأول فى الحديث، وبالتالي قدر طول صاحب الرأس بسبعين ذراعاً، وذلك بقوله حرفياً: «عند أحد هذه الأهرام رأس هائل بارز من الأرض فى غاية العظم. ويقتضى القياس أن تكون جنته نسبة إلى رأسه سبعين ذراعاً فى الطول»(٢).

وهو تقدير خاطئ فى نتيجته: ١- فلا أحد من الناس أطول قامة من آدم، ولو بذراع واحدة. وبالتالي فطول صاحب الرأس فى التمثال ليس أكثر من ستين ذراعاً بأى حال من الأحوال.. ٢- ولا أحد من الناس بطول السلسلة التى يُقيد بها مجرمى الناس يوم القيامة، أى بطول سبعين ذراعاً، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها لكل مجرم: «ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ»(٣).

وثانياً: هى رأس آدم الأول، ليس فقط بحجمها الذى يتناسب مع طول قامته، إنما أيضاً بما يتناسب مع كثافة شعره، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأنه: (إن الله خلق آدم رجلاً طويلاً كثير شعر الرأس، وكأنه

(١) الألبانى: السابق - ص ٦١٥ رقم ٣٢٣٣.

(٢) مشار إليه فى سليم حسن: السابق - ص ٨٧.

(٣) ٣٢/الهاقة.

نخلة سحوق^(١). وقوله أيضاً: (إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق، ستون ذراعاً، كثير الشعر، موارى العورة...)^(٢).

وهكذا لم يُصنع تمثال رأس آدم إلا حال حياته، ومن متفرس في ملامحه عن قرب، وذى خبرة في التعامل مع الحجارة والصخور، ولم يكن في وسعه عمل تمثال كامل لآدم الأول، أى تمثال له رأساً وجسداً معاً، وبالتالي اكتفى بعمل تمثال لرأسه، ولرأسه على حقيقتها حجماً وشعراً، وملامحاً.

٢٦١ - توجه بصره ناحية المشرق :

يتجه تمثال رأس آدم الأول، بنظره ناحية المشرق وحده، دون غيرها من الجهات، بل هو يتجاوز - حتى - المشرق داخل حدود مصر، إلى المشرق خارجها، أى إلى «طسم» بلغة الملائكة والتي أصبحت «بكة» بلغة آدم العربية والتي أصبحت «مكة» بلغة إسماعيل بعدئذ.

فبكة، ليست فقط عاصمة الأرض، إنما هى مسقط قدمى آدم فى الأرض، حال إهباطه إليها لأول مرة تاريخياً، وبالتالي فهى فى مقام مسقط رأسه، ولو لم يكن له مسقط رأس أصلاً، وبالتالي فهو يتجه إليها بنظره دائماً، وكذا تمثال رأسه، ولو كان هذا التمثال موجوداً فى مصر، التى لم تطأها قدما آدم على الإطلاق.

كما أن فى مكة كهيعص بلغة الملائكة أى مريم بلغة آدم ثم زمزم بلغة إسماعيل، ومنها كان الماء اللازم لخلق الطين، الذى منه بدء خلق آدم الأول (٧/ السجدة).

(١) مشار إليهما لدى ابن كثير: السابق - ص ٣٠.

وهكذا فالتمثال، وإن كان ينظر إلى شئ في الشرق، لكن هذا الشئ ليس هو الشمس بداهة^(١). بل إن هذا الشئ ليس موجوداً خارج آدم فحسب، إنما هو أيضاً موجود داخله في نفس الوقت أى هو مسقط قدماء في الأرض. كما هو حتى موجود في صانعي هذا التمثال أى في إدريس وذى الكفل اللذين قدما من بكة أصلاً.

٢٦٢ - إقامة التمثال في مصر :

لماذا أقيم تمثال رأس آدم الأول، في مصر تحديداً دون غيرها من البقاع، وفي الجيزة تحديداً دون غيرها من الأقاليم المصرية؟

أولاً: مصر هي الأولى من غيرها بتمثال آدم الأول، الذى هو فى الأصل قبضة من تراب «الواد المقدس طوى» الموجود فى المغارب المصرية المباركة، وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

وثانياً: الجيزة من مشارق مصر، وليست من المغارب المصرية المباركة، بل حتى أبعد ما تكون عن تلك المغارب، لكيلا يُضفى المصريون بعدئذ على التمثال قداسة زائفة، كما هو الشأن فى تمثال بوذا مثلاً.

وثالثاً: الجيزة تقع فى منتصف واد النيل المصرى، وبالتالي فهى أول إقليم قبلى للذاهب إلى جنوب الوادى، وأول إقليم بحرى للذاهب إلى شمال الوادى، كما هى آخر إقليم بحرى للذاهب جنوباً وآخر إقليم قبلى للذاهب شمالاً، وبالتالي فهى إقليم بحرى/قبلى على السواء.

وبذا فإقامة هذا التمثال فى مصر حال حياة آدم، بمثابة بداية للتاريخ المصرى، سواء على مستوى الأشخاص آدم وإدريس وذى الكفل،

(١) قارن العكس، سليم حسن: السابق - ص ٢٣.

أو على مستوى المنشآت الحجرية وقتذاك أى البيت العتيق والبيت الأقصى وتمثال رأس آدم. أو - حتى - على مستوى اللغة العربية التى استقدمها معهما إدريس وذو الكفل من بكة، وبالتالي أصبحت أول لغة مصرية تاريخياً.

٢٦٣- دور التمثال علمياً:

تمثال آدم الأول، لا هو بيت كالبيت العتيق أو بيت المقدس، ولا هو مبارك أو مقدس شأنه فى ذلك شأن بيت المقدس، ولا حتى ألحقت به دار عبادة على الإطلاق، وبالتالي لم يكن له أى دور دينى مباشر أو غير مباشر فى الحياة المصرية فى أى عصر.

وليس معنى هذا بالبداهة، أن يقتصر دور هذا التمثال على دور سياحى على الأكثر، بحيث يُعامل كمزار سياحى، أى مزار يقصده السائحون لمجرد مشاهدته، وأخذهم صوراً تذكارية معه بحسب الأحوال.

لأنه أحد المنشآت التى ترجع بأصلها إلى أول العصر الحجرى تاريخياً وعالمياً على السواء. وهذه المنشآت لم تسبقها تاريخياً أى منشآت حجرية على الإطلاق، ولا لها أى نظائر عالمياً، وبالتالي سيظل هذا التمثال يثير تساؤلات فى غاية الأهمية علمياً، وذلك كما يلي:

فأولاً: هو تمثال آدم الأول، الذى هو الإنسان فى نشأته الأولى تاريخياً. فمن عساه يكون بعدئذ الإنسان فى نشأته الآخرة تاريخياً، ما لم يكن هو المسيح عيسى ابن مريم (٥٩/آل عمران)، طالما أن الله لم يخلق من أى خلق - ولا حتى من الإنسان - واحداً فحسب (٤٩/الذاريات)؟.

علماء بأن آدم الأول لم يمر بمرحلة حمل به أو مخاض فيه أو إرضاع له أو فصام أو طفولة على الإطلاق، وذلك على عكس عيسى

الذى مر بهذه المراحل واحدة بواحدة. إذن الله لم يعييه خلق الإنسان الأول تاريخياً، ولا يعنيه بعدئذ إلتباس الناس فى شأن خلق الإنسان الأخير تاريخياً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(١).

وثانياً: هو تمثال آدم كأول إنسان تاريخياً. وهو تمثال له على صورته الكاملة، ولو لم يكن تمثالاً لجسده إلا معنوياً على الأكثر، وبالتالي تمخض عن تمثال لرأسه فحسب. لكن هذا لم يمنع من معرفة جسد آدم على الأقل، ولا من معرفة أجساد الناس فى عصورهم الأولى فى الأرض.

ألم يكونوا كأنهم أعجاز نخل (٣٠/القمر، ٧/الحاقة)، أى كانوا أشد منكم قوة (٦٩/التوبة)، حتى قالوا من أشد منا قوة (١٥/فصلت)، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها (٩/الروم)، وبالتالي كانوا أشد قوة وأثاراً فى الأرض (٢١/غافر، ٨٢/غافر)؟.

وثالثاً: هل مشكلة «الهرم الأول» تختلف كثيراً عن مشكلة تمثال رأس آدم، أم هى بدورها راجعة إلى دراسته بمعزل عن القرآن والسنة؟

فأبو الهول لم يكن يوماً شخصية نكرة فى التاريخ الإنسانى، وبالتالي لم يُفرد القرآن ولا السنة فى بيان هذه الشخصية، باعتبارها شخصية آدم الأول، ولو لم يُنقش إسمه على قاعدة تمثال رأسه ولا على غيرها، لا إسمه الحقيقى كآدم ولا إسم كنيته على الأقل وهو أبو الهول، ولا حتى إسم

(١) ١٥/ق.

صانعه، ولا زمان صناعته التى ليست أحدث من صناعة بيت المقدس
بزمان طويل.

الفرع الرابع

مسجد

أصحاب الكهف

٢٦٤- مدى وجود هذا المسجد حالياً:

هذا المسجد «عنصر» فى قصة أصحاب الكهف، الذى خصه القرآن بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (١٨)، أى «سورة الكهف»: ١- وطالما أن القرآن قد ذكر هذا المسجد، فإنه بالضرورة مسجد موجود لغاية الآن، وسيظل موجوداً إلى يوم القيامة، أى لم يكن هذا المسجد موجوداً فى الماضى فحسب. ٢- وطالما هو مسجد موجود على الدوام منذ بنائه إلى يوم القيامة، فلا أقل من أن نبحت عنه على سطح الأرض حولنا، فلا بد أن نجده حتماً هنا أو هناك.

٢٦٥- أين يوجد هذا المسجد حالياً؟

هذا المسجد لم يوجد يوماً إلا فى مصر، ولو لم يوجد فيها إلا باعتبارها وتداً من أوتادها، أى جبلاً من جبالها، التى هى «أوتاد مصر» قبل أن تكون أوتاد أى ملك فى مصر، حتى لو كان هذا الملك هو «فرعون» الذى لم يتجاوز قط «فرعون موسى»، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه مرة: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾^(١) وقوله تعالى بشأنه مرة أخرى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذُو الْأَوْتَادِ﴾^(٢) بحسب الأحوال.

(١) ١٠/الفجر، ١٢/ص~.

وستظل مصر تتميز دائماً بتلك الجبال خاصة، سواء قبل فرعون موسى، أو حال حياته، أو بعد غرقه، ولو لم تشهد مصر ملكاً آخرًا من ملوكها إسمه فرعون على الإطلاق، بل حتى لم تشهد مصر أى ملك من ملوكها إسمه «خوفو» على الإطلاق. فالحقيقة أن خوفو هذا لم يكن إسمًا لملك فى مصر، إنما كان إسمًا لانطباع بنطبع حال رؤية أصحاب الكهف رقوداً فى كهفهم وقبل موتهم، مصداقاً لقوله تعالى بشأن هذا الانطباع تحديداً: ﴿لَوْ اَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَّئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ (١).

ويجب ان نعوض بالنواجذ على «الأوتاد المصرية»، باعتبارها المميز المصرى فى القرآن، لكيلا نضحى بها بعدئذ قرباناً لأى مميز آخر مصطنع كما هو الشأن فيما يلى على الأقل:

فأولاً: مصر لا تتميز بوجود «نهر النيل» بها كما يذهب - حتى - الدستور المصرى الحالى (م ٤٤ دستور)، ولم تتميز يوماً بوجوده. فهذا النهر، لا هو موجود كله بها، ولا هو غير موجود فى سواها، ولا الموجود منه فيها إلا مصبه على الأكثر. ولا مصبه حتى نيل واحد، إنما هو جمع من الأنهار، أحدها يمتد من حدود السودان ومصر إلى القناطر، ثم آخر يمتد حتى دمياط، وثالث يمتد حتى رشيد، وذلك منذ منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد ولغاية الآن، مصداقاً لقوله تعالى على لسان فرعون إلى قومه آنذاك: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢).

(١) ١٨ / الكهف، ٥١ / الزخرف

٢٦٦- وثانياً: مصر لم تتميز يوماً بوجود الملوك «الفراعنة» أو «الفراعين»، لا قبل فرعون موسى، ولا حال وجوده، ولا بعد غرقه: فاصطلاحياً، فرعون هو إسم، ولو لم يكن إسم وظيفة على الإطلاق، حتى ولو كانت وظيفة ملك، إنما هو إسم شخص (٤٤ و ٥٣/الشعراء، ١٢/النمل، ٣ و ٤ و ٦ و ٨ و ٩/القصص). وهذا الشخص كان له «آل» هم آل فرعون (٤٩/البقرة، ٢٨/فاطر، ٣٧ و ٤٥ و ٤٦/غافر، ٤١/القمر).

فمن تولى حكم مصر بعده، لم يكن فرعوناً، إنما كان ملكاً ولو كان يأخذ كل سفينة غصبا عن أصحابها آنذاك (٧٩/الكهف). ومن تولى حكم مصر قبله، لم يكن فرعوناً، إنما كان ملكاً، سواء أيام يوسف فى مصر (٤٣/يوسف)، أو حتى أيام إبراهيم فى مصر (٢٥٨/البقرة).

بل إن فرعون هذا مات غرقاً، ولم يكن له ولداً، لا ابناً ولا ابنة على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى على لسان زوجته فى شأن موسى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١)، بمعنى نتخذه ابناً على الأقل بدلاً من حرماننا من الولد ابناً وابنة على السواء. والكلام بعدئذ عن «ابنة فرعون» أو «مربية» ابنة فرعون، أو «ابن فرعون» الذى حل محله بعد غرقه، أو «الفراعنة» أو «الفراعين»... إلخ، إنما هى تخرصات فارغة.

٢٦٧- وثالثاً: حتى فرعون هذا، لم يكن مصرياً، إنما كان إسرائيلياً باغياً على قوم موسى، وشأنه فى ذلك شأن قارون مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾^(٢).

وهما وهامان كونوا قوماً إسرائيلياً باغياً على قوم موسى قبل وبعد بعثته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ

(١) ٩/القصص، ٧٦/القصص.

بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ» (١) وقوله تعالى على لسان قوم موسى فى حوارهم معه: «قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ... قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ...» (٢).

لكن من قوم فرعون زوجته، التى آمنت ولم تكتم إيمانها، مصداقاً لقوله تعالى: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ...» (٣). بينما هناك من آمن وكتم إيمانه، مصداقاً لقوله تعالى: «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» (٤).

وهكذا فرق فرعون أهل مصر إلى أكثر من شيعتين (٤/القصص)، منهم شيعتين اسرئيليتين متعاديتين هما قوم فرعون وقوم موسى، جنباً إلى جنب شيعة المصريين المستضعفين فى وطنهم، ويريد الله أن يورثهم أرض وطنهم، مصداقاً لقوله تعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ...» (٥).

٢٦٨ - الأوتاد المصرية :

هذه الأوتاد باعتبارها مميز مصر فى القرآن، فإنها واردة عدداً وحصراً فيه، وبالتالي فلا هى تقبل الزيادة عليها ولا هى تقبل الانتقاص منها، لا بطريق القياس ولا بطريق الاجتهاد.

وهى جمع (١٠/الفجر، ١٢/ص~) على أى الأحوال، أى لا تقل عن ثلاثة على الإطلاق، بل هى - حتى - ثلاثة تحديداً وتعييناً، وذلك على النحو التالى بيانه:

(٥-١) (٣٩/العنكبوت، ١٢٨-١٢٩/الأعراف، ١١/التحریم، ٢٨/غافر، ٥-٦/القصص.

أولاً: جبل قاف أو الطور أو الجودي، أى طور سينين أو طور سيناء. وهو أعلى الأرض بإطلاق، كما هو المغارب المصرية المباركة، بل هو وحده المغارب المصرية المباركة، وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

وهو بهذا يختلف عن الوتدين الآخرين. فكلاهما موجود فى مشارق مصر، وكلاهما ليس مباركاً على الإطلاق، وهما كما يلي تباعاً:

ثانياً: جبل «تمثال» الإنسان الأول تاريخياً، أى تمثال رأس آدم الأول، أو اختصاراً «أبو الهول»، وذلك على نحو ما تقدم بيانه، وهو موجود من قبل عصر فرعون موسى بآلاف السنين، التى لم يُعرف - حتى - عدد آلافها على الأقل، أى هو من أوتاد مصر قبل أن يكون من أوتاد فرعون ملك مصر، وقبله بكثير جداً.

وهذا التمثال جبل ثابت فى مكانه لغاية الآن، وبالتالي فهو يختلف - حتى - عن الجبل التالى، أى الوتد التالى له تاريخياً.

وثالثاً: جبل «مسجد» أصحاب الكهف، أى الهرم الأول عالمياً، والأقدم تاريخياً، والأكبر نوعياً لغاية الآن. وهو أحدث تاريخياً من تمثال رأس الإنسان الأول، لكنه ليس أحدث كثيراً جداً، وبالتالي لم يكن بناؤه صعباً على أناس كأنهم أعجاز نخل وأشد منا قوة وآثاروا الأرض وعمروها.

ولم يكن صعباً عليهم آنذاك أن يبنوه بأيديهم وبدون أى آلات أو أدوات، حتى لو كان على مساحة ١٣ فدانا، وبارتفاع ٤٥٠ قدماً، وبأكثر من مليونين ونصف من الأحجار المتراسة بدقة بالغة، والتى يتراوح وزن الواحدة منها ما بين طنين وسبعين طناً.

ومن ثم، فلا يجب بعدئذ أن ينشغل أحد بكيفية تجزئة المصريين آنذاك لهذا الجبل حجارة، ثم تجميعه فى شكل هرم منظم بدقة، ولولم يجر تجميعه

فى نفس مكان تجزئته. فهم وقتذاك لم يكونوا كأقرانهم حالياً، لا من الوجهة الجسدية طولاً وعرضاً وبدناً، ولا من حيث القوة البدنية.

وعلى أى الأحوال، هذا العمل ينتمى إلى المنشآت الحجرية الأولى تاريخياً، أى أول منشآت العصر الحجرى عالمياً، وبالتالى فإن كافة الأهرامات بعدئذ هى بمثابة استنساخات من هذا الهرم الأول تاريخياً، وسواء كانت تلك الأهرامات موجودة فى مصر أو خارج مصر، وسواء كانت الأهرامات المصرية فى الجيزة أو فى غير الجيزة، ولو كانت كلها بمثابة «قبور»، وقبور فوق سطح الأرض، وبالتالى تتمخض عن وضع معكوس.

فالأصل أن القبور فى الأرض، ليست على سطح الأرض، فلا أبنية للموتى فوق سطح الأرض، ولا هى مساجد للموتى أصلاً، ولا القبور مساجد مطلقاً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (سوا القبور على وجه الأرض)(١). وقوله: (لا تصلوا إلى قبر. ولا تصلوا على قبر)(٢). وقوله: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)(٣).

٢٦٩ - ملابسات بناء الهرم الأكبر:

معرفة «مكان» مسجد أصحاب الكهف، إنما هى خطوة أولى نحو معارف كثيرة بشأنهم من ناحية، وبشأن ملابسات بناء الهرم الأكبر كمسجد على قبرهم من ناحية أخرى، وذلك كما يلى تباعاً:

أولاً: معرفة مكان كهفهم، الذى قضوا فيه ثلاثمائة وتسع سنين (٢٥/الكهف)، ولو لم يسأل أحد بعد فى مصر: فى أى كهف من كهوف

(١) الألبانى: السابق - ص ٦٨٠ رقم ٣٦٤٥، ص ١٢٢٧ رقم ٧٣٤٨، ص ٩٠٩

مصر قضى أصحاب الكهف هذه الفترة، خاصة أنه ليس فى مصر كهفاً واحداً، ولا حتى اثنين فحسب؟.

أما الوضع السلبي القائم لغاية الآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، أى استبعاد مصر كمكان جرت فيه «قصة أصحاب الكهف»، فإنه وضع لا يرضى رباً ولا عبداً، لما يترتب عليه من تداعيات سلبية تطال - حتى - معرفة الهرم الأكبر. بحيث لم يعد هذا الهرم محلاً لاهتمام أحد سوى السائحين وهواة الشهرة وصائدى الكنوز، ولو لم يجدوا فيه أى كنوز أو موميات أو آثار على الإطلاق. بل حتى كان من صائدى الكنوز عام ٨٢٠م، الخليفة عبد الله المأمون بن الرشيد.

وثانياً: معرفة «ديانة» قومهم آنذاك، ولو لم يكونوا مؤمنين، أى حتى لو كانوا قوماً غير مؤمنين، مصداقاً لقوله تعالى على لسان أصحاب الكهف: ﴿هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾^(١).

ومعرفة أن «قلة» من قومهم التى كانت تعرف عددهم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءَ ظَاهِرٍ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^(٢).

ومعرفة أن عدتهم لدى هذه القلة المؤمنة هو سبعة فتیان، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كُذِّبُوا قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ﴾^(٣). أما الكثرة غير المؤمنة، فهى تتكهن فى شأن عددهم

(١) ١٥ / الكهف، ٢٢ / الكهف، ٢٢ / الكهف.

مصدّقاً لقوله تعالى عنهم: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾^(١).

٢٧٠- وثالثاً: معرفة «النزاع» بين القلة المؤمنة والكثرة غير المؤمنة، حول ما يقام على قبر أصحاب الكهف، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾^(٢).

وهكذا فإن مُقترح بناء «مسجد» على قبر أصحاب الكهف، لم يكن مُقترح القلة المؤمنة، إنما كان مُقترح الكثرة غير المؤمنة، وبالتالي لم يكن هذا المسجد بيتاً كالبيت العتيق أو البيت الأقصى من قبله، ولا كان إذن مسجداً للموتى ولا مسجداً للأحياء، أى لم يكن مسجداً إلا إسمياً فحسب، إنما هو مسجد يتمخض موضوعياً عن هرم ضخم هو الموجود لغاية الآن.

أما من ينكر بعدئذ أن مسجد أصحاب الكهف هو الهرم الأول تاريخياً، أى الهرم الأكبر الموجود فى مصر قبل وبعد طوفان نوح لغاية الآن، وشأنه فى ذلك شأن تمثال رأس آدم، وكلاهما موجود فى الجيزة، فليفضل علينا ببيان أين يقع إذن هذا المسجد فى أرض الله حالياً؟. وما هى «أوتاد» فرعون ذى الأوتاد، لو كانت له أوتاداً؟.

٢٧١- ورابعاً: معرفة أن هذا المسجد - أى الهرم الأكبر - الذى يُصنّف فى مصر وفى خارجها، ضمن «عجائب الدنيا»، ليس عجيبة على الإطلاق (٩/الكهف). كل ما هناك أن «العصر الحجري» خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٩٤/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

(٢-١) (٢٢/الكهف، ٢١/الكهف).

١- فهو فى نشأته الأولى تاريخياً، يشمل بناء البيت العتيق والبيت الأقصى، وتمثال رأس آدم، ومسجد أصحاب الكهف أى الهرم الأول.
٢- وهو فى نشأته الآخرة تاريخياً، يشمل برج إيفل، وبرج بيزا المائل، وسور الصين، وحدائق بابل، وتاج محل، وتمثال الحرية.

٢٧٢- حكمة وجود مسجد أصحاب الكهف :

الهرم الأكبر باعتباره مسجد أصحاب الكهف، فإنه يختلف تماماً عن كافة الأهرامات المستنسخة منه فى بقاع العالم، وذلك من حيث الحكمة من وجوده على الأقل.

فهذه الحكمة، لا تتعلق مُطلقاً بزيارة الأحياء لقبور الموتى، إنما تتعلق دائماً بزيارة الموتى لقبورهم، تاركين خلفهم ما فى الحياة الدنيا من لعب ولهو بوجه عام (٣٢/الأنعام)، ولهو التكاثر بوجه خاص، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(١).

بل هى تتعلق - حتى - بالمدة الزمنية التى يقضيها الموتى فى زيارة قبورهم، والتى هى مدة واحدة للكافة، وذلك لكونها بدورها خلقاً من خلق الله. وهذا الخلق له إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات) ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: هذه المدة فى نشأتها الآخرة تاريخياً، هى يوم أو بعض يوم، حتى لو قضى الميت مائة عام فى قبره، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ

(١) ٢-١/التكاثر.

اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا
أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ^(١).

وثانياً: هذه المدة فى نشأتها الأولى تاريخياً، يوم أو بعض يوم، حتى لو قضى الموتى ثلاثمائة وتسع سنين، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن أصحاب الكهف. «فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا»^(٢). وقوله تعالى: «وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ»^(٣). وقوله تعالى: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا»^(٤).

إذن هذه المدة يوم أو بعض يوم، حتى لو قضى الميت فى قبره آلاف السنين، كما يحدث - مثلاً - مع «يس» باعتباره أول ميت تاريخياً، ولو لم يمت إلا قتلاً حال حياة أبيه آدم الأول (٢٧-٣١/المائدة). وحتى لو لم يكن القبر فى الأرض مباشرة، أى حتى لو كان القبر فى بطن حوت فى البحر، كيونس مثلاً، لولا نجاه الله من بطن الحوت (١٤٣-١٤٤/الصافات).

وهكذا فقيمة الهرم الأول فى حكمة وجوده، ومفادها: أن مدة بقاء الموتى فى قبورهم لن تتجاوز بالنسبة لهم يوماً أو بعض يوم، أى لن تتجاوز مجرد «زيارة» من جانبهم إلى تلك القبور، وذلك بصرف النظر عن المدة من تواريخ وفاتهم حتى تاريخ بعثهم، ولو لم يكونوا مؤمنين بهذا البعث (٥٢/يس)، الذى هو واقع بهم حتماً، وبصرف النظر عن إيمانهم أو عدم إيمانهم بوقوعه، مصداقاً لقوله تعالى بشأن «عثر» قوم أصحاب الكهف عليهم بعد بعثهم من مرقدهم وقبل موتهم: «وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا»^(٥).

(١) ٢٥٩/البقرة، ١١/الكهف، ١٩/الكهف، ٢٥/الكهف، ٢١/الكهف.

وهكذا فالعجب بعدئذ في «الحكمة» من وجود مسجد أصحاب الكهف، لا في بناء هذا المسجد الموجود على الأرض، ولا فيما حدث لهم شخصياً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا . أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾^(١).

المطلب الثاني

عصر

الشجرة الخبيثة

٢٧٣ - ما الشجرة الخبيثة ؟

لم تحظ هذه الشجرة بأى اهتمام علمي من جانب المخاطبين بالقرآن، وبالتالي كادت أن تبدو مؤخراً وكأنها ليست موضوعاً قائماً بذاته وله أهميته على استقلال في هذا القرآن، رغم أن هذا الانطباع غير صحيح، وذلك من ثلاث زوايا على الأقل:

فأولاً: الشجرة الخبيثة، ليست شجرة مُعمرة بجذور ضارية في الأرض وتؤتي أكلها دورياً كل حين، إنما هي شجرة حولية جذورها قريبة من سطح الأرض، ومن ثم تجتث هي وثمرتها من فوق سطح الأرض، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾^(٢).

وثانياً: هذه الشجرة، هي خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت): وذلك كما يلي:

١- ففي نشأتها الأولى تاريخياً، تخرج في أصل الجنة (٣٥/البقرة، ١٩/الأعراف). ٢- وهي في نشأتها الآخرة تاريخياً، تخرج في أصل الجحيم (٦٤/الصافات).

^(١) (٧-٩/ الكهف، ٢٦/ إبراهيم).

وثالثاً: كلتاها شجرة من أشجار الدنيا، وفتنة للظالمين (٣٥/البقرة، ١٩/الأعراف، ٦٣/الصافات)، إذن عصر الشجرة الخبيثة هو عصر «فتنة». وهذه الفتنة، وإن لم تستنفذ وحدها الفتن، لكنها فتنة قائمة بذاتها، أى لها استقلالها على أى الأحوال، وبالتالي تتوزع محتويات المطلب الراهن على الفرعين التاليين:

الفرع الأول أول شجرة خبيثة

٢٧٤ - شجرة الثوم:

عصر أول شجرة خبيثة فى الجنة أسبق تاريخياً من العصر الحجرى فى الأرض. والشجرة الخبيثة فى نشأتها الأولى تاريخياً فى الجنة، كانت «شجرة الثوم»، التى حذر الله على آدم وزوجه أن يقرباها آنذاك، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

لكن فنتهما الشيطان بها، فأكلا منها، فبدت لهما سوءاتهما، وأخرجا من الجنة، وأهبطا إلى الأرض مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾^(٢).

فهى نوعياً، شجرة الثوم كشجرة خبيثة منذاك التاريخ، ولغاية الآن، وإلى ما لا نهاية، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنها: (من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئاً فلا يقربنا فى المسجد)^(٣). وقوله أيضاً بشأنها: (من أكل من هذه الشجرة فلا يقربن مسجدنا ولا يؤذينا بريح الثوم)^(٤).

(١-٢) ٣٥/البقرة، ٣٦/البقرة.

(٣-٤) الألبانى: السابق - ص ١٠٥١ رقم ٦٠٩٠، ص ١٠٥١ رقم ٦٠٩٤.

وهى شجرة خبيثة، لكنها ليست شجرة ملعونة. وكانت فى الجنة شجرة محظوراً أكلها، إنما فى الأرض هى شجرة مكروه أكلها فحسب. بل حتى مكروه أكلها استثناء، وبالتالى فالمكروه هو أكلها نيئة ثم ارتياد المساجد بعده، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (من أكل من هذه البقلة: الثوم والبصل والكرات، فلا يقربنا فى مساجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)(١).

وبذا فأكلها مطبوخة ليس مكروهاً ، لا هى ولا البصل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إياكم وهاتين البقلتين المنتنتين، وأن تأكلوهن وتدخلا مساجدنا، فإن كنتم لابد آكليهما، فاقتلوهما بالنار قتلاً)(٢).

ومعلوم أن شجرة الثوم هى شجرة حولية أرضية أصلاً، ولم تكن موجودة قديماً فى الجنة إلا فتنة، أى جعلها الله فتنة للظالمين، سواء فى الجنة قديماً أو حتى فى الأرض بعدئذ، وبالتالى يجب التمييز بين نشأتى هذه الفتنة تاريخياً.

٢٧٥ - الفتنة الأولى بالثوم :

أول فتنة بالثوم تاريخياً، هى فتنة آدم وزوجه بهذا الثوم حال وجودهما فى الجنة. لكن أول من فتن بالثوم وقتذاك، كانت حواء، التى لم تلبث أن عاونت الشيطان على فتنة زوجها بعدئذ، وبالتالى كانت خائنة له، وتلك أول وأقدم خيانة امرأة لزوجها تاريخياً، وبما يترتب عليها من أثر دائم إلى ما لا نهاية، أى أثر موروث ومتوارث فى النساء، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (لولا حواء لم تخن أنثى زوجها)(٣).

(٣-١) الألبانى: السابق - ص ١٠٥١ رقم ٦٠٨٩، ص ٥٢٣ رقم ٢٦٨٨، ص ٩٤٢ رقم ٥٣٣٠.

بل حتى، لولا تواطؤ حواء مع الشيطان على زوجها وقتذاك، ما تمكن الشيطان وحده من حمل آدم على أكل الثوم آنذاك، أى كان دورها هو الأخطر من دور الشيطان على زوجها. وبما يترتب على ذلك من أثر دائم إلى ما لا نهاية، أى أثر موروث ومتوارث فى النساء، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء)**(^١).

وهكذا منذ كانا فى الجنة وقبل نزولهما الأرض، فلا الرجل كالمرأة (٣٦/آل عمران)، ولا المرأة كالرجل، الذى لا يتسع جوفه إلا لقلب واحد على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)**(^٢). إذن جوف المرأة يتسع إذن لأكثر من قلب معاً فى نفس الوقت، وذلك على حساب أمور متعددة ومتباينة: ١- على حساب عقلها ودينها معاً وعلى السواء، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(ما رأيت من ناقصات عقل ولا دين أغلب لذى لب منكن)**(^٣).

٢- وعلى حساب سويتها، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(إن المرأة خلقت من ضلع. لن تستقيم لك على طريقة. فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج. وإن ذهب تقيمها كسرتها. وكسرها طلاقها)**(^٤). ٣- وعلى حساب كمالها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لم يكمل**

(^١) الألبانى: السابق - ص ٩٨٠ رقم ٥٥٩٧.

(^٢) ٤/الأحزاب.

(^{٣-٤}) الألبانى: السابق - ص ٩٨٣ رقم ٥٦٤٢، ص ٣٩٣ رقم ١٩٤٣.

من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد^(١).

٤- وعلى حساب صبرها وتحملها، ولو حتى مع عشيرتها على الأقل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إنك تكثرن اللعن وتكفرن العشير)^(٢).

٥- وعلى حساب مصير القوم (الرجال) لو وليت عليهم امرأة بأى طريق وفي كل ميدان، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)^(٣).

٦- وعلى حساب ضرورة احتباسهن فى بيوتهن واجتتابهن تبرج الجاهلية الأولى (٣٣/الأحزاب) - ٧- وعلى حساب وزنهن النسبى إلى الرجال، ولو فى الميراث، أو فى الشهادة ... وهكذا.

٢٧٦ - الفتنة الآخرة بالثوم :

كان الثوم والبصل من مفردات ما طلبه بنو إسرائيل من طعام، بدلاً من الطعام السماوى (المن والسلوى)، وذلك فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى سيناء، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم إلى موسى: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثَبِّتُ الْأَرْضَ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾^(٤).

وبعدها، لم يبتدعوا فقط تخبيث الطعام بالثوم كشجرة خبيثة، إنما ابتدعوا أيضاً تخزين اللحم النيئ بدلاً من طبخه، أى تتبيله بخلطة من هذا الثوم وغيره دون طبخه بأى طريق، وذلك تحت مسميات تجارية (بسطرمة، سدق، نقائق، هامبورجر ... إلخ)، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأن خيانتهم

(١-٣) الألبانى: السابق - ص ٨٤٠ رقم ٤٥٨٧، ص ١٣٢١ رقم ٧٩٨٠، ص ٩٢٨

رقم ٥٢٢٥.

(٤) ٦١/ البقرة.

جنباً إلى جنب خيانة حواء من قبلهم: (لولا بنو إسرائيل لم يُخبث الطعام ولم يُخزن اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها)(١).

فهذا اللحم النيئ أصلاً، لا يتجاوز «الميتة» بعدئذ، لأنه مُخزن دون طبخه بأي طريق، ومُخزن مدة أطول مما يحتملها تخزين اللحم، وذلك بصرف النظر عن تتبيله بخلطة من الثوم وغيره، لكونها ليست طريقة طبخ بالنار أو ما فى حكم النار.

وهذه الميتة شائع حالياً استهلاكها عالمياً كطعام، رغم أنها بدعة إسرائيلية أصلاً، وذلك بصرف النظر عن مسماها تجارياً، لكون هذا المسمى لن يُغير من طبيعتها كلحم نيئ لم يُطبخ بأى طريق من طرق الطبخ، حتى فات ميعاد طبخه، وبالتالي لم يعد صالحاً للطبخ، ولا للأكل على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى بشأن الميتة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾(٢).

٢٧٧ - اللحم الحنيذ :

الشيء بالشيء يذكر، وبالتالي يجب التمييز بين «اللحم المخنز» على الطريقة الإسرائيلية السالف ذكرها، وبين «اللحم الحنيذ»، على الطريقة العربية، المعروفة حتى فى زمن إبراهيم، وبالتالي كان مباحاً أكله آنذاك، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾(٣). وهو اللحم المدخر بعد طبخه شويماً على الحجارة الملتهبة بحرارة الشمس مباشرة.

(١) الألبانى: السابق - ص ٩٤٢ رقم ٥٣٣٠.

(٢-٣) المائدة، ٦٩/هود.

وكان هذا اللحم معروفاً ومباحاً أكله فى مكة، أى فى قريش، قبل نزول القرآن، مصداقاً لقول خاتم الرسل إلى رجل جاءه مرتعداً يوم فتح مكة: (هون عليك ... إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)(١). فالقديد هو اللحم الحنيذ.

وظل هذا اللحم مُباحاً أكله حتى بعد نزول القرآن، حتى لو طالبت مدة تخزينه أكثر من ثلاثة أيام، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأن لحوم الأضاحى: (كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحى فوق ثلاث، ليتسع ذو الطول على من لا طول له. فكلوا ما بدا لكم، وأطعموا، وادخروا)(٢).

وهكذا تحيط بنا الإسرائيليات، ليس فى المطبوعات فحسب، إنما أيضاً فى المأكولات، بل حتى فى السراويل كسراويل البحر أى سراويل الاصطياف على الأقل.

الفرع الثانى

آخر

شجرة خبيثة

٢٧٨ - الشجرة الملعونة :

هذه الشجرة فتنة، لم توجد تاريخياً، إلا بعد فتنة الإسراء والمعراج، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ (٣).

لكن الشجرة الملعونة فتنة شأنها فى ذلك شأن فتنة الخمر. فكلتاها «مُغيبية للعقول»، ولو أن الخمر ليست شجرة، ولا من مادة خبيثة على

(٢-١) الألبانى: السابق - ص ١١٨٥ رقم ٧٠٨٥، ص ٨٤١ رقم ٤٥٨٥.

(٣) ٦٠ / الإسراء.

الأقل، ولا التعامل فيها خالٍ من المنافع للناس مصداقاً لقوله تعالى فى شأن الخمر: ﴿بَسَّأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾^(١):

فأولاً: الخمر وإن كانت مُغيبية للعقول، لكنها ليست شجرة، ولو أنها أكثر خبثاً من الشجرة الخبيثة فى نشأتها الأولى تاريخياً أى الثوم والبصل. بل هى حتى أكثر من هذه الشجرة خبثاً وبكثير جداً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (الخمر أم الخبائث)^(٢).

وثانياً: الخمر أم الخبائث، ولو أنها ليست من مادة خبيثة على الإطلاق، بل هى حتى من مواد طيبة بإطلاق، كالعصير والزبيب والتمر والحنطة والشعير والذرة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن الخمر من العصير، والزبيب، والتمر، والحنطة، والشعير، والذرة، وإنى أنهاكم عن كل مُسكر)^(٣).

وثالثاً: هى أم الخبائث تاريخياً فحسب، وبالتالي فهى ليست ملعونة فى ذاتها فحسب، إنما الملعون أيضاً هو التعامل فيها بأى وجه من وجوه التعامل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (لعن الله الخمر، وشاربها، وساقبها، ويانعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وأكل ثمنها)^(٤). فهذا التعامل يشمل تصنيعها وتسويقها وتعاطيها أو تعاطى ثمنها.

(١) ٢١٩/البقرة.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٦٣١ رقم ٣٣٤٤، ص ٣٣١ رقم ١٦٠٤، ص ٩٠٧

رقم ٥٠٩١.

وهى ملعونة هى والتعامل فيها، لكونها فى الأصل صناعة الشيطان، وبالتالي يجب اجتنابها، شأنها شأن الميسر والأزلام والأنصاب، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنهم: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

والخمر بهذا تختلف عن «الشجرة الملعونة»، التى هى شجرة من ناحية، وأم الملاعين من ناحية أخرى، أى أم المغيبات للعقول بإطلاق، وبالتالي فهى اختصاراً الشجرة الملعونة.

٢٧٩- شجرة الزقوم :

أولاً: هذه الشجرة ليست نوعاً واحداً، إنما أنواع متباينة عن بعضها، ولو أن المشترك فى هذه الأنواع هو «الزقوم» مصداقاً لقوله تعالى بشأن تنوعها: ﴿شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ﴾^(٢). ومن ثم تعددت وتباينت مسمياتها التجارية حالياً، مثل: الحشيشة والأفيون والقنب الهندى والقات والكوكا أو الكوكايين، والبانجو والهيريون إلخ، وإجمالاً المخدرات، ولو أن من أنواعها ما لا يقتصر دوره على مجرد التخدير.

وثانياً: الشجرة الملعونة باعتبارها الشجرة الخبيثة فى نشأتها الآخرة تاريخياً هى اصطلاحياً «شجرة الزقوم»، التى تخرج فى أصل الجحيم، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنها: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْفُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾^(٣).

وهى بهذا تختلف عن الشجرة الخبيثة فى نشأتها الأولى تاريخياً فى الجنة، أى التى تخرج فى أصل الجنة.

(١) ٩٠ / المائدة. ٥٢ / الواقعة، ٦٤-٦٥ / الصافات.

لكن كلتا هما فتنة للناس في الدنيا، حتى الشجرة الملعونة أى شجرة الزقوم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿شَجَرَةُ الزَّقُومِ. إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾^(١).

إنما المتعامل فيها بأى وجه من وجوه التعامل، ليس كالمعامل فى الخمر أى ليس أثماً فحسب (٢١٩/البقرة)، إنما هو أكثر من آثم، أى هو آثم مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ. طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ﴾^(٢).

وثالثاً: يتعاطاها متعاطوها أكلاً أو شرباً أو أكلاً وشرباً، أو شماً أو حقناً بحسب الأحوال. لكنهم لا يشبعون بها ولا يرتون منها، ولا يرتجعون عنها ولا يشفون بها، أولئك الضالون المكذبون، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ. لَأَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُومٍ. فَمَالُؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبِ الْهَيْمِ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالُؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾^(٤).

ومن ثم، فمالهم معروف سلفاً، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٦).

وهكذا فالشجرة الملعونة هى أم الفواحش والكبائر نوعياً، بينما أهمهم تاريخياً هى الخمر، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأن الخمر: (الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر. من شربها وقع على أمه وخالته وعمته)^(٧). وهى أهمهم تاريخياً، منذ أول «نادى منكر» قديماً، أى فى عصر لوط، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ ... وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾^(٨).

^(١) ٦٣-٦٢/الصافات، ٤٣-٤٦/الدخان، ٥١-٥٥/الواقعة، ٦٦-٦٧/الصافات، ٦٨/الصافات، ٥٦/الواقعة.

^(٧) الألبانى: السابق - ص ٦١٣ رقم ٣٣٤٥.

^(٨) ٢٨-٢٩/العنكبوت.

٢٨٠ - الشجرة الأكثر من حرام :

إذن الشجرة الملعونة في القرآن هي الشجرة الأكثر حراماً، وبصرف النظر عن طريقة أو مقدار تناولها أو تناولها، وذلك قياساً على مقدار التحريم في الخمر على الأقل، مصداقاً لقول خاتم الرسل في شأنه: (ما أسكر كثيره قليله حرام)^(١). وقوله أيضاً: (ما أسكر منه الفرق فملاء الكف منه حرام)^(٢). وبصرف النظر - حتى - عن الغرض من تناولها أو تناولها، أى حتى لو كان الغرض هو التداوى طبياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (إن الله تعالى خلق الداء والدواء، فتداووا، ولا تتداووا بحرام)^(٣).

على أن «معرفة» الشجرة الملعونة، لم تسلم من العبث بها، سواء من الجانب الذى تصور أنها فتنة فى الآخرة دون الدنيا، أو من الجانب الذى «أحل» تناولها وتناولها على السواء، وعلى نطاق واسع. وتاريخياً، أول من أحل ذلك هو: الحسن بن الصباح (٥٠٦هـ/١٢٤م)، الفارسي الأصل، الذى أسس «طائفة الحشاشين» كطائفة مذهبية إسماعيلية جديدة، من طوائف الشيعة، وكان مركزها فى «الموت» شمال غربى بحر قزوين، وكذا فى سوريا بعدئذ.

وقد جذبت هذه الطائفة حولها أتباعاً ومريدين بهذه الشجرة، وأنشأتهم على نظام الباطنية، وعلى المجازفة والمغامرة والقتل غدرًا وغيلة، والتمرد على العقيدة والأنبياء.

وهذه الطائفة، لا هى اندثرت، ولا هى بقيت وحدها، بل ظهرت إلى جوارها مؤخرًا جماعات أخرى يصعب حصرها، وتتخذ من تعاملها فى الشجرة الملعونة مصدرًا لتمويل تسليحها وأنشطتها، وبالتالي أصبح العالم

(٣-١) الألبانى الساق - ص ٩٧٠ رقم ٥٥٣٠، ص ٩٧٠ رقم ٥٥٣١، ص ٣٦٢ رقم

يُعانى حالياً من فتنة مزدوجة: هي الإرهاب من ناحية، والمتاجرة فى المخدرات من ناحية أخرى، وكلاهما يمثل تحدياً للدول دولة بدولة، ولو أن من الدول من يؤيد وجودها بإسم المصلحة السياسية، لكنها دول مارقة وتُفكر بمنهج المافيا.

بينما يقول خاتم الرسل فى شأن خطورة الزقوم على أهل الدنيا: (لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟) (١).

٢٨١ - الشجرة الطيبة :

الشئ بالشئ يذكر، خاصة أن الشجرة الخبيثة تقابل «الشجرة الطيبة»، التى ليست شجرة حولية، إنما هى شجرة مُعمرة بجذور ضاربة فى الأرض وفرعها العالى فى السماء، والتى تؤتى أكلها دورياً، أى كل حين وبإذن الله، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنها: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (٢).

وهى النخلة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأنها: (أخبرونى بشجرة شبه الرجل المسلم، لا يتحات ورقها، ولا، ولا، ولا. تؤتى أكلها كل حين؟. هى النخلة) (٣).

٢٨٢ - نوعا الكلمة :

الكلمة على نوعين: إما طيبة مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ...﴾ (٤). وإما خبيثة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ...﴾ (٥).

الكلمة الطيبة هى كلام الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْأَحَدِيثِ كِتَابًا...﴾ (٦). أما الكلمة الخبيثة، فهى كلام الشيطان وذريته مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلُ الشَّيَاطِينَ. نَزَّلُ عَلَىٰ

(١) الألبانى: السابق - ص ٩٣١ رقم ٥٢٥٠.

(٢) ٢٤-٢٥/إبراهيم.

(٣) الألبانى: السابق - ص ١٠٤ رقم ٢٢٠.

(٤-٦) ٢٤/إبراهيم، ٢٦/إبراهيم، ٢٣/الزمر.

كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ»^(١)، وقوله تعالى: «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا»^(٢).

إذن الكلام الخبيث لا يتجاوز زخرف القول، أى لغو الكلام، أو لهو الحديث، الذى لم يكن موجوداً قبل نزول القرآن، إلا كنوع من الظلمات التى نزل هذا القرآن ليخرج الناس منها (١/إبراهيم)، وبالتالي أصبح هذا اللهو محظوراً منذ نزول القرآن، ومحظوراً بإطلاق (٦/لقمان)، ويشمل هذا الحظر الفلسفة (الجدل) والشعر والقصص الخيالى على الأقل وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

لكن هذا اللهو مجرد شطر من اللهو الخبيث عامة. لكونه لا يتعلق إلا باللهو اللغوى أو «الأدبى»، الذى هو الشطر الأخير فى اللهو الخبيث عامة. أما شطره الأول، فهو اللهو «الفنى»، أى اللهو بالصوت (غناءً ونغماً) وبالخيلة (رقصاً وتشخيصاً ورسماً ونحتاً)، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنها باعتبارها أولى خطوات الشيطان فى الأرض: «وَاسْتَفْزَزَ مِنِّي أَعْيُنُهَا وَأُصْبِحُ بِصَوْتِكَ وَأُجَلِّبُ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ»^(٣).

وهذه الآية، لم تترك لأحد بعدئذ، أن يدعو إلى إباحة تلك الفنون جملة وتفصيلاً، أو يدعو إلى إباحة الموسيقى والغناء على الأقل، أو يدعو إلى إباحة الموسيقى على أقل الأقل، وبصرف النظر عما عساه قد يكون بتلك الفنون من منافع للناس، وذلك لكونها بمثابة أولى خطوات الشيطان فى الأرض تاريخياً ونوعياً على السواء.

أما إنشاد بنات فى يوم عيد أو فى يوم له حكم يوم عيد، حتى لو كان يوم عرس أنصارى، فإنه بمثابة استثناء، مُقيد بنوعية اليوم ونوعية المنشادات ونوعية النشيد، وبالتالي لا يجوز القياس عليه، ولا التوسع فى تفسيره، أى هو عصى على التعميم.

(٣-١) (٢٢١-٢٢٢/الشعراء، ١١٢/الأنعام، ٦٤/الإسراء).

٢٨٣ - مدى الرعونة :

من الرعونة البالغة للغاية بعدئذ، تصور أن القرآن قد فرط في بيان صور «اللهو الخبيث» صورة بصورة على الأقل، بينما العكس هو الصحيح بإطلاق (٣٨/ الأنعام، ٨٩/ النحل).

أو تصور أن لائحة القرآن التنفيذية (أى السنة)، قد فرطت في بيان «معيارها العلمى» بشأن أحاديثها النبوية، بينما العكس هو الصحيح بإطلاق، خاصة أن هذا المعيار العلمى هو موافقة تلك الأحاديث للقرآن موضوعياً وأثراً في سامعيه وذلك كما يلى:

فأولاً: موافقة الأحاديث حديثاً بحديث للقرآن موضوعياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (ستختلفون من بعدى. فما جاءكم عنى فأعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فمنى، وما خالفه فليس عنى) (١). ولا محل بعدئذ لتصحيح أو تحسين أو تضعيف حديث نسبة إلى الراوى أو الرواة شخصياً.

وثانياً: موافقة الأحاديث حديثاً بحديث للقرآن من حيث أثره على سامعيه، فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا ... تَقَشَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (٢). مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه بعيد عنكم، فأنا أبعدكم عنه) (٣).

(١) مشار إليه لدى محمد حسين هيكل: الفاروق عمر - ط ١١ - دار المعارف -

٢٠٠٦ - ص ٢٥٩.

(٢) ٢٣/ الزمر.

(٣) الألبانى: السابق - ص ١٦٦ رقم ٦١٢.

المبحث السابع

جغرافية القرآن

مقدمة المبحث

٢٨٤ - أبواب نزول القرآن:

القرآن خلق خلقه الله، لكي يكون حبل النجاة الممدود من السماء إلى الأرض، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض)^(١). أى طرفه بيد الله وطرفه الآخر بأيدي المخاطبين به، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (أبشروا، فإن هذا القرآن طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم)^(٢).

وهو بهذا عصى على الحيازة أو الاستحواذ أو الاحتكار أو الاستئثار، ولو فى شأن الانتفاع به على الأقل. وعصى - من باب أولى - على التملك، فلا هو عقار ولا هو منقول.

وهو أيضاً ليس مجرد كتاب «لغة»، أى ألفاظ وحروف وعبارات ونصوص لها دلالات لغوية على الأكثر. ولا هو - حتى - كتاب «مسطح» جغرافياً، أى يخلو من تضاريس داخلية تميزه عن غيره من الكتب بإطلاق، حتى الكتب الإلهية السابقة عليه تاريخياً.

فالقرآن اصطلاحات وأمثال وآيات وسور ذات عناوين اصطلاحية، وله تضاريسه الجغرافية الخاصة به وحده، وعددها سبعة تحديداً، ونزلت فيه ومعه، أى لازمته وتلازمت معه فى نزوله وإلى ما لا نهاية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي

(٢-١) الألبانى: السابق - ص ٤٨٢ رقم ٢٤٥٨، ص ٦٩ رقم ٣٤.

وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ^(١). وقول خاتم الرسل بشأنها: (أنزل القرآن من سبعة أبواب، على سبعة أحرف، كلها شاف كاف)^(٢).

وبدون معرفة هذه الأبواب (المثنى) يظل القرآن بمثابة سر مستغلق على المخاطبين به، أو كنز مخفى عنهم خلف سبعة أبواب، باباً تلو باب، ولو أن هذه الأبواب لا تزال مجهولة وغامضة ومبهما لغاية الآن، وبالتالي يجرى التعامل مع القرآن منذ قرون دون معرفة الأبواب التي نزل منها على الأقل.

ومن ثم، تتوزع محتويات المبحث الراهن على سبعة مطالب، تُخصص تباعاً للأبواب السبعة التي نزل منها القرآن، أى مطلب لكل باب على استقلال، وذلك على النحو التالي:

المطلب الأول

باب

الكتاب والحكمة

٢٨٥ - مم يتكون القرآن ؟

القرآن إجمالاً نزل متشابهاً من الوجهة الشكلية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾^(٣)، لكنه من الوجهة الموضوعية مثنى. أى هو موضوعياً مثنى من المثنى السبع التي أعطيت مع القرآن لخاتم الرسل.

(١) ٨٦-٨٧/الحجر.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٣١٣ رقم ١٤٩٦.

(٣) ٢٣/الزمر.

بل إن هذا المثنى هو المثنى الأول ترتيباً في تلك المثاني. فالقرآن يتكون من «الكتاب» في جانب، ومن «الحكمة» في جانب آخر، مصداقاً لقوله تعالى في شأن ما نزل على خاتم الرسل: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١). وقوله تعالى في شأن ما نزل إِنْ عَلَى الْمُخَاطَبِينَ بِالْقُرْآنِ: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾^(٢).

وهكذا فالباب الأول من الأبواب السبعة التي أنزل منها القرآن، هو باب تصنيفه موضوعياً إلى كتاب وحكمة، أي تصنيفه تصنيفاً ثنائياً، ومُعِيناً من الوجهة الموضوعية، وبالتالي لم يعد لأحد بعدئذ أن يتجاوز هذا التصنيف إلى غيره خاصة التصنيف التقليدي الشائع لغاية الآن أي تصنيفه إلى «عبادات ومعاملات». فهذا التصنيف، ليس تصنيفاً خيالياً فحسب، إنما هو أيضاً انحراف عن تصنيف القرآن إلهياً.

٢٨٦- ما الحكمة؟

القرآن إِنْ، لا هو الكتاب فحسب، ولا هو الحكمة فحسب، إنما هو الكتاب والحكمة معاً وعلى السواء، ولو أنه الكتاب قبل الحكمة، أي هو الكتاب أكثر منه الحكمة.

فالحكمة هي همزة الوصل الفكرية بين المخاطب بالكتاب وبين هذا الكتاب الذي يخاطبه. وكذا همزة الوصل الفكرية بين هذا الكتاب وبين غايته (١/إبراهيم)،. وأخيراً همزة الوصل الفكرية بين المُخاطب بالكتاب وبين غاية هذا الكتاب الذي يخاطبه. وذلك بمراعاة ما يلي:

(١) ١١٣/ النساء، ٢٣١/ البقرة.

أولاً : المخاطب بالكتاب ليس معدوم الحكمة أصلاً، أى ليس معدوماً من حكمة التواضع وعدم التكبر على الأقل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك دع حكمته)(١).

وهكذا فالحد الأدنى من الحكمة لدى أى آدمى، هو: التواضع وعدم التكبر. وهى بذاتها الحكمة التى أوتى لقمان تفصيلاتها ضمن ما أوتيته من الحكمة من ربه، وكان يعظ بها ابنه، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ .. وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(٢).

وكانت أيضاً ضمن ما أوتيته خاتم الرسل من الحكمة (٢٢- ٣٩/الإسراء)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لَنْ تُخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾(٣).

وثانياً: غاية الكتاب هى إخراج المخاطب به من الظلمات، وإخراجه إلى النور، وإخراجه إذن إلى الصراط المستقيم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(٤).

وثالثاً: تلازم تعليم الكتاب وتعليم الحكمة حال حياة الرسول، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا

(١) الألبانى: السابق - ص ٩٩٠ رقم ٥٦٧٥.

(٢-٤) ١٣ و ١٨ و ١٩/لقمان، ٣٧/الإسراء، ١/إبراهيم.

مَنْهُمْ ... وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»^(١). ولا غنى مطلقاً عن هذا التلازم في تعليمهما بعد حياة الرسول مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ ... وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»^(٢).

٢٨٧ - علم الحكمة :

هذا العلم هو علم قائم بذاته، أى له استقلاله، بل إن من يؤتاه يؤتى خيراً كثيراً، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا»^(٣). فالخير من وراء تعلم هذا العلم أكثر كثيراً مما وراء التفقه في الدين، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)^(٤).

وهذا العلم، ليس لازماً لتعلم الكتاب فحسب، إنما لازم أيضاً للقضاء بهذا الكتاب عينه، مصداقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل ... ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقتضى بها، ويعلمها)^(٥). بل هو لازم - حتى - للدعوة إلى سبيل الله، مصداقاً لقوله تعالى: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ»^(٦).

وعلم الحكمة هو مبحث أصيل من مباحث «علم التأويل بالحق» (٣٣/الفرقان)، وبالتالي لا يزال غامضاً ومبهماً ومجهولاً مثله، سواء في دور التعليم أو في دور القضاء أو في دور الدعوة إلى سبيل الله، وبالتالي هناك من يستعيب - خطأ - عن غاية الكتاب (١/إبراهيم) بما يسمى تجوزاً «مقاصد الشريعة». وهناك من يتصور - خطأ - أن هذه الحكمة تقابل

^(١-٣) ٢/الجمعة، ١٥١/البقرة، ٢٦٩/البقرة.

^(٤-٥) الألباني: السابق - ص ١١٢٤ رقم ٦٦١١، ص ١٢٤٦ رقم ٧٤٨٨.

^(٦) ١٢٥/النحل.

«الفلسفة» كإبن رشد قديماً، أو تقابل «السنة النبوية» كما يذهب كثيرون حالياً.

المطلب الثاني

باب

المثنى والمفرد

٢٨٨ - مم تتكون سور القرآن؟

للسور القرآنية مثنى قائم بذاته، أى له استقلاله، فلا هو مثنى القرآن إجمالاً على نحو ما تقدم بيانه، ولا هو مثنى من مثنى آيات القرآن على نحو ما سنعرضه من بعد.

فهذه السور، وإن كانت متشابهة كأحسن حديث إلهى أنزله الله كتاباً (٢٣/الزمر)، لكنها من الوجهة الموضوعية مثنى، أى مثنى من المثنى السبع التى نزل بها القرآن (٨٧/الحجر)، بل إن مثنىها هو - حتى - المثنى الثانى ترتيباً من تلك المثنى، أى ثانى أبواب نزول القرآن.

وهذا المثنى للسور، لا هو تصنيفها إلى سور مكية وسور مدنية، ولا هو تصنيفها إلى سور طوال وسور قصار. إنما هو تصنيف آخر، وقائم بذاته، أى له استقلاله، هو تصنيفها إلى «سورة» واحدة مزدوجة الآيات في جانب، وباقى السور كلها مفردة الآيات في جانب آخر.

٢٨٩ - سورة واحدة مزدوجة الآيات :

هى سورة «الفاحة». وعدد آياتها سبع، تدخل فيهن البسمة، مصداقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (إذا قرأتم «الحمد لله» فإقرأوا

«بسم الله الرحمن الرحيم». إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني و
«بسم الله الرحمن الرحيم» إحدى آياتها^(١).

فلا يدخل فيها إذن لفظ «أمين»، أى أن هذا اللفظ ليس من آيات
الفاتحة. إنما يجب على المصلين قوله خلف الإمام، حتى ولو لم يقوله
الإمام، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (إذا قال الإمام: «غير
المغضوب عليهم ولا الضالين» فقولوا آمين. فمن وافق قوله قول
الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه)^(٢).

والفاتحة وحدها سورة مزدوجة الآيات. فهى، وإن كانت سبعاً من
الوجهة الشكلية، إنما موضوعياً هى أكثر من ذلك، لما يُقابلها من آيات
غير ظاهرة، لكونها ردوداً من جانب الله، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى
هذا الشأن:

(قال الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى
ما سأل. فإذا قال العبد: «الحمد لله رب العالمين»، قال الله: حمدنى
عبدى، فإذا قال: «الرحمن الرحيم»، قال الله: أثنى علىّ عبدى. فإذا
قال: «مالك يوم الدين»، قال الله: مجدنى عبدى. فإذا قال: «إياك نعبد
وإياك نستعين»، قال: هذا بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل. فإذا قال:
«إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب
عليهم ولا الضالين»، قال: هذا لعبدى، ولعبدى ما سأل)^(٣).

وهى بهذا فاتحة القرآن ومقدمة الكتاب أى (كتاب الصلاة) وسبع
آيات مثانى، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (الحمد لله رب
العالمين، أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني)^(٤).

(١) الألبانى: السابق - ص ١٨٧ رقم ٧٢٩، ص ١٨٢ رقم ٧٠٧، ص ٧٩٧ رقم

٤٣٢٦، ص ٦٠٧ رقم ٣١٨٤.

ولا تشابه هناك بين السبع «آيات» المثنى فى الفاتحة، وبين السبع «مثنى»، التى أوتيتها الرسول مع القرآن العظيم، إلا من الوجهة العددية على الأكثر، وبالتالي يجب دائماً التمييز بدقة بين هذين الأمرين موضوعياً، فلا يجوز مطلقاً الخلط بينهما بعدئذ، ولو أن الخلط شائع تقليدياً منذ العصور الوسطى لغاية الآن، ويُفضى إلى ما يلى: ١- التجهيل بالسبع المثنى أى الأبواب السبعة التى أوتيتها الرسول مع القرآن. ٢- تصور البعض - خطأ - أن الفاتحة التى أوتيت على استقلال مع القرآن تتجاوز هذا القرآن، الذى يقتصر عندئذ على باقى السور، دون الفاتحة التى أعطيت على استقلال جنباً إلى جنب القرآن.

٢٩٠- سور مفردة الآيات :

هذه السور تشمل باقى سور القرآن، أى كل سور القرآن عدا الفاتحة وحدها، وبالتالي عددها ١١٣ سورة. ولا تدخل البسمة فى عدد آيات أى سورة منها، ولو كانت هذه البسمة موجودة فى صدارة كل واحدة منها، كفاصل بينها وبين سابقتها، أى لمعرفة متى تنتهى آيات سورة ومتى تبدأ السورة التى تليها على الأقل.

وكل هذه السور، ذات آيات مفردة الجانب، أى ليست مزدوجة الآيات كالفاتحة، وبالتالي فهى ليست آيات مثنى. كما أن انتهاء قراءة السورة منها، لا يستوجب من المصلى ولا من المصلين قول «أمين»، ولو استوجب منهم ومن غيرهم قول «صدق الله العظيم».

٢٩١- أهمية التصنيف :

أولاً: البسمة واحدة من آيات القرآن التى يتجاوز عددها أكثر من ستة آلاف آية (٦٣٤٢ آية). وهى موجودة كآية من آيات الفاتحة وحدها،

وكآية أولى فى هذه الفاتحة، لكنها ليست إسم الله الأعظم. فهذا الإسم موجود فى سور أخرى، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: (إسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، فى ثلاث سور من القرآن: فى «البقرة» و «آل عمران» و «طه»)(١).

وقوله أيضاً: (إسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين: ﴿وَالِهٰكُمۡ اِلٰهًا وَّاحِدًا لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِیْمُ﴾، وفاتحة آل عمران: ﴿اللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ﴾)(٢).

وثانياً: الفاتحة من قصار السور، لكنها ليست أقصر سورة، أى هناك من السور ما هن أقصر منها كالعصر والفيل وقريش والكوثر والكافرون والنصر والمسد والإخلاص والفلق والناس والقدر. إنما ليست موجودة ترتيباً مع قصار السور، ولا حتى مع طوال السور، إنما هى موجودة ترتيباً قبل طوال وقصار السور، لكونها رأس القرآن.

والبسمة هى أول آياتها دون غيرها من السور. لكن ثانى آياتها هى «الحمد لله رب العالمين»، الموجودة فى سور أخرى كثيرة مثل ٤٥/الأنعام و ١/يونس و ٦٥/غافر و ٣٦/الجاثية. بل إن «الحمد لله» موجودة فى سور أكثر وأكثر عدداً، ويُسبح بها المصلون فى أدبار صلواتهم صلاة بصلاة، وليس بالبسمة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (أمرنا بالتسبيح فى أدبار الصلوات، ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، وثلاثاً وثلاثين تحميدة....)(٣).

(٣-١) الألبانى: السابق - ص ٢٢٨ رقم ٩٧٩، ص ٢٢٩ رقم ٩٨٠، ص ٢٩٤ رقم

وتأويلياً، هذه البسمة هي «صيغة إصدار» القرآن كله كشريعة (١٨/الجاثية)، وبالتالي فهي اصطلاحياً لا تعنى شيئاً إلا أن هذا القرآن كله «تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» (١). ومن ثم فإن «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (٢)، واختصاراً «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (٣).

وكذا «الحمد لله»، ليس لها من الوجهة التأويلية أكثر من مفهوم اصطلاحى واحد، مهما تكرر وجودها فيه. فمفهومها تأويلياً هو قوله تعالى: «أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» (٤).

٢٩٢ - وثالثاً: للفاتحة أولوية فى ترتيب سور القرآن، وبالتالي فهي أول سورة فيه من حيث ترتيبها، فلا تسبقها أى سورة أخرى، إنما تليها باقى السور تباعاً.

وهذه الفاتحة هي سورة ثابتة ومكررة فى الصلاة، أى صلاة وكل صلاة بإطلاق. وهى مكررة فى الصلاة بقدر عدد ركعاتها. وثباتها وتكرارها فى الصلاة هو أمر وجوبى، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (لا صلاة لمن لم يقرأ بأمر القرآن فصاعداً) (٥). وقوله أيضاً: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) (٦).

فلا تقوم إذن مقام الفاتحة فى الصلاة أى سورة غيرها، ولا تكفى - حتى - قراءة بعض آياتها دون بعضها الآخر فى أى ركعة، أى لا بد من قراءة الفاتحة كاملة فى كل مرة. أما باقى السور فليست ثابتة فى الصلاة، إلا فى الركعتين الأول، وتكفى واحدة منها فى كل ركعة منهما، ولا تلزم

(٤-١) ٢/فصلت، ٢/السجدة، ٨٠/الواقعة وكذا ٤٣/الحاقة، ١٢/لقمان.

(٤-٥) الألبانى: السابق - ص ١٢٤٩ رقم ٧٥١٢، ص ١٢٤٩ رقم ٧٥١٣.

قراءة السورة كاملة، فيكفى قراءة بعض آيات منها، لكنها لا تسبق الفاتحة في الصلاة على الإطلاق.

والفاتحة لم يكن لها أى نظير فى الشرع الإلهية السابقة تاريخياً على القرآن، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (والذى نفسى بيده، ما أنزل فى التوراة، ولا فى الإنجيل، ولا فى الزبور، ولا فى الفرقان مثلها «يعنى أم القرآن»^(١)). والفاتحة بهذا وجه من أوجه اختلاف القرآن عن الشرع الإلهية السابقة عليه تاريخياً.

٢٩٣ - عناوين السور:

هذه العناوين، ليست مجرد ألفاظ لغوية، ولا المرجع فى تأويلها إذن هو قواميس اللغة. إنما هى «اصطلاحات» قرآنية، والمرجع فى تأويلها بالحق (٣٣/الفرقان) هو القرآن ذاته، أو السنة أحياناً كما هو الشأن فى اصطلاح «قاف» مثلاً على نحو ما تقدم بيانه.

بل إن من هذه العناوين ما هو تأويل بالحق لاصطلاحات فى القرآن ذاته. كاصطلاح «شجرة من يقطين» (١٤٦/الصافات)، الذى تأويله بالحق هو: «التين». وقد اتخذ القرآن عنواناً لسورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٩٥)، أى «سورة التين»، كما اتخذ موضوعاً لأول اصطلاح فى أول آية من تلك السورة. فاليقطين بلغة آدم العربية هو التين بلغة إسماعيل العربية.

فالفاتحة إذن، هى فاتحة القرآن كله، وفاتحة لكل سورة من سوره، وبالتالي فالبسمة - مثلاً - هى فاتحة كل سورة على استقلال، ولو لم

(١) الألبانى: السابق - ص ١١٩١ رقم ٧٠٧٩.

تكن هذه البسمة آية من آيات تلك السورة. لذا فإن عدد البسمة فى القرآن مطابق لعدد السور، وبالتالى حتى السورة التى ليست لها بسمة فى صدارتها (أى سورة التوبة)، لها بسملتها على استقلال فى الآية ٣٠/النمل.

وتأولياً، لم توجد الفاتحة فى أى شرعة من الشرع الإلهية السابقة تاريخياً على القرآن، لكن البسمة كانت موجودة منذ نشأتها لأول مرة تاريخياً، أى منذ نشأتها الأولى فى عصر سليمان فى القرن العاشر قبل الميلاد (٣٠/النمل)، وبالتالى فالبسمة الموجودة فى القرآن هى البسمة فى نشأتها الآخرة تاريخياً، وهكذا حتى البسمة بدورها خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات) ويجب التمييز بين نشأته (٢٠/العنكبوت).

المطلب الثالث

باب

الحكم والمفصل

٢٩٤ - مم تتكون آيات القرآن؟

الآيات القرآنية إجمالاً «مثنى» قائم بذاته، أى له استقلاله، فلا هو مثنى القرآن إجمالاً على نحو ما تقدم بيانه، ولا هو مثنى سوره إجمالاً على نحو ما تقدم بيانه أصلاً.

بل إن مثناهما، لا هو تصنيفها خطأ إلى «آيات ناسخة» و«آيات منسوخة»، ولا هو تصنيفها خطأ إلى «أحكام قطعية» و «أحكام ظنية». فهما تصنيفان خياليان، وبالتالى لا يقرهما القرآن، الذى لا فيه تناقض داخلى (١/الكهف، ٢٨/الزمر)، ولا فيه شئ إلا يقينى (٩٥/الواقعة)، فلا فيه إذن شئ قطعى فحسب، ولا فيه شئ ظنى على الإطلاق.

فمثلاً قرآنياً. هو تصنيفها إلى «آيات محكمات» في جانب و«آيات مفصلات» في جانب آخر، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(١).

٢٩٥ - الآيات المحكمات :

وهى الآيات «المبدئية» موضوعياً (١/هود)، أى الآيات التى يتعلق موضوعها بـ «المبادئ» principes تلك التى يقوم عليها القرآن كشرعية، وتقوم عليها الشريعة كقرآن، وبالتالي فهى بمثابة الآيات «الأساسية» بالنسبة للقرآن والشريعة، وذلك لكونها الآيات التى يتكون منها «أساس» القرآن، ولا يتكون أساس القرآن إلا منها، ومنها وحدها، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢).

وأم الكتاب كخلق من خلق الله، لم يخلق سبحانه منها واحدة فحسب إنما خلق منها زوجين (٤٩/الذاريات)، ويجب إذن التمييز بين نشأتها تاريخياً (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: أم الكتاب فى نشأتها الأولى تاريخياً، هى أم «كتاب الله» (٥٦/الروم)، الذى هو أول وأقدم الكتب الإلهية بإطلاق، أى الكتاب الذى كتبه القلم كأول خلق بإطلاق، وكتبه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

وهى بهذا أم الكتاب المحفوظ فوق عرش الرحمن، أى أم الكتاب المحفوظ لدى الله، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنها: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ

^(١) ١/ هود، ٧/ آل عمران.

وَيُنْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» (١). وقوله تعالى في شأن هذا الكتاب: «فِي لُوحٍ مَّحْفُوظٍ» (٢)، وقوله تعالى: «فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ» (٣).

وثانياً: أم الكتاب في نشأتها الآخرة تاريخياً، هي أم الكتاب الذي أنزله الله على خاتم الرسل بعدئذ (٧/آل عمران)، وبمعنى «أساس» أو «أصل» القرآن. أي «مبادئ» الشريعة أو «أسس» القرآن. وأم الكتاب هذه، هي التي تتكون من آيات محكمات، ولا تتكون إلا من آيات محكمات (٧/آل عمران).

٢٩٦ - الآيات المفصلات :

هي الآيات القرآنية التي بُنيت على الآيات المحكمات كمبادئ، أي تفرعت عن الآيات الأخيرة، ومن ثم جاءت مفصلات لتلك المبادئ (١/هود)، وموضوعها بهذا لا يتعلق بالمبادئ مباشرة، إنما يتعلق بها بطريقة غير مباشرة، أي أن موضوعها يتعلق مباشرة بتطبيق وتفرع تلك المبادئ، مصداقاً لقوله تعالى في شأنها: «كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (٤).

٢٩٧ - أهمية التصنيف :

أولاً: هو تصنيف لآيات القرآن إجمالاً بحسب مدى تعلقها بمبادئه، فهل تتعلق الآيات بتلك المبادئ بطريقة مباشرة أم بطريقة غير مباشرة؟. وهو بهذا تصنف «مبدئياً» للآيات القرآنية إجمالاً، وبالتالي فهو تصنيفها الأول والأصلي والأساسي، والذي لا غنى لها عنه، ولا غنى عنه - من باب أولى - حال دراسة تأويل تلك الآيات بالحق (٣٣/الفرقان).

(٤-١) (٣٩/الرعد، ٢٢/البروج، ٧٨/الواقعة، ٣/فصلت).

وثانياً: الآيات المُحكّمت باعتبارها الآيات المبدئية موضوعياً، فهي الأقل عدداً في القرآن من الآيات المفصلات، التي لا يتعلق موضوعها مباشرة بمبادئ القرآن، إنما يتعلق موضوعها مباشرة بتطبيق وتقرير تلك المبادئ، وبالتالي فهذه الآيات المفصلات هي الأكثر عدداً من الآيات المحكّمت، والأكثر بكثير جداً، وبما يترتب على ذلك من أثّرين على الأقل:

١- تشغل الآيات المفصلات المساحة العريضة من القرآن، فهي لا تُعرف إلا بطريق الاستبعاد، أي هي الآيات التي ليست آيات محكّمت، إنما هي آيات مفصلات فحسب.

٢- خص القرآن الآيات المفصلات بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هي السورة رقم (٤١)، أي «سورة فصلت»، لأن تلك الآيات تشغل المساحة العريضة في القرآن (٣/فصلت).

وثالثاً: لكن رغم كثرة الآيات المفصلات في القرآن عددياً، فإنها مقيدة أصلاً بمبادئ القرآن، أي مقيدة بتلك المبادئ موضوعياً، وبالتالي يستحيل أن يوجد أي عوج فيما بينها، فلا عوج بين الآيات المفصلات والآيات المحكّمت، ولا بين الآيات المفصلات بعضها البعض، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: «قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ»^(١). وقوله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا»^(٢).

بل حتى يستحيل أن يكون بين الآيات المفصلات والآيات المحكّمت، أي اختلاف، إلا بقدر الاختلاف بينهما نوعياً وليس

(١) ٢٨/ الزمر، ١/ الكهف.

موضوعياً، وبالتالي يستحيل أن يكون بينهما اختلافاً كثيراً، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾^(١).

المطلب الرابع

باب

الأعم والعام

٢٩٨ - مم تتكون الآيات المُحكّمات؟

أولاً: موضوع الآيات المُحكّمات هي «مبادئ الشريعة»، أو «مبادئ القرآن»، التي هي مبادئ principes على أى الأحوال، ولو أن هذا اللفظ ليس من اصطلاحات القرآن والسنة.

وهذا اللفظ من اصطلاحات القانون الوضعى، الذى هو بمثابة «اللائحة الفرعية» للقرآن والسنة على أى الأحوال (٥٩/النساء)، ولو أن القرآن غير خال من اصطلاحه الخاص الذى يقابل لفظ مبادئ تحديداً، بل حتى يستحيل أن يخلو القرآن من اصطلاحه المقابل فى هذا الشأن (٣٨/الأنعام، ٨٩/النحل).

أما الاصطلاح القرآنى المقابل، فهو «الزبر»، التى جاءت بها الرسل تباعاً، وجنباً إلى جنب البيئات والكتاب المنير، مصداقاً لقوله تعالى مرة: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(٢)، وقوله تعالى مرة أخرى: ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(٣).

وحتى القضاء العالى المصرى، سواء القضاء الدستورى^(٤) أو قضاء النقض^(٥)، لم يُفكر بعد فى الاصطلاح القرآنى المقابل لعبارة

^(١) ٨٢/النساء، ٢٥/فاطر، ١٨٤/آل عمران.

^(٢) انظر مثلاً، حكم الدستورية العليا - ٢٠٠٤-٢/١٢/١٩ - قضية ١١٩ لسنة ٢١ ق ٠ دستورية.

^(٣) انظر مثلاً، حكم نقض مدنى - ٢٠٠١/١٢/٢٦ - طعن ٨٣٦٥ لسنة ٦٤ ق.

«مبادئ الشريعة» فى المادة ٢ دستور والمادة ٢/١ مدنى، وبالتالي لم يمسك هذا القضاء بعد بالمفهوم القانونى لتلك العبارة، أى أن هذه العبارة لا تزال غامضة ومبهمة ومجهولة لغاية الآن. ولا يزال هذا القضاء غارقاً فى تصوره الخيالى، أى تصور أن مبادئ الشريعة هى أحكام الشريعة عدا أحكامها الظنية فى ثبوتها أو فى دلالتها أو فيهما معاً.

٢٩٩- ثانياً: الآيات المُحكّمت، وإن كانت متشابهة كأحسن حديث أنزله الله كتاباً (٢٣/الزمر)، لكنها موضوعياً هى مثنى قائم بذاته، أى له استقلاله، ضمن المثنى السبع التى أوتيتها خاتم الرسل فى القرآن. بل هو حتى المثنى الرابع ترتيباً فى تلك المثنى السبع. ولو أنه المثنى الثانى للآيات القرآنية، وبالتالي فهو مثنى تالٍ للمثنى الأول للآيات القرآنية.

ومثناها يتكون من الآيات المُحكّمت التى موضوعها مبادئ أعم communs فى جانب، ومن الآيات التى موضوعها مبادئ عامة généraux فى جانب آخر.

٣٠٠- آيات المبادئ الأعم :

موضوع هذه المبادئ هو العلو، كمبدأ علو الله، مصداقاً لقوله تعالى: «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»^(١)، وقوله تعالى: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ»^(٢). ومبدأ علو القرآن، مصداقاً لقوله تعالى: «وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا»^(٣).

وهذه المبادئ، ليست فقط أم الكتاب الذى نزل على خاتم الرسل، إنما هى أيضاً أم الكتاب المحفوظ فى اللوح لدى الله، كما هو الشأن مثلاً فى مبدأ: علو القرآن، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَإِنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ»^(٤).

(١-٢) ٢٣/سبأ، ٤٥/العنكبوت، ٤٠/التوبة، ٣-٤/الزخرف.

٣٠١- آيات المبادئ العامة :

موضوع هذه المبادئ أقل عمومية من المبادئ الأعم، ولو أنها مبادئ عامة على أى الأحوال، كمبدأ: الأمر بالمعروف باعتباره شطراً من مبدأ: القسط، والذي يقوم الله على شئونه (١٨/آل عمران). وكمبدأ: النهي عن المنكر باعتباره الشطر الآخر من القسط. ومبدأ العدل باعتباره شطراً من مبدأ: المعروف، ومبدأ: الدعوة إلى سبيل الله (١٢٥/النمل).

٣٠٢- أهمية التصنيف :

أولاً: الآيات المحكمات تشغل أقل مما تشغله الآيات المفصلات من مساحة القرآن، وبالتالي فإن آيات المبادئ الأعم تشغل المساحة الأقل فى إطار القرآن، وكذا المساحة الأقل فى إطار الآيات المحكمات. وهى بهذا الآيات الأقل عدداً من آيات المبادئ العامة، ولو أنها الأكثر عمومية من المبادئ الأخيرة.

أما آيات المبادئ العامة، وإن كانت تشغل المساحة الأكبر فى إطار الآيات المحكمات، لكنها ليست من الآيات المفصلات، بل هى حلقة الوصل بين الآيات المحكمات والآيات المفصلات، أى هى تتوسط بينهما تأويلياً، لكونها أقل عمومية من آيات المبادئ الأعم، وأكثر عمومية من الآيات المفصلات.

وثانياً: المبادئ التى تتكون منها أم الكتاب (٧/آل عمران)، ليست إذن نوعاً واحداً من حيث الدرجة والقوة والنطاق، إنما هى ثلاثة أنواع متدرجة فى درجات ثلاث يعلو بعضها بعضاً، أعلاها المبادئ الأعم وأوسطها المبادئ العامة وأدناها المبادئ.

وبقدر التعامل مع تلك المبادئ باعتبارها نوعاً واحداً على الأكثر، بقدر ما هى مسألة غامضة ومبهمة ومجهولة لغاية الآن. سواء فى فرنسا^(١) أو فى مصر^(٢).

(٢-١) انظر تفصيل المشكلة لدى سمير عبد السيد تناغو: النظرية العامة للقانون -

١٩٩٩- منشأة المعارف - ص ٢٤٦-٢٦٦ رقم ٧٩-٨٢.

وثالثاً: أم الكتاب باعتبارها المبادئ أو الزبر، فهي ليست فقط أساس القرآن كشريعة أو أصل الشريعة كقرآن، إنما هي أيضاً مبادئ اللائحة التنفيذية للقرآن أى السنة المحمدية، بل هي حتى مبادئ لائحتها الفرعية أى القانون الوضعى.

وبعبارة أخرى هي أساس القانون بمعناه التأويلى، الذى يضم ثلاثة عناصر قانونية متدرجة فى درجات ثلاث تعلق بعضها بعضاً، فأعلاها القرآن وأوسطها لائحته التنفيذية (أى السنة)، وأدناها لائحتها الفرعية (أى القانون الوضعى)، مصداقاً لقوله تعالى بشأن هذا القانون بعناصره الثلاثة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ... ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(١).

٣٠٣ - عسق :

هذا اللفظ، ليس مجرد لفظ لغوى، إنما هو اصطلاح، بل هو حتى موضوع آية قرآنية قائمة بذاتها، هي الآية الثانية من سورة الشورى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿عسق﴾^(٢). ومن ثم، فهو اصطلاح قرآنى، وله إذن مفهومه الاصطلاحى، أى مفهومه علمياً وعملياً.

خاصة أنه اصطلاح من لغة الصاد العربية، أى من اللغة العربية الفاتحة، التى كانت موجودة قبل خلق آدم الأول. أما باللغة العربية الجامعة بعد خلق آدم تاريخياً، فإنه «الميزان» مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾^(٣).

أما عسق أو الميزان باللغة العربية الخاتمة، فهو «القسط» مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٤).

(١) ٥٩/النساء، ٢/الشورى، ١٧/الشورى، ٢٥/الحديد.

٣٠٤ - القسط :

هذا القسط اصطلاحياً، هو معيار الصواب والخطأ فى الكون، وبالتالى يقوم الله وحده على شئونه، وذلك ما شهد به أولوا العلم بعد الملائكة التى شهدت بعد الله بوجدانيته وألوهيته سبحانه وقيامه على شئون القسط فى الكون: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ...﴾^(١).

بهذا يتكون القسط من شطرين، أولهما المعروف باعتباره معيار الصواب أى العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وثانيهما المنكر باعتباره معيار الخطأ أى الفحشاء والمنكر بمعناه الضيق والبغى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

وهكذا، فلا القسط يرادف العدل ولو لغوياً، ولا العدل هو معيار الصواب والخطأ، بل إن العدل لا يتجاوز سدس معيار الصواب والخطأ، أى سدس القسط، إنما هو ثلث المعروف على الأقل.

٣٠٥ - العدل :

العدل اصطلاحياً هو الوسط مصداقاً لقول خاتم الرسل: (... فيقول (الله) لنوح: من يشهد لك؟. فيقول: محمد وأمته. وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(٣). والوسط: العدل. فيدعون فيشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم^(٤).

ويذا بالعدل هو إذن الوسط فى أى أمر وكل أمر وكل الأمور بإطلاق، كما هو الوسط وليس أكثر ولا أقل، أى هو الوسط دون أدنى إفراط

^(١) ١٨/آل عمران، ٩٠/النحل، ١٤٣/البقرة.

^(٤) الألبانى: السابق - ص ١٣٣٤ رقم ٨٠٣٤.

ودون أدنى تفريط، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^(١).

٣٠٦- معيار الصواب والخطأ:

معيار المعروف والمنكر هو معيار فردي، أى لكل فرد على استقلال، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢). كما هو معيار جماعي، أى للأمة عامة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾^(٣).

وهو معيار فى الدنيا والآخرة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (إن أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة. وإن أهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة)^(٤).

المطلب الخامس

باب

البين والمتشابه

٣٠٧- مم تتكون الآيات المفصلات؟

هذه الآيات وإن كانت من الوجهة الشكلية متشابهة باعتبارها أحسن حديث أنزله الله كتاباً (٢٣/الزمر)، لكنها موضوعياً هى مثنى من المثنى السبع التى أوتيتها خاتم الرسل بالقرآن (٨٧/الحجر)، أى أن هذه الآيات تُصنف من الوجهة الموضوعية تصنيفاً ثنائياً.

ومتناها هو المثنى الخامس ترتيباً من تلك المثنى السبع، ولو أنه مثنى قائم بذاته، أى له استقلاله، ويتكون من: ١- آيات «بينات» فى جانب مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا

^(١) ٤٩/الإسراء، ١٧/لقمان، ١١٠/آل عمران.

^(٤) الألبانى: السابق - ص ٤٠٧ رقم ٢٠٣٩.

يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ»^(١). ٢- آيات «متشابهات» فى جانب آخر، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ ... وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ»^(٢).

وبهذا فالآيات القرآنية، لا تُصنف إلى آيات محكمات وآيات متشابهات، لا تصنيفاً رئيسياً، ولا تصنيفاً فرعياً، إنما هى تصنف رئيسياً إلى آيات محكمات وآيات مفصلات (١/هود) التى تُصنف بعدئذ تصنيفاً فرعياً إلى آيات بينات وآيات متشابهات على النحو السالف.

٣٠٨- الآيات البينات :

وهى آيات الحلال البين والحرام البين، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (الحلال بين، والحرام بين، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك)^(٣).

وهى تشغل المساحة العريضة من الآيات المفصلات التى هى غالبية آيات القرآن، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ»^(٤)، وقوله تعالى مرة أخرى: «بَلْ هُوَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ»^(٥). وقد خصها القرآن بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٩٨)، أى «سورة البينة».

فالأصل إذن أن الحلال لا يتجاوز ما أحله الله فى كتابه، والحرام لا يتجاوز ما حرمه الله فى كتابه، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (الحلال ما أحل الله فى كتابه، والحرام ما حرم الله فى كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه)^(٦).

(١) ٩٩/ البقرة، ٧/ آل عمران.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٦٠٩ رقم ٣١٩٤.

(٣-٢) ١٦/ الحج، ٤٩/ العنكبوت.

(٤) الألبانى: السابق - ص ٦٠٩ رقم ٣١٩٥.

ولم يعد لأحد بعدئذ أن يُحرّم الحلال على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ»^(١). ومن باب أولى، لم يعد لأحد بعدئذ أن يُحرّم الحلال ويحلل الحرام، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَسِنَّتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ»^(٢).

كما لم يعد لأحد بعدئذ أن يُبالغ في نطاق ما عفا الله عنه، والذي يكاد يقتصر على العمل اللارادى البحت خطأً كان أو نسياناً أو استكراهاً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)^(٣).

٣٠٩ - الآيات المتشابهات :

وهي الآيات التي يشتبه الأمر في موضوعاتها على «كثير» من الناس، أى هل هي تتعلق بالحلال أم تتعلق بالحرام، ولو لم يشتبه الأمر في موضوعاتها على «قليل» من الناس، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات لا يعلمها كثير من الناس)^(٤).

بهذا، فموضوعاتها لا تشتبه على الناس كافة، ولو كانت تشتبه على الكثير منهم، الذى عليه عندئذ أن يتقى هذا الاشتباه، لكيلا يقع فيها ويقع بالتالى فى حرام، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه. ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام. كراع يرمى حول الحمى يوشك أن يواقعها. ألا لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه...)^(٥).

^(١) ٨٧/المائدة، ١١٦/النحل.

^(٢) الألبانى: السابق - ص ٦٥٩ رقم ٣٥١٥، ص ٦٠٨ رقم ٣١٩٣، ص ٦٠٨ رقم ٣١٩٣

بل حتى عليهم أن يحذروا من فتنة أولئك الذين تجذبهم حولها تلك المتشابهات دون علم بها من جانبهم، لكن عن قصد الفتنة، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾^(١). ودون تأويله بالحق (٣٣/الفرقان). وقول خاتم الرسل في هذا الشأن: (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)^(٢).

فهؤلاء لا يخادعون أحداً بقدر ما يخادعون أنفسهم، وبالتالي فهم مُفسدون ولو زعموا الإصلاح، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ. فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾^(٣).

٣١٠- أهمية التصنيف :

أولاً: هذا التصنيف الأساسي للآيات المفصلات، والتي تشغل المساحة العريضة من آيات القرآن. هو تصنيف للآيات المفصلات بحسب مدى «بيان» الحلال والحرام في موضوعاتها، بالنسبة للمخاطبين بالقرآن. والأصل في هذه الآيات هو بيان موضوعاتها للحلال أو للحرام بحسب الأحوال، أي هي المساحة العريضة من الآيات المفصلات.

وثانياً: الآيات المتشابهات بمثابة استثناء في إطار الآيات المفصلات، على اعتبار أن موضوعها بيّن لقليل من الناس، ولو لم يكن بيّناً لكثير منهم، لكنه بيّن للقلة على أي الأحوال، وذلك بمراعاة أمرين:

(١) ٧/ آل عمران.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٦٠٨ رقم ٣١٩٣.

(٣) ٩-١٢/ البقرة.

١- موضوع هذا الاستثناء هو «الآيات» المتشابهات، التي لا يجوز الخلط بينها وبين ما يسمى تجوزاً لدى اللغويين بـ «الألفاظ» المتشابهات. فمثلاً «اصطلاح قروء» في الآية ٢٢٨/البقرة، لا هو لفظ لغوى، ولا هو آية من الآيات، ولا هو متشابه من المتشابهات، إنما هو اصطلاح وله إذن تأويله بالحق (٣٣/الفرقان)، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (فإذا أتى قرؤوك فلا تصلى، فإذا مر قرؤوك فتطهرى، ثم صلى ما بين القرء إلى القرء...)(١).

٢- ويجب التضييق من موضوع هذا الاستثناء، وبالتالي فهو لا يتسع لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ..﴾(٢). لأنها لا تتعلق إذن بمرحلة من مراحل تحريم الخمر تاريخياً، ولا هي حتى تتعلق بتحريم شرب الخمر مباشرة.

فموضوعها ليس فقط عدم جواز الجمع بين الصلاة والسكر وإلا فلا تقبل الصلاة مصداقاً لقول خاتم الرسل: (من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً)(٣). إنما موضوعها أيضاً عدم قبول صلاة من يقول فيها بقرآن لا يعلمه أصلاً، ولو لم يكن سكراناً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ...﴾(٤).

وثالثاً: حال حياة الرسول، كان العلم بالحلال والحرام فى البيئات والمتشابهات على السواء، شرطاً أول لتولى القضاء. ومن ثم كان أول من

(١) الألبانى: السابق - ص ٤٦٦ رقم ٢٣٦٣.

(٢) ٤٣/ النساء.

(٣) الألبانى: السابق - ص ١٠٨١ رقم ٦٣١٢.

(٤) ٢٩/ص.

عينه خاتم الرسل قاضياً آنذاك، هو معاذ بن جبل، وذلك لعلمه بالحلال والحرام، مصداقاً لقول خاتم الرسل: (أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ... وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل)(١).

ويدون هذا الشرط الأول في القضاة، فلا يصلح منهم للقضاء إلا ثلثهم على الأكثر، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنهم: (القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة. قاض قضى بالهوى فهو في النار، وقاض قضى بغير علم فهو في النار، وقاض قضى بالحق فهو في الجنة)(٣).

المطلب السادس

باب

العزيمة والرخصة

٣١١- مم تتكون الآيات البيّنات؟

هذه الآيات، وإن كانت من الوجهة الشكلية متشابهة باعتبارها أحسن حديث أنزله الله كتاباً (٢٣/الزمر)، لكنها من الوجهة الموضوعية مثني من المثاني السبع التي أوتيتها خاتم الرسل بالقرآن (٨٧/الحجر)،

بل إن مثناها هو المثني السادس في تلك المثاني، أي هو مثني قائم بذاته، وله استقلاله، وبالتالي يتكون من: ١- آيات العزائم في جانب، ٢- وآيات الرخص في جانب آخر. وكلتاهما (أي العزائم والرخص) هي آيات بينات على أي الأحوال.

لكن آيات الرخص هي آيات خاصة من الوجهة الموضوعية، أي استثناءات، وبالتالي لها أولويتها على آيات العزائم من حيث التطبيق

(٣-١) الألباني: السابق - ص ٢١٦ رقم ٨٩٥، ص ٨١٩ رقم ٤٤٤٧.

عملاً، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأن هذه الأولوية: (إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه) (١).

٣١٢- آيات العزائم :

هى الآيات التى تتضمن تكليفاً *imperative juridique* لأولى العزم عامة، فى الظروف العادية، وباعتبارهم المستوى العادى للمخاطبين بأى تكليف إلهى، مصداقاً لقوله تعالى بشأن الرسل باعتبارهم نموذجاً أمثل لأولى العزم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (٢).

وذو العزم بوجه عام، هو ذاك الذى يُعهد إليه بتكليف، فلا ينسأه، ولا يتقاعس عنه، إنما العكس هو الصحيح، أى هو يتذكر هذا التكليف دوماً وبطبيعته تلقائياً وينفذه حرفياً، وذلك من عزم الأمور، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٣).

أما إذا نسى هذا المُكلف ما كُلف به ومن ثم تقاعس عنه، فإنه يفتقد العزم على عدم نسيانه وعدم التقاعس عنه، كما هو شأن آدم الأول قديماً فى الجنة مثلاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (٤).

وليس معنى هذا بالبداهة، أن آيات العزائم تكلف المخاطبين بها بما هو مستحيل عليهم، لأن العكس هو الصحيح، ولو أنها تكلفهم على أى الأحوال، إنما لا تكلفهم مطلقاً إلا بما فى طاقتهم العادية، أى تكلفهم بما فى وسعهم دوماً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (٥).

(١) الألبانى: السابق - ص ٣٨٣ رقم ١٨٨٥

(٢) (٣٥/الأحقاف، ١٨٦/ آل عمران، ١١٥/ طه، ٢٨٦/ البقرة.

وهى بهذا لا تكلف أحداً إلا بالممكن عادة بالنسبة للغالبية العظمى من المخاطبين بها، حتى ولو لم يكن هذا التكليف فى مكنة البعض فى الأحوال غير العادية، أى فى أحوال الضرورة، التى تقتضى أن يكون لها أحكامها الخاصة، وبحسب قدر هذه الضرورة.

٣١٣- آيات الرخص :

هى الآيات التى تتضمن «إباحة» مطلقة أو نسبية بحسب الأحوال، أى إباحة لمخالفة التكليف الموجه إلى ذوى العزم فى ظروفهم العادية، وبالتالي فهى لا تبيح هذه المخالفة من جانبيهم عامة، إنما تبيحها من جانب بعضهم فحسب، أى الموجود فى ظروف غير عادية، بحيث جعلت هذا التكليف تكليفاً بأمر غير ممكن بالنسبة لهذا البعض.

فهذه الآيات تبيح له إذن ارتكاب تلك المخالفة التى تضطره ظروفه غير العادية إلى ارتكابها، وذلك قبل أن يرتكبها كمعصية تغضب الله، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته)(١).

وهكذا فآيات الرخص لا تبيح مخالفة آيات العزائم، إلا كاستثناء، أى استثناء على آيات العزائم، واستثناء تقتضيه الضرورة، أى ضرورة دفع العسر عن المخاطبين بتلك الآيات، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٢)، وقوله تعالى مرة أخرى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٣).

٣١٤- أهمية التصنيف :

أولاً: هو تصنيف للآيات البيئات فحسب، وتصنيف لها باعتبارها فرعاً من الآيات المفصلات، التى هى فرع من الآيات القرآنية، وبالتالي فهو تصنيف فرعى الفرعى، ولو أنه تصنيف رئيسى للآيات البيئات.

(١) الألبانى: السابق - ص ٣٨٣ رقم ١٨٨٦.
(٢-٣) ٧/ الطلاق، ٥-٦/ الشرح.

ثانياً: هو تصنيف للآيات البيئات بحسب الظروف التي يوجد فيها المخاطبون بها، أى هل هي ظروف عادية أم ظروف غير عادية؟ ومن ثم فالأصل فى الآيات البيئات هي آيات العزائم، التي تواجه المخاطبين بها فى الظروف العادية، ولا تواجههم فى ظروفهم غير العادية، وبالتالي فإن آيات العزائم تشغل المساحة العريضة من الآيات البيئات.

ثالثاً: آيات الرخص، هي الآيات التي لا تواجه المخاطبين بها فى الظروف العادية، ولا تواجههم إلا فى ظروفهم غير العادية، وبالتالي فهي بمثابة استثناء، والأقل عدداً من آيات العزائم، والأقل بكثير جداً، وبما يترتب على ذلك من آثار:

١- هذا الاستثناء يخضع للقواعد العامة فى شأن الاستثناءات، وبالتالي فإن الرخص لا تنقرر إلا بنص صريح، وذلك عملاً بقاعدة: لا استثناء بغير نص، أى لا يجوز أن تنقرر الرخص بأى طريق آخر غير النص الصريح.

٢- وحتى لو وجد النص، فإنه نص استثنائى، فلا يجوز إذن التوسع فى تفسيره، لا بالقياس ولا بالاجتهاد، إنما يجب التضييق من نطاقه، لكيلا يقع اعتداء على آيات العزائم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾^(١).

فمثلاً، رخصة أكل الميتة أو الدم أو لحم الخنزير أو ما أهل به لغير الله، هي رخصة مقررة بالنص الصريح، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

لكن هذه الرخصة لا تخول أكل لحم الإنسان ميتاً على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾^(٣). وهى لا تخول - من باب أولى - أكل لحم الإنسان حياً.

(١) ١١٩ / الأنعام، ١٧٣ / البقرة، ١٢ / الحجرات.

٣- الرخصة إذن هي استثناء في إطار المحذور، واستثناء أوجبه الضرورة، ولم توجبه سوى هذه الضرورة، وبالتالي فهو يتقيد بها، ولا يُقدر إلا بقدرها، فلا يُقدر بأكثر من قدرها، ولا بأقل من قدرها، وذلك حتى لو قيل اختصاراً، الضرورات تبيح المحظورات، لكونها لا تبيحه إلا كاستثناء يخضع لقواعد الاستثناءات.

المطلب السابع

باب

الإلزام بالقرآن وغيره

٣١٥- مم تتكون آيات العزائم؟

هذه الآيات، وإن كانت من الوجهة الشكلية متشابهة باعتبارها أحسن حديث أنزله الله كتاباً (٢٣/الزمر)، لكنها من الوجهة الموضوعية مثني من المثاني السبع التي أوتيتها الرسول بالقرآن (٨٧/الحجر). بل هو المثني السابع والأخير ترتيباً في تلك المثاني، إنما هو مثني قائم بذاته، أي له استقلاله، ويتكون موضوعياً مما يلي: ١- آيات الإلزام بالقرآن منفرداً في جانب، ٢- آيات الإلزام بغير القرآن في جانب آخر.

٣١٦- آيات الإلزام بالقرآن منفرداً :

كافة آيات القرآن ملزمة لكافة المخاطبين به، وملزمة لهم كشرعية، أي كقانون إلهي، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (١). وهكذا فالقرآن إجمالاً هو كتاب شريعة، أي كتاب «قانون إلهي»، وبالتالي موضوعه التزام. وهذا الالتزام مفروض على كافة الناس (٢٨/سبأ)، أي على الناس منذ نزوله وإلى مالا نهاية، مصداقاً لقوله تعالى بشأن فرضه على الرسول وعلى الناس واحداً بواحد إلى يوم

(١) ١٨/الجاثية.

القيامة: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾^(١). وقوله تعالى بشأن فرضه كالترام عليهم: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾^(٢).
٣١٧- آيات الإلزام بغير القرآن :

وهى الآيات الملزمة باللائحة الفرعية للقرآن والسنة، أى ملزمة بالتشريع الوطنى على استقلال. وملزمة به باعتباره عمل أولى الأمر والنهى (٥٩/النساء) فى البرلمان الوطنى كأمة تشريعية، واختصاراً أمة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣).

أو الملزمة بلائحة القرآن التنفيذية أى السنة على استقلال، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٥)، وقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله)^(٦).

أو الملزمة بلائحتى القرآن، أى لائحته التنفيذية (السنة) وللائحتهما الفرعية (التشريع الوطنى)، وملزمة بهما على استقلال مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(٧).

أو الملزمة بهاتين اللائحتين جنباً إلى جنب القرآن، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(٨).

^(٥-١) ٨٥/القصص، ٢٦/الفتح، ١٠٤/آل عمران، ٧/الحشر، ٨٠/النساء.

^(٦) الألبانى: السابق - ص ١٠٤٤ رقم ٦٠٤٤.

^(٧-٨) ٨٣/النساء، ٥٩/النساء.

٣١٨ - أهمية التصنيف :

أولاً: هو تصنيف آيات العزائم باعتبارها فرعاً من الآيات البيّنات التي هي فرع من الآيات المفصلات، وبالتالي فهو تصنيف فرعي الفرعي، لكنه تصنيف على أي الأحوال، وتصنيف رئيسي لآيات العزائم، أي تصنيفها بحسب مدى الإلزام فيها، أي هل يقتصر هذا الإلزام على القرآن، وحده أم يطال غيره على استقلال أو مع القرآن؟

وثانياً: الأصل في آيات العزائم أنها ملزمة بالقرآن على استقلال، وتلك الآيات هي التي تشغل المساحة العريضة في إطار آيات العزائم، أي هي الأكثر عدداً.

والاستثناء في آيات العزائم، هي تلك الملزمة بغير القرآن، وبالتالي فهي الأقل عدداً. وهذا الاستثناء لم يتقرر إلا بنص صريح، وبالتالي لا يجوز بعدئذ الانتقاص من نطاقه، فلا يجوز انتقاص لائحة القرآن التنفيذية (السنة)، ولا يجوز - حتى - انتقاص اللائحة الفرعية للقرآن والسنة أي التشريع الوطني. كما لا يجوز الإضافة إلى نطاقه، ولا حتى ما يسمى تجزأ بـ «الفقه» أو «التراث» أو «الفتاوى» ... إلخ.

وثالثاً: النظام الأمثل للحياة القانونية في الكون عامة، لا يتجاوز القرآن ولائحته التنفيذية (السنة)، بينما النظام الأمثل للحياة القانونية لكل وطن في هذا الكون، لا يتجاوز القرآن ولائحته التنفيذية (أي السنة) ولائحتهما الفرعية (أي التشريع الوطني).

وهذا النظام الأخير متدرج في درجات ثلاث يعلو بعضها بعضاً، أدناها اللائحة الفرعية للقرآن والسنة (أي التشريع الوطني)، وبالتالي فالأولوية والمرجعية هي للقرآن ولائحته التنفيذية، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾** (١). فما مدى التزام المشرع المصري بهذا النظام؟

(١) ٥٩/النساء.

المطلب الثامن

إعوجاج فى التشريع

٣١٩- فى وصف دور تعليم:

لم يكن للمشرع المصرى أن يتجاوز الحد فى «وصف» الأزهر، وصفاً منقطع الصلة تماماً بالدور الذى على هذا الموصوف أن يؤديه فى مصر. فلا هو «المرجع الأساسى» بدلاً من القرآن والسنة، ولا هو «الشريف» بدلاً من المصحف والحديث النبوى، حتى لو نصت المادة ٧ دستور على العكس، الذى يستحيل تصديقه عقلاً وشرعاً على السواء.

فلا مرجعية فى الشريعة، سواء فى مصر أو فى غيرها، إلا الله ورسوله وحدهما، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(١) وقول خاتم الرسل: (تركتم فىكم شينين، لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتى، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض)^(٢).

ولنفس السبب، لم يكن لنفس المشرع أن يستبدل بالشريعة ذاتها، المحكمة الدستورية العليا كمرجع فى تفسير مبادئها. وذلك بموجب ديباجة الدستور التى هى جزء لا يتجزأ منه. إذ نصت على «أن مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع، وأن المرجع فى تفسيرها هو ما تضمنه مجموع أحكام المحكمة الدستورية العليا فى ذلك الشأن».

وبذا يبدو مشرعنا وكأنه يبحث عن أحد يحل محل الشريعة كمرجع أساسى أو كمرجع على الأقل، وفى مصر على أقل الأقل، وفى شأن «مبادئ الشريعة» على الأخص، بدلاً من الرجوع إلى الشريعة مباشرة.

(١) ٥٩/النساء.

(٢) الألبانى: السابق - ص ٥٦٦ رقم ٢٩٣٧.

٣٢٠- فى اختيار منهج تعليم :

ولم يكن للمشرع المصرى أن يغض طرفه عن «منهج» الأزهر، حتى صار منهج الأزهريين جيلاً بعد جيل وواحد بواحد وشيبيية وكباراً منذ عام ١٩٦١. وهو المنهج الذى قننته المادة ٣٢ مكرر/ب من القانون ١٩٦١/١٠٣ بشأن تنظيم الأزهر، وذلك بقولها: «يشترط فيمن يختار عضواً بهيئة كبار العلماء ما يلى: ١- ... ٧- أن يكون ملتزماً بمنهج الأزهر علماً وسلوكاً. وهو منهج أهل السنة والجماعة، الذى تلقته الأمة بالقبول فى أصول الدين، وفى فروع الفقه بمذاهبه الأربعة».

فمنهجه هذا، ليس هو منهج الشريعة، التى تأبى تجزئة الدين الإلهى أحزاباً أو فرقاً أو مذاهباً كل حزب بما لديهم فرحون، وعلى نحو ما كان الحال قبل نزول القرآن، أى كما كان الحال فى بنى إسرائيل آنذاك بغياً بينهم من بعد ما جاءهم العلم (٣١-٣٢/الأنعام، ١٠٥/آل عمران، ١٤/الشورى). فمنهجه إذن هو امتداد تاريخى لنظيره قبل نزول القرآن، أى أن هذا المنهج أسبق تاريخياً من نزول القرآن، وبالتالي أعجز فنياً عن اللحاق بالقرآن، وأعجز وأعجز عن تحقيق أى تجديد دورى فى الدين بعد وفاة الرسول.

٣٢١- فى إنشاء محكمة دينية :

ولم يكن للمشرع المصرى أن يغفل يوماً عن وجود «محكمة تفتيش دينى إسلامية»، تعمل فى مصر منذ عام ١٩٦١، باسم حماية الإسلام. ويباشر الأزهر دورها من خلال مجمع بحوثه، وطبقاً للمادة ٢/٤٠ من اللائحة التنفيذية للقانون ١٩٦١/١٠٣ بشأن تنظيم الأزهر. فهى تنص على أنه: «تتولى إدارة البحوث والنشر على وجه خاص ما يأتى: ١- ... ٢- فحص المؤلفات والمصنفات الإسلامية أو التى تتعرض للإسلام وإبداء رأيها فيما يتعلق بنشرها أو تداولها أو عرضها».

وهذه المحكمة لم توجد، إلا بعد أن تخلصت أوربا بلداً ببلد، من نظام محاكم التفتيش الدينى النصرانية، التى كانت تعمل هناك باسم حماية النصرانية، وبعد أن تخلصت منه بقرون طوال.

بل هي لم تكف عن العمل بعد، حتى بعد صدور دستور ٢٠١٤م، وفيه المادة ٦٧/٢، التي أناطت بالنيابة العامة وحدها وحصرها، كافة شكاوى ودعاوى الحسبة ضد الأعمال الفكرية، وذلك بقولها: «لا يجوز رفع أو تحريك الدعاوى لوقف أو مصادرة الأعمال... الفكرية، أو ضد مبدعيها إلا عن طريق النيابة العامة».

ناهيك عن كون قضاة هذه المحكمة الدينية هم بالضرورة من خريجي «منهج الأزهر»، السالف ذكره، وذكر عدائه لأى تجديد حتى فى دراسة الشريعة أو الدين.

٣٢٢- فى إنشاء ولاية الفقيه :

ولم يكن للمشرع المصرى أن يغفل عن وجود «ولاية الفقيه» فى مصر، ولو كانت ولاية الفقيه «السنى»، وذلك فى المادة ٣ من مواد إصدار القانون ٢٠٠٠/١ بشأن بعض أمور التقاضى فى الأحوال الشخصية. وهى تنص على أنه: «يُعمل فيما لم يرد به نص فى تلك القوانين بأرجح الأقوال فى مذهب الإمام أبى حنيفة».

فلا فارق هناك بين ولاية الفقيه «الشيعى» فى إيران، وولاية الفقيه «السنى» فى مصر، فكلتاها ولاية فقيه على أى الأحوال، بل كلتاها - حتى - ولاية فقيه على شعب كامل وعلى القضاء، معاً وعلى السواء، رغم أن هذه الولاية لا أصل لها فى الشريعة.

وعلى أى الأحوال، تلك مجرد أمثلة على إعوجاج فى التشريع، وعلى كيفية تعامل المشرع مع مبادئ الشريعة باعتبارها المصدر الرئيسى للتشريع فى مصر، وذلك فى ظل التفريط فى رقابة الشعب على مشرعه وعلى قضائه.

(وما توفيقى إلا بالله)

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٤	الى القارئ
٥	مقدمة
١١	المبحث الأول منهج استذكار القرآن
١٣	المطلب الأول: المنهج فى عصر ازدهاره.
١٤	الفرع الأول: المنهج العلمى المثالى
٢٣	الفرع الثانى: منهج القدوة المثالية
٣٠	المطلب الثانى: المنهج فى عصر أفوله.
٣٠	الفرع الأول: ملابسات أفول المنهج.
٣٥	الفرع الثانى: إطاحة بالقدوة ومنهجها.
٣٩	الفرع الثالث: مآل الانتفاع بالقرآن.
٤٤	المطلب الثالث: المنهج فى عصر إحيائه.
٤٥	الفرع الأول: إحياء أمانة الإنسان
٤٨	الفرع الثانى: إحياء ذكر الرب الخالق
٥١	الفرع الثالث: إحياء طبيعة القرآن العلمية
٥٩	المبحث الثانى علم الخلق
٦٢	المطلب الأول: قبل الخلق
٦٦	المطلب الثانى: نظام الخلق علمياً
٦٦	الفرع الأول: أساس النظام
٧٠	الفرع الثانى: مقتضيات النظام
٧٤	الفرع الثالث: معرفة النظام

٧٩	المبحث الثالث نشأة التاريخ والجغرافية
٨١	المطلب الأول: مفردات الجغرافية الأولى
٨٢	الفرع الأول: البيئة المائية الأولى
٨٧	الفرع الثاني: نشأة البحر المسجور
٩١	الفرع الثالث: نشأة آخرة للبحر المسجور
٩٦	المطلب الثاني: أجل السموات والأرض
١٠٢	المطلب الثالث: قصة إبنى آدم
١٠٣	الفرع الأول: من هو طه؟
١٠٧	الفرع الثاني: من هو يس؟
١١٢	الفرع الثالث: ما هي ص~؟
١١٧	الفرع الرابع: ما هي كهيعص؟
١٢١	المطلب الرابع: قصة ابني نوح
١٢١	الفرع الأول: إينا نوح قبل الطوفان
١٢٤	الفرع الثاني: إينا نوح بعد الطوفان
١٣٠	المطلب الخامس: قصة عمران
١٤١	المبحث الرابع جغرافية نشأة الأرض
١٤٤	المطلب الأول: نشأتا السموات والأرض
١٤٤	الفرع الأول: أول نشأة للسموات والأرض
١٤٨	الفرع الثاني: آخر نشأة للسموات والأرض
١٥٤	المطلب الثاني: بنية الأرض شكلياً
١٥٤	الفرع لأول: سبع أرضين
١٦٠	الفرع الثاني: ملامح الأرض

١٦٦	الفرع الثالث: ملكوت الله
١٧٠	المطلب الثالث: رؤية ملكوت الله
١٧٠	الفرع الأول: نشأتا رؤية الملكوت
١٧٣	الفرع الثاني: نشأتا إمام الناس
١٧٦	الفرع الثالث: نشأتا خليل الله
١٧٨	المطلب الرابع: النفاذ من أقطار الملكوت
١٧٩	الفرع الأول: استنهاض الهمة للنفاذ
١٨٢	الفرع الثاني: نوعا النفاذ من الملكوت
١٨٥	الفرع الثالث: طبيعة النفاذ من الملكوت
١٨٩	المبحث الخامس جغرافية معالم الأرض
١٩١	المطلب الأول: عاصمة الأرض
١٩٢	الفرع الأول: موطن آدم الأول
١٩٥	الفرع الثاني: البلد الحرام
١٩٩	الفرع الثالث: البلد الطيب
٢٠٥	الفرع الرابع: معالم عاصمة الأرض
٢٠٨	المطلب الثاني: أعلى الأرض
٢٠٨	الفرع الأول: ما هو أعلى الأرض؟
٢١٢	الفرع الثاني: طوى والجودي
٢١٨	الفرع الثالث: جانب الطور الأيمن
٢٢٤	الفرع الرابع: سيناء
٢٢٩	الفرع الخامس: الحراية في سيناء
٢٣٣	الفرع السادس: مغارب مصر
٢٣٥	المطلب الثالث: أدنى الأرض

٢٣٦	الفرع الأول: القدس
٢٤٠	الفرع الثاني: مدين
٢٤٦	الفرع الثالث: مدين وطوفان نوح
٢٤٩	المطلب الرابع: الأحقاف
٢٤٩	الفرع الأول: الأحقاف قبل الطوفان
٢٥٢	الفرع الثاني: الأحقاف بعد الطوفان
٢٥٤	الفرع الثالث: الأحقاف بعد عاد
٢٥٦	الفرع الرابع: بعد ثمود الأولى
٢٥٩	الفرع الخامس: بعد قوم نُبُع
٢٦٣	المبحث السادس جغرافية العصر الحجري
٢٦٥	المطلب الأول: أول منشآت حجرية
٢٦٦	الفرع الأول: أول بيت للناس
٢٧٤	الفرع الثاني: ثاني بيت للناس
٢٨١	الفرع الثالث: تمثال رأس الإنسان الأول
٢٨٩	الفرع الرابع: مسجد أصحاب الكهف
٢٩٩	المطلب الثاني: عصر الشجرة الخبيثة
٣٠٠	الفرع الأول: أول شجرة خبيثة
٣٠٥	الفرع الثاني: آخر شجرة خبيثة
٣١٣	المبحث السابع جغرافية القرآن
٣١٦	المطلب الأول: باب الكتاب والحكمة
٣٢٠	المطلب الثاني: باب المثني والمفرد
٣٢٦	المطلب الثالث: باب المحكم والمفصل

٣٣٠	المطلب الرابع: باب الأعم والعام
٣٣٥	المطلب الخامس: باب البيّن والمتشابه
٣٤٠	المطلب السادس: باب العزيمة والرخصة
٣٤٤	المطلب السابع: باب الإلزام بالقرآن وغيره
٣٤٧	المطلب الثامن: إعوجاج في التشريع
٣٥٠	الفهرس
٣٥٥	للمؤلف

للمؤلف

- ١- التنظيم القضائي من زاوية أشخاصه - دار النهضة العربية - ٢٠٠٧.
- ٢- التنظيم القضائي فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى على التشريع - ٢٠٠٦.
- ٣- فكرة المحكمة العليا للأسلمة - ط ٢ - دار النهضة العربية - ٢٠٠٤.
- ٤- نظرية القوة التنفيذية لسند التنفيذ - دار الفكر العربى - ٢٠٠٢.
- ٥- طبيعة المهمة التحكيمية - دار الفكر العربى - ٢٠٠١.
- ٦- أساس الوظيفة القضائية - دار النهضة العربية - ١٩٩٩.
- ٧- المفهوم القانونى للبيئة - ط ٢ - دار الفكر العربى - ٢٠٠١.
- ٨- القوة التنفيذية لحكم التحكيم - دار الفكر العربى - ٢٠٠١.
- ٩- مبدأ عدم جواز تناقض الأحكام - دار النهضة العربية - ١٩٩٧.
- ١٠- اعتبار الحجز كأن لم يكن - دار النهضة العربية - ١٩٩٥.

11- The System of attacks on judgments, Comparative Study- 1989.

- ١٢- تطور قانون المرافعات واتجاهاته - ١٩٨٧.

13- The Legal theory, 2001.

- ١٤- فكرة الوسطية فى العمل الإنسانى - مصر المعاصرة - س ٩٦ - ع ٤٧٩ - ٢٠٠٥.
- ١٥- أزمة قاعة البحث القانونى - مصر المعاصرة - س ٩٦ - ع ٤٨٠ - ٢٠٠٥.
- ١٦- فكرة الوساطة الإجرائية - ورقة بحثية لمؤتمر حقوق طنطا - فبراير ٢٠٠٢.
- ١٧- أساس التنفيذ الجبرى - دار النهضة العربية - ١٩٩٦.
- ١٨- الدفع بعدم القبول فى قانون المرافعات - رسالة إسكندرية - آلة كاتبة - ١٩٦٨.

- ١٩- الوجيز فى قانون القضاء المدنى - ط ١ - دار النهضة العربية - ٢٠٠١.
- ٢٠- التنفيذ الجبرى - ط ٨ - دار النهضة العربية - ٢٠٠١.
- ٢١- أثر الصفة الأجنبيّة لعناصر الدعوى المدنية - مجلة روح القوانين - ع ٤ - ص ٢٢٥ - ٣٨٣ - سنة ١٩٩١.
- ٢٢- اعتبار الحجز كأن لم يكن - مجلة روح القوانين ع ٣ - ١٩٩٠ ، ع ٦ - ١٩٩١.
- ٢٣- الهيئة القضائية وأعاونها - فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى - دار النهضة العربية - ٢٠٠٩.
- ٢٤- مركز الشعب والدولة والرئاسة والبرلمان واللغة العربية - فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى - دار النهضة العربية، ٢٠١٠.
- ٢٥- مبادئ المحاكم الاقتصادية - فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى - دار النهضة العربية - ٢٠١٠.
- ٢٦- إعتلال صحة التفاضى فى مصرنا - فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى - مجلة الحقوق (إسكندرية) عدد خاص - مارس ٢٠١٠.
- ٢٧- الضوابط القانونية للتعليم المصرى وفق قانون جودته ولائحته - فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى - دار النهضة العربية - ٢٠١٠.
- ٢٨- انتهاك مبدأ التخصص القضائى فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى، بحث قدم فى مشروع كلية الحقوق جامعة الإسكندرية، بشأن إحياء ذكرى أساتذتنا فى تخصص المرافعات المدنية والتجارية، بكتابات فى موضوع «التخصص القضائى».
- ٢٩- أساس حقوق وواجبات المرأة فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى، بحث مقدم لمؤتمر كلية الحقوق جامعة الإسكندرية، فى أول ديسمبر ٢٠١٠.
- ٣٠- مبادئ التنفيذ الجبرى فى قانون المرافعات - دار النهضة العربية - ٢٠١١.

- ٣١- مشكلات النظام القضائي المصري فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى - دار النهضة العربية - ٢٠١١.
- ٣٢- مشكلات النظام الدستورى المصرى - فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى - دار النهضة العربية - ٢٠١٢.
- ٣٣- نظام البرلمان المصرى - دراسة انتقادية وتصحيحية - مقالة بمجلة «روح القوانين» - حقوق طنطا - ٢٠١١.
- ٣٤- أسباب تخلف الدساتير العربية - دراسة انتقادية وتصحيحية - مقالة «روح القوانين» - حقوق طنطا - ٢٠١١.
- ٣٥- الدور البيئى والمجتمعى للطالب الحقوقى - مقالة «روح القوانين» - حقوق طنطا - ٢٠١٢.
- ٣٦- تعريف الدولة المصرية دستورياً - مقالة «روح القوانين» - حقوق طنطا - ٢٠١٢.
- ٣٧- القوة التنفيذية لحكم التحكيم - ط ٨ - دار النهضة العربية - ٢٠١٢.
- ٣٨- نظرية البشر القانونية فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى - دار النهضة العربية - ٢٠١٢.
- ٣٩- أول وآخر درس فى القانون الإلهى - مقالة - مجلة روح القوانين (حقوق طنطا) ٢٠١٣.
- ٤٠- مبادئ التنفيذ الجبرى - دار النهضة العربية، ٢٠١٣.
- ٤١- انكبة العلمية للمسلمين عرباً وعجماً - دار النهضة العربية - ٢٠١٣.
- ٤٢- أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب - دار النهضة العربية - ٢٠١٣.
- ٤٣- دور مبادئ الشريعة أمام القضاء الوطنى - دار النهضة العربية - ٢٠١٤.
- ٤٤- قانون القضاء المدنى - القسم الثانى - دار النهضة العربية - ٢٠١٤.
- ٤٥- دور القضاء الوطنى نحو مبادئ الشريعة - مجلة روح القوانين - جامعة طنطا - ص ٢٠١٥.

- ٤٦- دور مبادئ الشريعة أمام القضاء - طبعة ثانية منقحة - دار النهضة العربية - ٢٠١٥.
- ٤٧- المدخل المصرى إلى القانون - دار النهضة العربية - ٢٠١٥.
- ٤٨- نحو تطوير الثقافة القرآنية - دار النهضة العربية - ٢٠١٥.
- ٤٩- نحو تطوير الثقافة القانونية - دار النهضة العربية - ٢٠١٥.
- ٥٠- مبادئ قانون المرافعات - ٢٠١٥ - دار النهضة العربية.
- ٥١- تطبيقات عملية للتنفيذ الجبرى - دار النهضة العربية - ٢٠١٥.
- ٥٢- التنفيذ الجبرى التطبيقي - دار النهضة العربية - ٢٠١٥.
- ٥٣- مبادئ قانون المرافعات - جزآن - دار النهضة العربية - ٢٠١٥.
- ٥٤- قاعة البحث العلمى القانونى - دار النهضة العربية - ٢٠١٥.
- ٥٥- النظام القضائى المصرى - دار النهضة العربية - ٢٠١٥.
- ٥٦- دور القضاء المصرى نحو الشريعة - دار النهضة العربية - ٢٠١٦.
- ٥٧- تمصير العلم والعمل بالشريعة - دار النهضة العربية - ٢٠١٦.
- ٥٨- مستلزمات الشريعة فى الحياة القانونية المصرية - دار النهضة العربية - ٢٠١٦.
- ٥٩- نظرية القانون فى مصر - دراسة انتقادية - مقالة فى مجلة روح القوانين - ٢٠١٥.
- ٦٠- دور القضاء المصرى نحو الشريعة - دار النهضة العربية - ٢٠١٦.
- ٦١- نظرية القضاء فى مصر - دراسة انتقادية - مقالة فى مجلة روح القوانين - ٢٠١٦.
- ٦٢- مبادئ التنفيذ الجبرى فى قانون المرافعات - طبعة ثانية - ٢٠١٦ - دار النهضة العربية.
- ٦٣- نظرية القضاء الوقتى فى مصر - دار النهضة العربية - ٢٠١٦.
- ٦٤- مبادئ قانون المرافعات المصرى - دار النهضة العربية - ٢٠١٦.

- ٦٥- نحو تمصير مؤلفات المرافعات - مقالة بمجلة روح القوانين - تصدرها حقوق طنطا.
- ٦٦- مبادئ قانون المرافعات المصري - ط ٢ - دار النهضة العربية - ٢٠١٧.
- ٦٧- حقوق تكريم الإنسان - دار النهضة العربية - ٢٠١٧.
- ٦٨- علم تأويل القانون (إلهياً ووضعيًا) - دار النهضة العربية - ٢٠١٨.
- ٦٩- أبو الهول ولغته في القرآن - دار النهضة العربية - ٢٠١٨.
- ٧٠- قصة الحرب الأخيرة في سيناء - دار النهضة العربية - ٢٠١٨.
- ٧١- اقتصاديات التنظيم القضائي المصري - دار النهضة العربية - ٢٠١٨.
- ٧٢- مبادئ خلق الكون في القانون - دار النهضة العربية - ط ١ - ٢٠١٩.
- ٧٣- مبادئ خلق الكون في القانون - طبعة ثانية - دار النهضة العربية - ط ١ - ٢٠٢٠.
- ٧٤- علم الجغرافية القانوني - دار النهضة العربية - ٢٠٢٠.
- ٧٥- قاعدة البحث في الشريعة - دار النهضة العربية - ٢٠٢٠.
- ٧٦- تجربتي مع القرآن - طبعة ١ - ٢٠٢٠.
- ٧٧- كيف تستذكر القرآن - طبعة ٣ - ٢٠٢٠.

